twitter@mjanen23

سمر يزبك

صلصال

رواية

لمزيد من الكتب والروايات تفضلوا بزيارة
مدونة الحب في غرفة الإنعاش
تابعونا عبر تويتر @mjanen23
فيس بوك 3abeth

اسم الكتاب: صلصال . رواية

اسم المؤلف: سمر يزبك

جميع الحقوق محفوظة

١٠٠٠/٢٠٠٨م . ١٤٢٩هـ

سورية . دمشق . ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣ +

٥١٤١٦٠٥ ١١ ٩٦٣+

موبايل: ٠٠٩٦٣٩٣٣٤٤٩٧٣٤

E-mail:ninawa@scs-net.org

العمليات الفنية: التنضيد والإخراج والطباعة

وتصميم الغلاف في مطبعة دار نينوى

القسم الفني دمشق . سوريا

القياس ١٤,٥ × ٢١,٥

عدد الصفحات: ٢١٢

لوحة الغلاف: الفنان ياسر حمود

• لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

twitter @mjanen٢٣

سمر يزبك

صلصال

روايـة

twitter @mjanen٢٣

Author: Samar Yazbek
Original Title: Clay

Second Edition
2008 -1429

Dar ninawa

Damascus - Syria

twitter @mjanen٢٣

إلى... منار

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen۲۳

كلّ الشخصيات والأسماء والحوادث والأمكنة، هي حفر على الماء، في زمن فكرته الأصل: التوالد في الزوال. وأيّ تطابق يحيلها إلى الشخصيات والأسماء والحوادث والأمكنة في الواقع الفعلي، ليس دائماً محض صدفة.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen۲۳

عرفتُ أني فقدت نفسي، بعد أن وجدتها، وعاد كل شئ. عاد الوليد حيدر، والطفل والعاشق والجندي والخائب والمهزوم. عاد الولد إلى جسده، وانتزعت أم دلاّ البصاق من فمي. قامت من قبرها في ليلة رمادية، وردت لي كل التجليات، وأتخمتني بالأطياف. كنت المحروق، والمصلوب، والمطعون، ألف ألف مرة، كنت القتيل.

لكني لم أعد ذلك الجسد الذي احبته روحي. طلقني وجودي.

رائحة الشواء... الشواء، والتنور، وساحةالسوق، والرقاب المتدلية، والأجساد المعلقة على الخوازيق، كالدجاج فوق مجمر، مشرعة للهواء الفاسد والذباب. الكوفة والشام والبحر وجبلة ودمشق، ودروب ترابية معفرة بارتحالات بشر بلا اتجاهات.

صور، وصور حيوات، وحيوات تقتلني، وأنا أصغر من احتمالها.

من أنت؟

اخرج من جلدي إلى اللانهاية.

twitter @mjanen٢٣

لو أن سحر النصور لم تخرج من بيتها قبل منتصف الليل بقليل، وتقود سيارتها بسرعة جنونية من دمشق إلى جبلة، وتدخل الغرفة الزرقاء في القصر القديم، وتوقظ حيدر في غفلة عن دلاّ وزوجها، لأنها كانت تحفظ المكان جيداً رغم مرور زمن طويل على مفارقته، ثمّ تترك الأبواب مفتوحة بعد دقائق، وتركض نحو سيارتها، وتقودها بنفس الجنون، من جبلة إلى دمشق... لما كانت هناك حكاية تحكى.

ولما استطاعت سحر النصور أن تكون، في اليوم التالي، على درجة عالية من الثقة بنفسها، وهي تحمل حقيبتها الجلدية الأنيقة في بهو المطار، وترمي بخصلات شعرها كأميرة مستهترة، وهي تعلو فوق السلم المتحرك الذي سيأخذها إلى الطائرة المتجهة إلى لندن، رغم أن تعباً طفيفاً لاح على وجهها، وأخفته كعادتها بكريم خاص ابتاعته في آخر زيارة لها إلى باريس. ورغم أنها أيضاً تركت رهام دون وداع، ولم تتذكر في رحلتها تلك أن تتوقف أمام بيت طفولتها المجاور لبيت حيدر، وتلقي نظرة خاطفة على خرابه، وهو ما ملأ قلبها بالأسى، لوهلة فقط.

إلا أن فرحاً جعلها تشعر أنها خفيفة، وأن خطواتها على الأرض أشبه بسقوط ريش بجع على بحيرة ساكنة. كان كل شئ يحيط بها جميلاً وعذباً لأنها، أخيراً، رمت ذلك الحمل الثقيل عن قلبها وأدركت لأول مرة، منذ ثلاثين سنة، سعادة الخفة، وما الذي يعنيه أن يرمي كائن حي عن قلبه إحساساً مزمناً بنخز إبر حادة بين ضلوعه، يتفاوت بين حدّ السكاكين، ومداعبة إبر الصنوبر.

كانت تفكر أن الحياة ربما تعطيها شيئاً بسيطاً من الأحلام التي غافلتها دائماً. أن تكون هي بنفسها، وبكامل ثقتها، قادرة ولو لمرة واحدة على مجابهة

twitter @mjanen٢٣

عيني حيدر بقوة، لتصرخ في وجهه، وتتمرغ تحت ساقيه، مبدية أسفها الشديد على ما سببته من آلام لقلبه الرقيق. ولأنها لم تعتد فكرة التأرجح كخرقة أمام الرجل الذي وهبها قلبه، ولأن الحياة تقول إن الوله المباغت ينصب في الطرف الآخر ناشفاً، فإنها لم تفكر يوماً بأن القلب الذي قتلته منذ سنين طويلة مضت، كان يتأرجح بين أزمان مختلفة، هرباً من وله. ولم يخطر في بالها أن زيارتها القصيرة إلى البيت القديم ستكون بداية النهاية، ونهاية البدايات التي خططت لها، وقلبها يقفز بين ضلوعها، بينما الطائرة تعلو في السماء، وهي تتذكر عيني حيدر الغارقتين في الإغماض، قبل أن تدير ظهرها له وتهبط الدرج كريشة.

ربما كان هذا السبب هو ما دفعها لاحقاً للتصرّف كعروس صغيرة، وهي تنتظر علي حسن أياماً طويلة، في لندن.

twitter @mjanen٢٣

"رائحتها حرب الكون ضدي"

تلك الجملة هي الشيء الوحيد الذي عثرت عليه رهام العلي، قرب جثة والدها المسترخية بسلام، على الكنبة الزرقاء. كانت قصاصة ورق صفراء، خشنة، ومكتوبة بقلم الحبر الستيلو الذي احتفظ به العجوز في جيب قميصه على الدوام. كل كلمة فيها تترك على الورق ظلالاً بلون الرمل الحارق. وستكتشف رهام قبل أن تغيب، وتبقى في الحكاية، أن هذه القصاصة منزوعة من إحدى أوراق الظرف الأصفر.

كان من المستحيل، بالنسبة لها، أن تحدد ما الذي عليها فعله.

وقفت بهدوء واستسلام، مرخية رأسها على الحائط، وعيناها تحدقان بذهول في الدم المتيبس على الملاءات، والمسفوح على شكل بقعة كبيرة تحت اليد المسترخية على حافة السرير النحاسي. نفس السرير الذي كانت تلعب عليه، أثناء زياراتها المتقطعة للقصر. كانت تتأمل العوارض النحاسية العتيقة، والملاءات المخرمة المنتهية أطرافها بدانتيلا غريبة الشكل، تحيط بالجهات الأربع. ومن وسط السرير، كانت تتدلى ملاءة صغيرة ناعمة تنتشر على شكل فراشة.

اقتربت من العجوز الغارق في نومه، تتأمله بغرابة، وتكتشف للمرة الأولى أنها تتفحصه بدقة. أمسكت يده، وشبكت أصابعها مع أصابعه. الصفاء والطمأنينة في سباته يحوّلانه إلى نصف إله. خصلات شعره الطويلة الرمادية توزعت على مخدته، وصدره الناتئ العظام مكشوف حتى الوسط، ومغطى بغابة بيضاء. كان يبدو كمَنْ سيرفع يديه، ويكمل فك أزرار قميصه. حذاؤه الأسود مربوط بعناية، وحزامه الجلدي العريض حول وسطه النحيف.

twitter @mjanen٢٣

كل شيء فيه كان على أكمل وجه، مفرط الأناقة، حدّ التشبه بلوحة فنية. الشيء الوحيد الذي كان ينقصه ليكمل صورة أمير أوروبي، هو شارب أنيق وناعم. كان حليقاً طوال حياته. تذكرت أنها لم تره يوماً خارج صورته التي ينام فيها، كما عرفته دائماً، بقميصه العسلي وبنطاله الأسود، وجزمة الصيد. وجد فجأةً أمامها على هذه الشاكلة، ورحل عنها، كأنه على عجلة للهرب من الدنيا. الآن بالتحديد، وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على هجره عائلتها، تستطيع أن تقول له كم افتقدته. الآن وأكثر من أي لحظة عرفته فيها، كانت على استعداد للتخلي عن مشروعها السياحي، وأعمالها التجارية الموزعة بين محافظات البلد، وإغلاق شركتها في دمشق، وهجر ليالي السهر، وبارات الشيراتون والميريديان، ولهاث الرجال وراء ضحكاتها الغنجة، وانثناءاتها. كانت مستعدة لرمي زهوها بفتنتها، والنوم بين جدران الغرفة الزرقاء، الغرفة الإلهية، كما سماها والدها يوماً: الأزرق لون خاص بوجه الله، وكلنا منه.

لوهلة توقف الزمن، وهي جاثية أمامه في لحظة فتقت روحها.

هل يكون الموت شوق الأحياء، وسكينة الموتى؟

ابتعدت عن سريره. كانت تعطي المسافة، بين ما ترى وبين الحقيقة، فرصة للتراجع. حدقت فيه، وشهقت وهي تدور حول نفسها.

إنه هو! في أول تجربة لها مع الموت. وهذه الجدران المغلقة هي غرفته، والحيطان واللوحات. هذا المكان، ليس خيالاً.

كان بكاؤها صامتاً، ودموعها لاتتدفق من عينيها. حاولت استعادته في لحظة. أرادت أن تتذكر رنين صوته، فلم تفلح. أغمضت عينيها، ليأتي صوته. كان يتسرب، فاشتاقته. ومقابل السرير، حيث كانت تدور حول نفسها، انتبهت للمرآة الطولانية التي غطت الزاوية اليمينية للغرفة، المرآة التي أفزعتها منذ ولوجها هذا العالم الغريب. شخصت إليها. إنها هي أيضاً! حقيقة واقفة في قلب المرآة، والسرير من ورائها، وهذا العجوز الممدد. إنها رهام! بطولها

twitter @mjanen٢٣

الفارع، وشعرها الأشقر الطويل، وتشنجات وجهها. هي، وليست أية امرأة أخرى. وهذا المكان ليس وهماً، أو هلوسة طالما استعذبتها بعد سهرات السكر والحشيش. هي، بأناقتها وفستانها. وليست البنت الصغيرة، صاحبة الطيف المتلاشي، والتي تزورها بين حين وآخر، وتجعلها تتأكد انها تنتمي لهذا المكان، أكثر من انتمائها إلى أي مكان في العالم. تلك الضحكات والأطياف الغابرة، ورائحة السعادة المتبقية في الذاكرة، كوشاية حكاية ممتعة، تقفز إلى ذهنها. الطيف الصغير ينفصل عنها، يخرج من قلبها، وينام هادئاً مسترسلاً إلى جوار الرجل الممدد. الطيف يعاند خوفها، ورعبها من الذكريات. الذكريات خطاف العذاب المزمن.

انتبهت إلى أن كتفيها عاريان، وأن فستانها يبدو شبيهاً بزيّ سهرة في مطعم أنيق. فالخبر لم يمنحها وقتاً لتغيير ثيابها قبل أن تطير بسيارتها من دمشق إلى مدينة جبلة، التي نحتها البشر على البحر قبل ولادة أنبياء الله. حاولت أن تخفي عريها أمام الموت، فغطت بياضها بيدين مرتجفتين، وسحبت شالها عن الأرض، ولفته حول رقبتها. كان وجهها مسموماً، وأصابعها تضغط أطرافها بقسوة.

تداخل طيف العجوز مع اتساع الفضاء الذي يمنحه انعكاس الضوء في المكان. كان جالساً قبالة المرآة، على كرسيه الخشبي المجدول بالقش، يدخن البايب، ويحاول الاقتناع بأن هذه المرآة طريقه إلى الحياة.

فتحت النافذة، كما كان يفعل والدها. جلست على الكرسي الخشبي، وأخرجت سيجارة الجيتان الأبيض، بهدوء استغربته هي نفسها، وأشعلتها. كانت تنظر في المرآة، وتستغرب لماذا تحاول الآن التحديق فيها. كل ما كانت تعكسه المرآة عتمة زرقاء من السماء، وغيمات مهاجرة.

لوهلة شعرت باتساع الغرفة، وبدأت تكتشف الأعماق التي حدثها عنها. الغرفة تكبر ويتسرب الاتساع من المرآة إلى المكان. كانت قوائم الكرسي الأربع تهتز، وتزداد قتامة الجدران وانقلابها إلى الكحلي. وفي قلب المرآة

twitter @mjanen٢٣

يتسرب الفضاء، وتكبر المرآة لتحتل مساحة الغرفة، فيبدأ كل شيء يحيط برهام بالاختفاء. عدا ذلك الاتساع اللامتناهي للطيران، أو هكذا خُيل إليها على الأقل في لحظة. ذلك الإحساس جعلها تشعر أنها تمشي على الماء. انتفضت ورمت سيجارتها، وعادت إلى سرير والدها.

هل كان في جلوسه الطويل، ساعات على كرسيه، يسبح في الماء؟ هل كان عائماً وهو يمشي فوق الأرض؟ ارتجفت، وهي تفكر بذلك. همست، مقربة شفتيها من أذنه:

- بابا.

twitter @mjanen٢٣

دلاّ التي ربيت مع حيدر منذ الطفولة، وعاشت معه وحيدة في عزلته، وخدمته ووالده طوال عمرها، كانت مغشية بالياس والصمت، وحتى اللحظة لم تصدق ماحدث.

كان موجوداً في ذاكرتها كالسماء، والتنفس الطبيعي لصدرها، ودخان سيجارتها البلدي. كان كأي أمر لم تعد تفكر باختفائه من أمامها. كان قبة السماء التي لم يخطر في بالها أن تسقط إلى الأرض. ربما يشبه وجودها نفسه. فكرت في لحظة متسائلة بينها وبين نفسها: لماذا لم تختف الأشياء كلها؟ ولماذا بقيت واقفة، هنا فوق هذه النقطة الصغيرة من العالم، ولم تغمض عينيها بسلام، مفارقة الضوء إلى عتمته؟ ولماذا أقنعت نفسها قبل دخول غرفته، أن في الأمر خطأ ما؟ هل ستخذلها الحياة للمرة الثانية؟ هل ستعاود الارتجاف الأسيان للحياة، وهي تقصم ظهرها؟

المرة الأولى للأسى كانت منذ زمن بعيد، عندما فاجأها بعد طفولة القهقهات، حين جاء يزورها. الأسى الذي لم تعرف رفيقا سواه، في تلك الأزمان، وقبل أن تفهم ما يدور خارج عقلها، عندما كان البشر في مناطق الساحل المحصورة بين البحر والجبال يخشون نزول المدن، ويتهيبون لقاء أهلها، خوفاً من الضرب والقتل. أزمنة نداءات الدماء، والصور السوداء التي لم تفارق مخيلتهم، قبل مئات السنوات، عندما كانوا يعلقون على الخوازيق، ويرمى بهم للجوارح والضباع. كانوا سعداء بوحدتهم وجبالهم التي زرعوها بالأطفال، والجوع، والقسوة. الجبال التي كانت الأمان الوحيد الذي يبعدهم عن أيدي رجال السلطنة العثمانية. وهي دلاّ ابنة الخوف، كانت تحفظ الأغاني القديمة عن ارتحالات ودماء أجدادها، وترث في روحها لوثة الأسى. كانت سليلة الهروب

twitter @mjanen٢٣

واللوعة. وحيدر كان سليلهم، لكنه سليل الأطياف والأرواح.

كان من الصعب على أهالي القرى المجاورة لمدينة جبلة أن ينتزعوا من دمائهم ذلك الخوف الذي توارثوه طيلة عقود. لكنّ التطورات التي رافقت مطلع القرن العشرين، ونالهم منها الفتات، مع دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق واستيلائه على منطقة الساحل بعد اتفاقية سايكس بيكو، أتاحت تغيير حياتهم قليلاً. كان الفرنسيون يخططون لإقامة دويلات منفصلة في بلاد الشام، بينها دويلة في الساحل، فأعطوا الزعماء بعض النفوذ. وهكذا تجاوز الأهالي الخوف بعض الشيء، وانخرطوا أكثر في حياة المدينة، فصاروا ينزلون إليها ويبتاعون حاجياتهم، ويبيعون الخضروات والفواكه، ويتعاملون مع التجار. ولولا ذلك لما أمكن لدلاّ أن تنزل في ذلك اليوم، غير خائفة، ناسية حكايات أمها وجدتها عما يفعله أهل المدن بفتيات القرى. لم تكن وحدها التي نسيت؛ كان الجميع يحاول النسيان، رغم أنهم سيعودون إلى تلك الذكريات، في سنوات طويلة قادمة.

كانت خائفة وهي تخطو برجلها المرتجفة فوق إسفلت الشوارع المرصوفة بعناية، في مدينة جبلة، في خريف ١٩٤٠. الزمن لم يعد كما كان، ولهذا كان الخوف أقرب إلى الدهشة الحزينة. الدهشة، أبجدية الحكمة اللاحقة. عندما خرجت مع زوجها بعد سنتين من زواجهما إلى المدينة، وخطت برجلها اسفلت الشارع، كانت ترتجف، وتسعل، وتعبث بأطراف منديلها الأسمر. كان اللقاء الأول مع عالم خارج حدود ضيعتها، وفرصة لمشاعرها لتكتشف معنى الانبهار. لم تكن رأت من العالم الممتد باتجاه البحر أبعد من حدود حقول القطن المترامية وراء البيوت الطينية، وكأن العالم البعيد بالنسبة لها هو آخر حقل القطن الذي يملكه والد حيدر. وعندما كانت تسمع رجال الضيعة يتحدثون عن البحر واتساعه، كانت تتخيله ندفاً من القطن الأبيض، وتحاول في عقلها الصغير أن تتخيل أجسادهم المتأرجحة والعائمة فوق ندف القطن، مستغربة كيف لايشعرون بالاختناق وسط كميات الأبيض. وبعد أن كبرت

twitter @mjanen٢٣

قليلاً، خجلت من نفسها عندما عرفت أن البحر هو الماء، فتخيلت البحر حقلاً من الماء الأبيض يشبه رغوة صابون كبيرة متحركة.

كانت في الرابعةعشرة عندما تزوجت. وبعد سنتين كان لابد لها من إيجاد حل مع زوجها، لأنهما لم يرزقا بطفل، خلاف قريناتها اللواتي تزوجن معها بنفس الفترة، وكن في مثل عمرها، وانتفخت بطن الواحدة منهن مرتين، وبقيت دلاّ على حالها. بعض النسوة كنّ يتندرن عليها قبل أن تقرر الانقطاع عن مجالسهن، ويمازحنها قائلات:

- شدّي، دلاّ، شدي! الأولاد يريدون الشدّ على ظهر الرجل. حين يصبح فوقك، اضغطيه، حتى يصل إلى رحمك.

فتستاء منهن ولاترد. تتطوع امرأة أخرى للدفاع عن دلاّ بخبث، قائلة:

- الله يسامحكن، المسألة لها علاقة بأنف الرجل. واذا كان الأنف صغيراً، يعني أن كل شي بالرجل صغير. وأنف محيمود صغير يا شحارك.

وتبدأ النسوة بقهقهة أشبه بالصهيل. تغادرهن دلاّ قبل أن ينتهين منها، لأنها لم تهتم بتعليقاتهن يوماً، أو حتى تكترث بانجاب طفل من محيمود. لكن إلحاح زوجها عليها بضرورة الخلفة، جعلها تقتنع بفكرة الذهاب إلى الطبيب. وهذه الفكرة جعلتها بعد ذلك، تلعن الساعة التي وافقته فيها على رأيه. وكان محيمود يدرك بطريقة ما، أن هذه المرأة إن لم تنجب له ابناً، فسينتهي كما جاء، من الفراغ ومن اللاشيء. وكان يريد إثبات أنه مر يوماً على هذه الدنيا، والشيء الوحيد القادر على منحه هذا الاحساس، كان الطفل. ولكن كيف له ذلك، ودلاّ لم تجعله يوما راضياً. كان يضاجعها، كأنه يقوم بشق أرض حجرية. ورغم مرور زمن على زواجه منها، ورغم ما سيمر من أزمان قادمة، إلا أن دلاّ لن تجعله يجد طريقه إليها. فما إن ينبطح فوقها حتى تتصلب، وتتحول إلى تمثال حجري، ويحاول بكل قواه فتح فخذيها، مجنونا برغبته، لكنها تأبى. وفي محاولاته القليلة التي نجحت، واستطاع فيها ولوجها بالكامل، كانت تنزف دماً لا يتوقف لأيام. والكلمة السحرية الكفيلة بجعل باب مغارتها

twitter @mjanen٢٣

يفتح، ضاعت منها الأبد، ولم تجرؤ يوما على التلفظ بها علانية، حتى بينها وبين نفسها، ومع ذلك كان محيمود يحمد الله بينه وبين نفسه أنه استطاع إزالة غشاء بكارتها، كما يفعل الرجال عادة بالنساء. ولكن الدماء التي لا تتوقف بعد كل إيلاج، جعلت منه رجلاً تعيساً، وجعلته بين وقت وأخر، وعندما تستعر نار رغبته، يكتفي بنزع سروال دلاّ، واللهاث فوق فخذيها المطبقين. لذلك كان لابد من القيام بتلك الزيارة للطبيب، لاعتقاده أن المشكلة يمكن أن تحل بطريقة ما، أو بدواء عجيب كالذي يظهر بين حين وآخر، بين الناس الذين يزورون أطباء المدينة.

في ذلك اليوم، كان "الطنبر" يرجرج الزوجين في نهاية الدرب الترابي الفاصل بين قصر آل العلي والقرية، ودلاّ ترتدي أجمل فستان لديها. والحقيقة أنه الفستان الوحيد الذي لم تلبسه أبداً، وكانت تلفه بخرقة كتان، وتضعه تحت فراشها، استعداداً ليوم استخدامه. وفي بعض الأحيان، كانت تنزعه من مكانه وتفرده على الأرض، تتأمل النقوش المحيطة بأكمامه وقبته، وتمرر يدها على قماشه الناعم الأملس، وتشعر بأن يديها الخشنتين ستخربانه، فتعاود طيه، وتعيده إلى مكانه. ثم تنام فوق الفراش، وعيناها تسبحان في البعيد، معاودة حلم يقظتها اليتيم عن أميرة مسحورة، وأمير عاشق. لذلك كانت فرصة ارتدائه أشبه بالعرس، فلم تلبس يوم عرسها ثياباً أجمل منه، ولم ترها النسوة بالمنديل القمحي المطرز، المحيط بوجهها بتخريماته ونقوشه الجميلة، والمنتهي أسفل ظهرها كذيل حصان. تمنت لو صادفت أحداً من القرية، وهي تجتازها إلى المدينة. لكن الوقت كان مبكراً جداً، والفجر لم يطلع. وكل ما يحيط بالعالم كان حولها أزرق كحلياً، وهو ما سبب لها الغم، وفكرت أن طريق العودة سيكون أفضل بكثير. حتى حذاؤها البلاستيكي، كانت تهزه وترفعه أمام زوجها المندهش من تصرفها. كانت كطفلة في السابعة، تميل برأسها، وتثني جذعها، مدندنة أغاني حزينة عن الفراق. وكان زوجها يصرخ بالرجل الذي يقودهما:

twitter @mjanen٢٣

- يا رجل، على مهل، سنقع!

ينظر الرجل إليهما بسخرية، ويهز برأسه متابعاً طريقه، مع ضحكات دلاّ التي وقفت على "الطنبر" وصرخت:

- عجّل، عمي أبوعلي، عجّل!

أسرع الرجل، وطارت العجلات الخشبية عن الأرض، وصرخ محيمود، وأمسك برجليها خائفاً من وقوعها. كانت تغني، وترقص، وتلتف حول نفسها حتى وقعت، وأطلقت زمجرة عالية وهي تحك قفاها المتألم. ثم جلست في المقدمة، إلى جانب أبو علي، صامتة، وأدار الزوج ظهره لهما. كان غير مبال بما يحدث، ولا يشغله سوى أن تنجب دلاّ له طفلاً. كانت ملامح القرية تغيب، ومن بعيد في نهاية الطريق الشجري الكثيف، كان قلبها يقفز من سريره. ما الذي سيحدث الآن؟ لم تعرف. أغمضت عينيها وقالت:

- لما نصير بالسوق، خبروني.

ولكنها لم تنتظر حتى يعلماها، فعندما أحست بأصوات غريبة، وبزقزقة العجلات فوق الاسفلت، طارت ولم يعد بإمكانها السيطرة على نفسها. فتحت عينيها، وتدلت شفتاها. كان العالم من حولها غريباً: بيوت حجرية كثيرة، وأرصفة، وشوارع، ونساء، نساء كثيرات، غريبات الشكل واللون. نساء بشعور حمراء وصفراء، وسراويل قصيرة. نساء يحملن حقائب صغيرة، وتبدو مؤخراتهن تحت الشمس، وأسنانهن اللامعة وضحكاتهن، أمام الدكاكين. ضحك أبو علي، وهو ينظر إلى دلاّ:

- هكذا النسوان يا ست دلاّ.

كانت عيناها تخرقان كل شيء، حتى واجهة المحلات، والأشياء الغريبة المصفوفة فوق بعضها، كانت المباغتة قد حولتها إلى شلال ضحك.

حاولت أن تميز كل ما تراه بدقة، لكن الزحمة الغريبة عنها فاجأتها، ومحلات الحلوى المحببة لها جعلت من عينيها مجهراً متحركاً، حلوى مدورة ومربعة بفستق ومن دون فستق، وصوانٍ كبيرة من المشبك. هي تحب المشبك،

twitter @mjanen٢٣

وتأكله أحياناً. وأصناف الحلوى الغريبة كانت تعرف بعضها في بيت إبراهيم بك، لكن هذه الكميات الكبيرة جعلتها تفتح فمها على اتساعه.

أحست بالثقل عندما لامست رجلاها الأرض. أخيراً عرفت المدينة، العالم الساحر. أخيراً صدقت حكايا حيدر عن القصور، والأمراء المسحورين، وزحام الناس. عرفت أن قصصه ليست خيالاً. وربما تتحول أحلامها إلى حقيقة. كانت تتز دموعها في صدرها، وتلعن حياتها، مندهشة بما يحيطها: الفساتين والبيوت، وجوه الناس المسرعة. كانت تريد أن تلقي السلام على امرأة تنظر إليها بغرابة، بالقرب من جامع السلطان ابراهيم. ابتسمت للمرأة فابتسمت الأخرى لها، لكن أبو علي شدّها من ذراعها بقوة، وعبس في وجهها.

كان أبو علي لا يزال يحمل في دمه لوثة الخوف من المدينة، واستغرب جرأة دلاّ، وأخبرها أن هذه المرأة ذاهبة إلى حمام النسوان. وعندما طلبت منه أن يدعها تلحق بها، لأنها كانت ترفض الذهاب مع نسوة القرية إلى الحمام، استشاط غضباً، وقال:

- لا يجوز... هذا لا يجوز اليوم. في الحمام أيام مخصصة لنساء القرى، وأيام لنساء المدينة.

استغربت دلا هذا الأمر، ولم تكن تعرف أن فصل النساء عن بعضهن كان دفعاً للشر، حتى لا تصرخ دماء الثأر في عروقهن، وهن يتبخرن بالطيب والصابون.

سارع وانحرف بطريقه، خوفا من دلاّ، لأنه كان يعرف انها قد تقفز بين لحظة وأخرى، وتلحق بالمرأة إلى حمام السوق، وتقع الكارثة. توقف بعربته أمام بناء أصفر بطابقين. وكانت العيادة في الطابق الثاني، نظيفة ومرتبة، تفوح منها روائح واخزة سببت العطاس لدلاّ. استقبلهما الطبيب بابتسامة مرحة، وهو ينظر إلى الفتاة القروية ذات المظهر الغريب. ولم تمض دقائق حتى خرجت دلاّ غاضبة، يلحق بها زوجها والطبيب المرتبك، وهي تسوي منديلها حول رأسها وتصرخ بزوجها، وأنفها يلتصق بجبهته:

twitter @mjanen٢٣

- الله لا يوفقك... بدك افتح رجليّ لرجل غريب... يلعن أبو الاولاد على أبو أبوهم!

وكانت هذه هي المرة الأولى، والأخيرة التي تزور فيها طبيباً في حياتها. لكن الخذلان بالنسبة لدلاّ لم يكن من الطبيب، الذي احمرّت أذناه وانتفخ بالضحك والإحراج، بل كان من المدينة نفسها. لقد عرفت أن سهل القطن ليس آخر العالم، وأن هناك أشياء كثيرة تختبئ خلفه، وأنها تشبه قطة محبوسة في كيس خيش. كان من الصعب عليها تخيل أن الحياة بأكملها موجودة في مكان ما، على مبعدة مسافة قصيرة منها. وأن كل ما كان يلزمها، لتتعرف على العوالم الغريبة، هذه المسافة القصيرة، والقصيرة جداً، لتتحول هي نفسها إلى كائن مختلف. كانت تشعر أنها ليست دلاّ، بل تحولت إلى أميرة، كما كان يسميها حيدر. والأبنية الغريبة والوجوه المتلاحقة ليست سوى سحرٍ يلاحقها من مكان إلى آخر، كما يحدث مع حيدر عندما كان يحدثها عن حياته السابقة.

وقفزت دلاّ.

قفزت عن الأرض. قفزت، وقفزت، أمام الرجلين المذهولين، وهي تقول:

- أخيراً... أخيراً... أخيراً!

وكانت حتى وقت قريب على قناعة تامة أنه لايجوز لها حتى التفكير في أحلامها السرية التي تتأرجح فيها مع حيدر على الأرض، أو عندما يعلوها محيمود، ويشهق شهقته العالية فوق جسدها البارد، حالمة أن هذا الجسد الداخل فيها يحمل وجه حيدر. كانت أكثر من سعيدة، وهي تشعر أنها وجدت سبباً وجيهاً يدفعها للزهو، بينها وبين نفسها، لملامسة عوالم حيدر البعيدة عنها.

إنها المدينة، المكان الذي سرق حيدر إلى الأبد. وهي الآن تعرفه، وتستطيع لمسه. كانت ماتزال تقفز عندما رأت من أحد الأزقة، ما جعلها تضيع في المدى اللانهائي للأزرق.

twitter @mjanen٢٣

البحر، أول الطريق إلى الجنة.

كانت تمد برأسها نحو الأمام، كأنها على وشك السقوط من نفسها. تتعالى برقبتها، تكبر، يتمدد جسدها، ترمش بعينيها، وتفتح فمها كسمكة.

حملق أبو علي بها، وهز برأسه عاتباً:

- هذا البحر ست دلاّ.

- البحر؟

صرخت وارتجفت:

- خذنا إلى البحر.

أدار أبو علي "الطنبر" باتجاه البحر. كانت دلاّ تضحك بصوت عالٍ أمام زوجها المندهش من حركاتها الطفولية، التي تغيرت فجأة من الحنق والصراخ إلى الفرح. كانت تضحك، تثني ركبتيها، يهبط رأسها، وتنحني بجذعها، ثم تطلق صوتاً عالياً من الضحك الهستيري وهي تتذكر كيف تخيلت البحر، وتفكر لو أن الأحراش الخضراء التي تعشقها تعلو البحر. ربما كان هذا أجمل شيء في الحياة. كانت تفكر، وتتخيل القرية جزيرة وسط بركة المياه الكبيرة، وتتمنى لو أنها تعيش وسط الجزيرة هذه مع حيدر وحدهما، دون أي كائن بشري آخر، وذلك وحده سيجعلهما بمنأى عن الأسى. صارت تنط أكثر، وأشرق وجهها بالبهاء، وضحكت، ضحكت حتى انقطع تنفسها. ولكنها في تلك اللحظات، وفي غمرة فرحها الغريب، ورغم الضحك، كانت في شحنات قلبها موجة من البكاء العالي. موجة تشبه البحر، تصل الشاطئ، ولاتقوم من مكانها، وتمشي منتصبة القامة بعيداً عن المياه. تضحك، ودموعها في حلقها، ورقبتها على وشك التفتت. لكنها أمسكت نفسها عن البكاء أمام الرجل الذي وجدته شريك فراشها في ليلة صيفية عالية الرطوبة. الرجل الذي جاء به إبراهيم بك إليها وقال لها: هذا زوجك. امتنعت عن البكاء أمامه، وضحكت، وهي تمتلئ بالسعة الهائلة لامتداد البحر أمام عينيها. وبقيت تضحك طوال طريق العودة، مستعيدة الدقائق القليلة التي قضتها أمام البحر.

twitter @mjanen٢٣

ولم تنتبه للنسوة، وهن يحملقن فيها راكبة على "الطنبر"، ولم تشعر بغيظهن الذي أرادته. كانت مغيبة في نقطة ما عن هذا العالم، نقطة لم تعرف إن كانت هي الفرح أم التعاسة، أم جيش من الذرات السوداء المانعة عنها الرؤية والتنفس. لكنها عرفتها، عرفت طعم اللحظة التي فلقت ظهرها. عرفتها عندما وصلت البيت، ونزلت عن الطنبر، وركضت نحو غرفتها، وأغلقت بابها، وانتقلت إلى عالمها الحقيقي، ورمت نفسها على الفراش. لم تبدل ملابسها، ورفضت أن يقترب الزوج من الفراش، وبقيت ثلاثة أيام تغط في سبات صحت منه مرتين. أكلت بشراهة، وعادت لتغفو ثانية. في اليوم الرابع قامت ودموعها تسبقها. استحمت، لبست ثياباً جديدة، وكانت لم تزل بعدُ نحيلة، ثم استعدت للخروج من الغرفة الطينية الملاصقة للقصر. ولم تستطع أن تمنع نفسها، وهي تمسح مخاطها، وماء عينيها، من التفوه بتلك الكلمات، بصوت قاس، وغريب:

- أنا لا أعرف أن الدنيا حلوة! لا أعرف، الدنيا حلوة ؟ حلوة! الله لا يوفقكن كلكن... الله لايوفقكم، أين أعيش أنا؟ اذا كانت الدنيا كلها في الخارج؟

ومنذ ذلك اليوم، قررت ألاّ تفارق القصر أبداً، لأن الأحلام شيء مؤلم ومزعج، ولأنها كائن لاتحتمل فكرة أن يختبئ العالم وراء سنّيها التي عاشتها. لذلك محت كل شيء من ذاكرتها، وكأنها رأته في طفولة ما. كانت هانئة بقرارها، وفكرت بأنها لم تعرف في حياتها أكثر من تلميع جدران هذا المكان. وأمها كذلك، ووالدها، وجدها، كلهم كانوا هنا، ربّوا وعاشوا على نعم إبراهيم بك. وكان عليها أن تعيش مثلهم، وأن تتزوج الرجل الذي قرر لها. وأكثر ما كان عليها أن تقبله هو أن العالم يشبه رأسها الصغير. لذلك كانت تتصرف بغرابة شديدة، ويجدها من حولها نصف بلهاء. حتى في طفولتها، وبداية صباها كانت تعرف بتصرفاتها الشاذة والغريبة.

إحدى المرات، وقبل أن تتزوج، كانت اعتادت الذهاب مع أمها، ونسوة

twitter @mjanen٢٣

القرية إلى النهر للاستحمام. ولما كانت البنت الوحيدة بينهن، فقد طلبن منها أن تقف على مقربة من أول الطريق الترابي المؤدي إلى النهر، قرب سور القصب ذي الأوراق الحادة، والذي يحيط بالنهر على جانبيه. كان النهر مايزال في تلك الآونة البعيدة، غزيراً ونقياً، ويكفي ليزيل آثار العرق والأوساخ المتراكمة على أجساد الفلاحين وزوجاتهم. والنسوة اللواتي أردن أن يطلقن عريهن لجريان النهر، نبّهن دلاّ أن تصرخ بهن عندما تلمح غريباً يتجه نحو النهر. وقفت تراقب الطريق. كان الجو صيفياً، والشمس لاهبة، لذلك اختبأت في ظل شجيرات القصب، تراقب ذلك البعيد، عندما اقترب منها أبو عبد الله، وكان زوج إحدى النسوة المستحمات، وجاراً قديماً لعائلتها. لم تحرك ساكناً، ألقى تحية عليها، مشمراً عن أكمامه، وتجاوزها قائلاً:

- ارجعي إلى البيت دلا. الوقوف تحت الشمس يسخن الدماغ، وتجنّي.

لحقت به، وقد صار مكشوفاً على النسوة اللواتي صرخن حال رؤيته، وحاولن ستر عريهن بالماء. زوجته وحدها وقفت أمامه كما خلقها الله، وصارت تصيح وتشتمه طالبة منه الرحيل. الرجل الذي ذهل للعري الباذخ، ركض بأقصى ما يستطيع حتى وصلت قدماه إلى مؤخرته، وغير وجهته، شاتماً ومتوعداً بنتف شعر زوجته. كان منفوخ الوجنتين، وعيناه تلفان في مكانهما، بعد أن لمح خطفاً تلك الجنة الفاجرة. وعلى جانبي شفتيه، كان يبز البصاق، ويلعن أبا النسوان. وأخيراً قبل أن يختفي نهائياً عنهن، صاح بأعلى صوته، رغم نشوته بالعري:

- سترين اليوم نجوم الظهر يا أم عبد الله، والله لأعمل من جلدك طبلا.

كانت دلاّ مذهولة مما جرى. والنسوة خرجن مسرعات من النهر، وتوجهن جميعاً إليها، وهن يلملمن ثيابهن ويرمينها بالأحجار والحصى. كانت أمها تصرخ فيها وتلطمها على وجهها وتشدها من شعرها لعدم تنبيهها النسوة إلى وجود رجل غريب. ودلاّ التي تحملق فيما حولها مذهولة، أجابت باكية:

- قلتن رجل غريب، وعمي أبو عبد الله غريب؟ هو من أهل الضيعة؟

twitter @mjanen٢٣

كيف يكون غريباً؟

بعد تلك الحادثة ، كانت تمر من أمام رجال القرية ولاتلقي السلام عليهم، فقد تحولوا بين ليلة وضحاها إلى غرباء عنها.

twitter @mjanen٢٣

رهام التي كانت ما تزال تصغي لعودة جسدها إلى الأرض، بعد أن غرقت في الماء، حاولت أن تلم طيرانها المفاجئ.

تتذكر المرة الأولى التي واجهته فيه، قبل عشر سنوات، عندما خالفت أوامر أمها، وقررت أن ترى الرجل المفترض أنه والدها. تذكر تماماً كيف رفض مقابلتها، وكيف أخبرتها دلاّ - التي ستتحول إلى صديقة حميمة لها - أنه لايريد رؤيتها، وطلب عدم مجيئها. ولكنها لم تيأس. كان تعويذتها المتبقية في الحياة، بعد أن فقدت عالمها الذي لم تصنعه، بل كان مقرراً لها، ولم تعرف أنها لم تتم اليه إلا بعد فوات الأوان، وعندما كان الأمر لايستحق عناء البدايات الجديدة. عادت مرات عدة إلى الضيعة، وفي كل مرة لم تلق زمنها الضائع. لكنها لم تملّ أبدا من ايجاده، حتى حدث أن صادفته يوماً، يتأهب لرحلته اليومية بعد أن انتظرت نصف نهار خلف أشجار الليمون التي تزنر البيت. كانت تنتظر في سيارتها، مصممة على رؤيته، فراقبته وهو يهم بركوب سيارته الغريبة، حاملاً بندقيته بيد، وممسكا "البايب" بيد أخرى. لم تصدق أن هذا الرجل الشبيه بنجم سينمائي هو والدها. يبدو مختلفاً عن الصورة، حتى أنها عندما أخبرت أمها سحر النصور عن زيارتها قالت بفرح إن والدها يبدو نسخة طبق الأصل عن ريتشارد غير نجمها السينمائي المفضل، رغم أنها تعتقد أنه كان في شبابه، أكثر جاذبية. وأمها التي صمتت طوال حديثها، كانت تحبس في صدرها خوفاً لم تلاحظه البنت في غمرة انفعالاتها.

ذلك اليوم اعترضت طريقه، بعد أن نزلت من سيارتها راكضة. توقفت أمامه لاهثة. أخرجت من حقيبة اليد بطاقتها الشخصية، واقتربت منه في حركة استعراضية، وضعت البطاقة أمام عينيه قائلة:

twitter @mjanen٢٣

- ربما يهمك هذا الاسم في شيء!

حملق حيدر، وأكد متلعثماً، ودون أن ينظر إلى الصبية التي ظهرت فجأة، أنه لا يستطيع القراءة دون نظاراته. ارتبكت، وصارت تقرأ:

- الاسم: رهام. النسبة: العلي. اسم الأب: حيدر. اسم الأم: سحر. محل وتاريخ الولادة: دمشق سنة١٩٦٧. هل أعني لك شيئاً سيد حيدر؟

بدا في ذلك الوقت غريباً بالنسبة لها، وهو يتفحصها. كان يبتعد عنها، ويتأمل سيارتها الحمراء الفارهة. لم تكن تشبه أمها في شيء، رغم جمال الأخيرة الأخاذ. إلا أن في هذه الصبية ما يجعل القلب يبكي. كانت تشبه باقة زنبق بري فوق جبل من صوان. تابع طريقه نحو سيارته، قائلاً:

- لن أتأخر، دلاّ ستعتني بك حتى عودتي.

وأراد أن يبتسم لطرافتها، لكنه زم شفتيه بدلاً من ذلك، وارتجف قلبه، ولمعت عيناه. أشعل محرك السيارة، ثم نفث دخاناً عالياً في الهواء، غاب مع غبار السيارة. وضحكت رهام، واثقة من نصرها القريب على وحدته. كان ذلك من سنوات، عندما كانت رهام واثقة أن السعادة مرمية تحت قدميها، مثل باقي الأشياء التي اعتادت أن تنالها في الحياة. زمن بعيد تحاول الآن تحديده. قبل ماذا؟ وبعد أي يوم؟ لاتعرف. يبدو يوماً هائماً أمام غرابة الصورة التي تراه فيها الآن.

تعود البنت الصغيرة للحومان حولها. بنت شقراء الشعر، بجديلة طويلة، لا تتجاوز السنوات الثلاث، وربما أكثر بقليل. تقفز من مكان إلى آخر، ولا تترك لرهام فرصة تثبيت ملامحها بشكل جيد. البنت تلعب على الدرج، تختبئ تحت الأحجار المرصوفة أسفل الدرج، تتسلق حائط البحرة، وتمشي بقدم واحدة على طرفها، ثم تلقي بنفسها إلى الماء. تتدحرج بين الأعشاب. أصوات لأزيز حشرات غريبة. تعرف رهام أنها تحتفظ بتلك الأصوات، وتأتيها بين وقت وآخر في الأحلام، وفي ساعات الصفاء النادرة التي اتيحت لها، عندما كبرت، وحاولت استعادة طفولتها. الدرج ينزل مع الأقدام الصغيرة، ويتفرع إلى جذوع

twitter @mjanen٢٣

الأشجار، والبنت تركض وتلعب مع صبي صغير ذي ملامح ضبابية. تُفتّق قلب رهام، وأصوات الضحكات العالية لولد وبنت صغيرين، يغافلان من حولهما، تحت أغصان أشجار الليمون. قهقهات، وأزيز يطن ويطن، والبنت تقفز من حضن إلى حضن. لكنه هو ذلك الحضن المثبت بالذاكرة، وتلك العينان الثابتتان اللتان لم تتحولا إلى طيف، وكانتا السبب الذي عاد بها يوما إلى الضيعة. الحضن الذي كانت تغمض عينيها لأجل تثبيته في دمها، كلما كبرت سنة، وتستنشق رائحته، وتتخيل أنه لابد أن يأتي. هذا الأب البعيد، وتلك السعادة الغابرة للبنت ذات الجديلة، البنت نفسها التي قصت جديلتها. ولم تعرف إن كانت تلك الأطياف حقيقةً، أم وهماً منها بمرور تلك الأزمان الطافحة بالهناء بين أمها وأبيها.

لم تحاول معرفة ما حدث لاحقاً، ولماذا اختفت تلك الأطياف، وروائح الحشائش، والصباح. لم تسأل امها كثيراً، بعد أن كبرت، عن السبب الذي جعل والدها يهجر العالم بأسره. إنها، منذ استطاعت حياكة سؤال في عقلها، كانت لاهية عن العالم بحبّ الصبي الذي كبرت معه لحظة بلحظة. وعندما كان الأوان مؤاتيا لتفعل ذلك، كانت قد نسيت تلك الأطياف والرائحة، وصارت مشغولة بحلم القوة، وبسط النفوذ على من يحيط بها، والهروب... الهروب المستحيل من ذكريات لياليها الماجنة مع حبيبها، عندما كانت تخبره بجسدها كيف يمكن لامرأة عاشقة أن تختصر العالم بأسره، عبر مساحة لا تتجاوز حجم سرير.

كبر الصبي الحبيب فادي بن علي حسن، وكبرت البنت رهام بنت حيدر العلي، وتلاشت القهقهات. وكبر حيدر داخل جدرانه، وكبر علي جسن، في كل مكان كبر، ونما حتى صار أكبر من كل ما يحيط به. ورهام تبحث عن طيف البنت التي تقفز أمامها. تدرك الجنة التي لن تعود أبداً، والتي اقتطعها علي حسن من قلبها، وأكمل على ما تبقى منها موت حيدر النائم بهدوء على سريره.

twitter @mjanen٢٣

عادت لتهمس في أذنه، فاصطدمت بيده الدامية. لم تكن دامية تماماً، لكنها، خلا اللون الخمري القاتم الفارق في الملاءة، كانت كأي يد بشرية أخرى لإنسان سيصافح بحرارة، بعد لحظات، شخصاً حبيباً. ولو أنها انتبهت قليلاً، هي أو دلاّ، لعرفت أن تلك البقعة الحمراء لم تكن سوى ظلال غمامة حمراء سكنت ذلك المكان إلى الأبد.

انتزعت أصابعه، ولثمتها. أحست ببرودة جسده، وعرفت أنه لم يعد موجوداً. نشفت عروقها. في هذه الأثناء كانت دلاّ قد دخلت غرفة العجوز، بعد توجسها من تأخر ابنته في الغرفة، وصرخت تدعو زوجها لإغلاق بوابات القصر أمام أهالي القرية الفضوليين، ومساعدتها في حمل الصبية المتيبسة فوق جثة والدها، والتي تمص أصابعه في فمها كالأطفال، وتحمل باليد الأخرى الظرف الأصفر الذي سلمتها إياه قبل لحظات من دخولها غرفته.

أخذت دلاّ تبرطم وتسب وتلعن هذا الجيل الجديد من البنات اللواتي لايتحملن رؤية الدماء، وهي تحاول انتزاع رهام من السرير، وتشتم زوجها لأنه لايجيد حمل امرأة تشبه عود القصب، وتسأله كأن شتائمها لا تعنيه:

- استغرب نساء هذه الأيام! يخفن رؤية الدم، رغم أنه يملأ أفخاذهن كل شهر!

twitter @mjanen٢٣

كان من المستحيل لإمرأة مدللة مثل سحر النصور أن تتوقف عن العذاب وهي تلم كل يوم، وعلى امتداد سنوات طويلة، إحساسًا بالألم الذي كان ينتابها في أرق الليالي. يؤنبها، ويرقرق دموعها وهي تستعيد مرارة ما حدث، وكيف استطاعت رغماً عن روحها، أن تحتفظ لحيدر بالمهابة المفترضة لرجل عاشق ومجنون.

كانت تلم شتاتها بين الحزن والتعاسة، وتبكي بعيداً عن علي حسن، رجل لحمها وشهقاتها، لأن السطوة القاتلة التي لف بها حياتها كانت بحجم حبها له. ومع ذلك خشيت على اللحظات الدفينة أن يلتقطها رجلها الذي دمرت قلب حيدر لأجله، وأن يعرف بوسائله السرية المعتادة أن ثقلاً يقتلها. كان جباراً، وقادراً على لحظ ثقل الرمش فوق جفنيها. ولم ترتح حتى قامت بتلك الرحلة المجنونة ليلاً إلى مدينة جبلة. ولم تتخلص من ثقلها حتى رمت بحملهاعن قلبها، واستطاعت أن تواجه حيدر بعد غياب العمر، بالسبب الحقيقي الذي دفعها لهجره، وبفكرة أخرى أرعبتها هي نفسها حين باحت بها علانية للمرة الأولى، بصوت مسموع. لم تدرك أن رمي هذا الثقل كان يحتاج الشئ الكثير. الشئ الذي لم تتخيله أبداً، والذي ستدركه بعد فوات الأوان، عندما تخرج من دفتي الكتاب، وتعود شخصية حقيقية من لحم ودم. تنتظر هبوط طائرة قادمة من لندن، تحط على أرض دمشق. لكنها الآن لم تعرف ما الذي حدث. تكتفي بشرب فنجان نسكافيه ساخن في فندق أنيق، يطل على تقاطع عدة شوارع مكتظة بالعمارات ذات الطابع الإنكليزي الأنيق. وفي الوقت الذي كانت ترتشف فيه قهوتها، منتظرة مكالمة هاتفية من علي حسن الذي ينبغي أن يوافيها إلى لندن، كان الأخير يطير بسيارته على نفس الطريق الذي طارت

twitter @mjanen٢٣

عليه منذ يومين، متجهاً إلى نفس المكان الذي توجهت اليه. لكنه هذه المرة لم يحمل في سيارته زجاجات الويسكي، وتحفزاً لمواجهة حيدر، بل كان يحبس غصة جعلته يشعر أن حلقه سينفجر وهو يتذكر أن سحر الآن تنتظره، وحيدر غارق في نومه الأبدي.

كانت عجلات السيارة على وشك الاحتراق، وقلب سحر هادئاً سعيداً كغيمة، فوق سهل. وكان باستطاعتها، بعد مرور زمن طويل، أن تتذكر في هذه اللحظات الغريبة، شاباً نحيلاً يصرخ بها أن تتوقف وتسمعه، وإلا فإنه سيرمي بنفسه من أعلى الجرف النهري الذي صادفته عليه، وهي تتجول فوق فرسها الشقراء. وكان باستطاعتها أن تحمل، بعد الغياب رائحة جسده وهو يطوقها بيديه، ويحملها عن الأرض، بين نظرات الناس المندهشين من عريس يذوب على عري رجلي العروس المنذورتين.

كان هناك زمن فاصل بين قدرتها على اعادة إحياء صورته الأولى، يفاعته وذبوله ونُوَسَانه، وبين الحياة والعيش اللذين سرقتهما من ضوء عينيه. لم تعد تذكر كيف حدث أن خفق قلبها للارتعاش، وكيف مدت له أصابعها بسخاء، وسحبت من قلبه الروح. وتحاول، بعد أن تركته في غرفته الزرقاء عائدة إلى دمشق، أن تلوح لنفسها بالنصر، والتعاسة القادمة. تحاول استرجاع نتفٍ من صورته الأولى، فلا تفلح.

حيدر الملوع المنحني على نفسه، القادم دائما من الجهة الشمالية، والمختبئ وراء شجيرات القصب، يتحرك بخفة شبح، ويسرقها من النوم. حيدر المرتخي على حصانه، بقميصه الأبيض وعينيه الشاردتين، المارق تحت شباكها، لا يختفي أبداً. كان يعتلي فرسا صهباء، وهو يدور حول بيت سحر النصور، يحمل بيده أقلاماً وأوراقاً، وينزل أسفل الجرف النهري، يختفي ويعود، ثم ينزل حتى يلمّ الضوء، فيختفي، ويظهر وراء شجيرات القصب من جديد.

حيدر الأول اختفى من الذاكرة فجأة، وعاد اليها بعد سنين، عندما صار شبحاً، يحوم في بيتها ليل نهار، ويختفي بين أحضان علي حسن. ولكنه يعاود

twitter @mjanen٢٣

الظهور أمامها أحياناً. والخيالات التي كانت تلح على قلبها، ثقيلة، اختفت. ولم تبق سوى صورة العجوز الذي فاجأته منكباً على أوراقه كالعادة، في قصره المهمل. لم يكن ذاك الشاب الأبيض، لكنه كان ما يزال يحتفظ بنظرة عينيه نفسها، وانبهاره بحضورها. كانت ما تزال تشعر نحوه بنوع من الإعجاب الخفي. وإذا كانت هجرته بعد ليلة مجنونة بين أحضان علي حسن، صديقه، وقلبت حياتها رأساً على عقب، فإن ذلك لم يجعلها تكف عن الخفقان لتلكما العينين اللتين قابلتهما بعد أكثر من ثلاثين سنة. وهذا الخفقان لم يتجاوز حدود القلب، وضعف الذاكرة، وبقي مدفوناً في عتمة مضنية من روحها. لكنها الآن أكثر من سعيدة، بعد أن أخبرت حيدر بما حدث، وطلبت منه الابتعاد عن رهام، وعلى طريقتها المعتادة في رمي الأشياء وراء ظهرها، غير مدركة أنها رمت كل شيء، ودفعة واحدة، في بئر عميقة إلى غير رجعة.

twitter @mjanen٢٣

كانت رهام فاقدة الوعي، ودلاً تحاول التنفس ومقاومة الاختناق وهي تتحرك في مكان ضيق، وتدور حول نفسها كمكوك. هذا الدوران لم يفارقها. كلما وقعت في مأزق أو في مشكلة، كانت تدور حول نفسها، وتمسك عنقها فتبدو على وشك الموت. وهذه الحركة التي قامت بها للتو، لم تكن مختلفة عن تلك الحركة التي أعقبت الضرب الشديد الذي تعرضت له من النسوة المستحمات في النهر. بعد تلك العلقة، بقيت تدور حول نفسها، وأمها تصرخ للحاق بها، لكنها كانت مع عالمها تدور وتدور. عيناها المفتوحتان على السماء كانتا تغرقان في سهب صفراء، لم يرها أحد من قبل. سهب واسعة، ومفتوحة على الكون، حيث كل الأمور واضحة، ولا حاجة لها للتفكير أو حتى تحريك أصابعها. هذه السهوب تلاحقها حتى في مثل هذا اليوم. ولأنها اعتادت الصمت والرضى، فقد كان عليها أن تقبل من الله أشياء كثيرة لاتعاتبه عليها. أشياء تشبه سقوط ورقة صفراء عن غصن، لحظة خريف. كانت مقتنعة تماماً أنها تشبه هذه الأوراق الصفراء النازلة برضى نحو الموت، وكانت مكتفية بالسب واللعن بين وقت وآخر، على حياتها وعلى غضب الله عليها لأنه خلقها في مكان كهذا. وتصبّر نفسها أنها في حياتها الثانية، بعد موتها، ستعيش كأميرة حكايات حيدر. كانت غريبة في الاعلان عن نفسها، الإعلان عن الفرح، والغضب، والكراهية. وكانت تفعل كل هذه الأشياء بطريقتها الخاصة بها.

وهكذا كانت لها طريقتها الخاصة في الانتقام، إذا أرادت أن تنتقم. فبعد أن كفّت عن حضور مجالس النسوة وسماع تهكماتهن، أخذت تنتقم منهن في الأعراس. كانت هي التي تلم النقوط الذي ينزل على العروس، والعادة تقتضي

twitter @mjanen٢٣

أن ترفع صوتها وتعلن عن المبلغ المقدم، حيث يتفاخر المدعوون بالنقوط الأغلى. لذلك وما أن ترى النقوط مقدماً من زوج إحدى النسوة اللواتي هزأن بها في يوم من الأيام، حتى تعلن بصوت عالٍ عن مبلغ أقل مما قدم في الواقع. وإذا كان النقوط يخص امرأة تحبها، كانت ترفع لها المبلغ. وجرّاء مبالغاتها هذه كانت تنشأ الكثير من المشاكل في الأعراس، حتى انقطع أهالي الضيعة عن دعوتها إلى أعراسهم. وعندما حرمت من الأطفال، رفضت أن تعاود زيارة الطبيب، وصرخت ذات مساء بزوجها محيمود: تريد الزواج؟ أنا ابحث لك على عروس. لكن محيمود كان يفضل الموت على الابتعاد عن دلاّ، لأنه كان يحبها بعد الله، أوهكذا كان أهل الضيعة يقولون عنه. وكان مشهوراً أنه إذا أراد أن يحلف ليؤكد أمراً ما، كان يقول: وحق الخضر وحياة دلاّ.

لم يكن للابتسامات الخفية على وجوه الناس، أن ترده عن قسمه المشهور هذا، طُوالَ حياته. ومرّة صاح فيه أحد الرجال، الذي سيتحول في السنوات القادمة إلى شيخ الضيعة، بأن يكف عن الحلفان بزوجته وكأنها ولي من أولياء الله. في ذلك اليوم، والناس مجتمعون تحت شجرة الجوز نفسها، البيت الأول لمحيمود، أجابه الرجل الغارق في الحب :

- أنا، دلاّ عندي مثل الله!

وكان الرجل المتحول إلى شيخ جليل يصرخ فيه:

- هذه امرأة، وحرام عليك يا رجل أن تقسم بها. انها ضلع قاصر، ولا عقل لها، ولا تحمل الدين في صدرها!

لكن أحداً منهم لم يكن يعرف ما الذي يعنيه أن تكون امرأة مثل دلاّ، ربّاً لرجل مثل محيمود عبد الله. وعبد الله لم تكن كنيته، فقد أطلقت عليه بعد أن وجد ذات ليلة، شتوية غزيرة، في شهر أيار، مرمياً إلى جانب المزار تحت شجرة الجوز الكبيرة. بقماط أبيض، تحول إلى الأصفر والأحمر بفعل الطين والمطر، وبكاء أشبه بالثغاء، ملاعباً حبال المطر. وكان وجوده معجزة بالنسبة لأهالي القرية، بعد أن بقي ليلة كاملة والأمطار تنسكب بغزارة فوق جسده

twitter @mjanen٢٣

الضعيف. ورغم أن المكان كانت ترتاده بين الحين والآخر بعض الضباع، الا أنها لم تقرب المكان تلك الليلة الماطرة، وبقي الرضيع محمياً من زخات المطر، تحت شجرة الجوز. ولم تنفصل دهشتهم تلك عن خوفهم، وتمسكهم بقداسة تلك الأمطار التي أثبت وجود الطفل وبقاؤه على قيد الحياة سرّها وبرهانها، مؤكداً من جديد عظمة وقداسة اوليائهم الذين كانوا واسطة نزول الخير على الناس. في مثل هذه الأيام، وقبل مئات السنين، يروي العجائز الذين يستطيعون تحديد زمن نزول الأمطار وانحسارها بدقة، أنه مرت على البلاد أوقات عصيبة، جفت فيها المياه، وانقطعت الأمطار. وصار الناس على هاوية الموت، ضامري البطون، ناحلي الأبدان. وماتت العروق الخضراء فوق الأرض، ولم يبق هناك من زرع ومن شجر، وتفرق الناس في الأراضي الواسعة يبحثون عن منجاة لهم من العطش والجفاف. ولما احتار سلطان البلاد في أمره، وكان يحكم من مدينة حماه آنذاك، أشار عليه رجاله الاستعانة بالله، وبرجال أتقياء، زهاد، صالحين، مقربين من الله، لديهم أسرارهم وبراهينهم، ليدعوا الله أن يكف العطش والموت عن عباده. وأرسل السلطان في طلب الشيوخ التقاة من جبال الساحل، فاجتمعوا في بيت كبيرهم الشيخ حاتم الطوباني، واختاروا عشرة منهم، توجهوا إلى السلطان. وعينوا ليلة للدعاء، كانت في التاسع عشر من أيار، من عام ١٣٢٥. ومنذ المساء، وحتى طلوع الفجر، والشيوخ العشرة يدعون الله، غائبين في تمتماتهم ورؤاهم وأحلامهم المعلقة بين العطش والفقر ونور الكون. وفي فجر اليوم العشرين من أيار، تعلقت السماء بالأرض بحبال من ماء، وبقيت الأرض متصلة بالسماء أياماً وأياماً. ومنذ ذلك التاريخ وحتى هذه اللحظة، صارت السماء تصل الأرض بحبال ماء، وتحولت تلك الأمطار المنتظمة الهطول إلى سرّ وبرهان إلهي. وكان كل ما يأتي منها مبارك، ومحمود، ومبعود عن الغضب واللعنة. لذلك، وفي تلك الليلة بالذات، بعد مئات السنوات على الأدعية، وفي نفس الساعة، اكتشف أهالي القرية الطفل المرمي إلى جانب المزار، ضاحكاً لحبال الماء، في العشرين من أيار. تذكروا الأتقياء والدعوات،

twitter @mjanen٢٣

وأسرار الله وبراهينه، واعتبروا وجوده بينهم امتحانا من عند الله، وعطية منه، بعد صموده الليل بطوله دون أن يصاب بأذى. كانوا يشعرون بانتمائه إليهم جميعاً، ولم يفكر واحد منهم بالسؤال عن أبويه، ولماذا رمياه في ليلة قاسية، دون شفقة. كان القدر قد أرسله لهم، وعليهم الاهتمام به، وكأنه واحد منهم، فأحاطوه منذ تلك اللحظات بعناية كبيرة جعلت منه ابناً لكل واحد منهم. كذلك جعلت إبراهيم بك نفسه يرعاه فيما بعد، ويتكفل مسؤولية إطعامه ومبيته الذي لم يتغير منذ أن استطاع الاعتماد على نفسه. وبقي في ضريح المزار، حتى زوّجه إبراهيم بك ذات ليلة من دلاّ.

وحب وغرام محيمود الذي ارسلته أمطار الأولياء، لم يغير قلب دلاّ، ولم تمنحه الطمأنينة التي أرادها منها أبداً. فهي لم تنس أنه اندس في فراشها رغماً عنها، وأن أهالي الضيعة كلها يعرفون أنه وجد ذات صباح مرمياً تحت شجرة الجوز الكبيرة. حتى عندما تزوجها، لم يطلب منه الآغا مهراً، وبيتاً. كان ينال عطف الجميع بصمته، أو هكذا كانت تعتقد، وهو ما أثقل قلبها بالآلام، وجعل نفورها منه يزداد. أما هو فقد كان يريد الانتماء إلى كيان ما في الحياة، يجعله أكثر وجوداً من هلاميته، فازداد عشقه وكبر نفورها مع الأيام. وعندما قررت ألاّ تخرج أبداً من القصر، صارت تعامله كشيء لاوجود له، لأنها اعتبرته سراً بينها وبين نفسها. المسؤول عن انتهاء حلمها، وكيف سُرقت من عبث طفولتها، والألعاب السحرية والسرية لفردوسها المفقود، وهي تتشيطن مع الولد النظيف، الولد الأنيق حيدر.

أمير الحكايا الحزين.

رفيق الأحراش والهذيانات الدائمة عن الحرائق والدماء والقصص الغريبة.

هذيان الارتجاف الأول لوجودها كله.

لم تستطع يوما نسيان الزمن المضيء، حين لعبت مع حيدر فوق البيادر، وانزلقت ككرة بين ذراعيه وهما يقفزان من شجرة إلى أخرى. يتمرغان بين الجداول الصغيرة المصنوعة خصيصاً لري الأراضي، وطعم الطين، ورائحة

twitter @mjanen٢٣

الأعشاب التي يقضمانها معاً، وهما يتنقلان كضفدعين حول حواف النهر. كان الزمن مختلفاً، والفرنسي ما يزال في البلاد، وحيدر يغيب في الشتاء ويعود في الصيف. تنتظره أمام شجرات التين التي لم تعد موجودة الأن. ورغم أنها لم تعرف تقويماً، ولم تفك حرفاً، إلا أنها كانت تعرف اليوم الذي سيعود فيه. كانت الطفلة دلاّ تحسب بأصابعها الصغيرة أيام غيابه، وتحفرها على الجدار الطيني. وعلى الجدار نفسه صنعت خريطتها السرية، عدد الأيام التي سيقضيها في القرية، وعدد الأيام التي سيتغيب فيها هناك بعيداً جداً قرب البحر، كما قالوا، حيث يعود بكتب وصور، وأقلام، وحكايات كثيرة يرويها لها، بين ممرات الساقية الصغيرة. كان، بعد أن يقضي يوماً أو اثنين مع والده، ينزل لملاقاة دلاّ التي ما إن تمشي وراءه حتى يبدأ بالقفز أمامها، فتلحق به مقلدة حركاته. يشتد الركض فيتسابقان عبر حقول القطن، ويصرخان على بعضهما، وتنسى دلاّ أن الولد هذا هو السيد القادم، فتتجرأ وتمسك به من ياقة قميصه، دافعة بثقلها نحوه، فيتدحرجان تحت سيقان نباتات القطن. وبعد أن تعلن نصرها، يباغتها بشدها من شعرها، صارخاً: استسلمي! فتقول: استسلم. ينزل يده عن شعرها، ويمسكها من يدها. تجري وراءه، وهو يتمتم: ستتالين عقابك الآن. تقول: لمَ ؟ يقول: لأنك حولت الأميرة إلى عصفورة. أنت الساحرة الشريرة، وأنا الأمير الذي سينقذ الأميرة.

يصلان الجدول الفرعي للنهر المحاذي لشريط الأشجار حول القصر، يأمرها: هيا انزلي إلى مائي السحري. وتنزل إلى النهر، فيلحق بها، ويتراشقان الماء، وهو يصيح: هيا، فكي السحر عن أميرتي. فتجلس وسط الماء، وترمي برأسها في النهر، وتفرد رجليها، وكأنها تعوم، ثم تخرج بسرعة واقفة على رجليها، فينتفض فرحاً ويصرخ: عادت أميرتي من سحرها. ثم يقترب منها، ويأخذ بيدها ويقبلها كأمير، قائلاً: انتهى الشر، وقضيت على الساحرة، ياأميرتي. ولاتستطيع أن تكتم ضحكتها، فتطلق صوتاً عالياً، وتقلب على قفاها من الضحك، فينهال عليها تقريعاً:

twitter @mjanen٢٣

- كَملي دلاّ الحكاية.

يعاودان الحكاية، حتى حلول المساء، فتكون دلاّ مبللة بالطين والماء والخدوش، ويكون حيدر على شاكلتها. لكن والده لايراه، لأن أم دلاّ كانت تعرف أن الابن المدلل سيعود مبللاً بالوحل. فتنتظره، مع ثياب نظيفة وتجففه، صارخة بابنتها، أن تنتظر خارج الغرفة، ريثما تنتهي من حيدر. وعندما يخرج، كان كل شيء يعود إلى ما كان عليه. يركض حيدر نحو الدرج ملوحاً بيده، وتلحقه الأم، وتغيب حتى ينتهي عشاء إبراهيم بك وابنه. وفي هذه الأثناء تكون دلاّ قد نظفت نفسها واندست في فراشها، واطبقت جفونها فوراً منهكة من التعب. وفي أحلامها كانت ترى الولد الجميل، يرفعها بين ذراعيه، ويقول: سآخذك ياأميرتي. لكن الولد فجأة يتحول إلى وحش، وينتهي حلمها. هذا الولد هو نفسه، الذي كان يأتيها في أحلامها أميراً ووحشاً، والذي اكتشفت أنه كابوس، وأنه ابن البيك وهي ابنة المرابع. الولد ذاته بضحكته وصياحه، وتعرق يداه حول خصرها وشعرها. هو نفسه الولد الذي يرقد هنا أمامها، بصمته، ويمد يده لها، اليد نفسها التي رحلت مودعة، إلى مدينة اللاذقية. اليد صاحبة القميص الأبيض، والحقيبة المدرسية. اليد التي كانت تختفي في الشتاء وتعود في الصيف. اليد التي اختفت في الشام، وعرفت الحب، وعادت في يوم خريفي، لتمسك بيد امرأة آخرى.

كان ذلك منذ زمن بعيد. لكنها لاتحتفظ له بنفس الذاكرة. كانت تريد أن تنسى ذلك اليوم، عرس حيدر الكبير.

كان زوجها مشغولا بترتيب أمور العرس، طالباً منها برجاء مساعدته. ورغم الضجيج والموسيقا، والخيول الراقصة، والمفاجأة التي خلفها السجاد الأحمر، بعد أن اخترق القرية كاملة، لتدوس عليه عروس حيدر... رغم كل شيء، بقيت في غرفتها، ولم تستجب لنداءاته. أقفلت الباب على نفسها. وكان إبراهيم بيك جلب نساء عديدات للاعتناء بالعروس، بعد موت أم دلاّ، لأنه كان يعرف أن دلاّ تبقى ساهمة عن كل شئ. ومن الصعب الاعتماد عليها في أمور

twitter @mjanen٢٣

كهذه.

آنذاك أقفلت النافذة، وصرخت بزوجها أن يتركها وحيدة، ووضعت إصبعيها في أذنيها، وغطت نفسها بلحاف سميك، وأغمضت عينيها. كانت تتعرق تحت اللحاف، وتشعر بصفير حاد يصم أذنيها، لكنها بعد ساعات، غرقت في نوم لم تصح منه حتى مساء اليوم التالي. كسر إبراهيم بك الباب عليها، وهو يرثي لحال محيمود الدائخ. ورشّت النسوة برميلاً من الماء فوق رأسها. وحينها أفاقت وعادت إلى حياتها كأن شيئا لم يكن.

كل ذلك كان من أجل تلك اليد الحانية، والتي ما تزال آثار أصابعها الطفولية على جسد دلاّ. تلك اليد الصغيرة التي رحلت مودعة بالدعاء والورود، عادت لها بعد غياب، بعروق زرقاء، ورجفة خفيفة. وبقيت إلى جانبها ثلاثين سنة، تتناول منها شاي الصباح، ناسية كل شيء. اليد نفسها التي حقدت على العالم، وعلى الزوج، وعلى إبراهيم بك من أجلها. الآن تختفي فجأة، وتعلن الغمامة الحمراء بهدوء: النهاية.

كانت دلاّ تقف على باب الغرفة، تتمعن في تفاصيل حيدر للمرّة الأولى في حياتها. تخيلت أنه يضحك، فانفرج فمها عن ضحكة، سرعان ما قتلتها وزمّت شفتيها كطفلة حرون. حتى البارحة كان موجوداً. مساء أمس طلب منها أن تغلق الباب وراءها، وهي تدخل غرفته. كانت مقطوعة الأنفاس، إذ لم يسبق له أن فعل ذلك. أخذ يحدق بها بغرابة، ويبتسم لأول مرة كالطفل الذي كانه، وهما يلعبان فوق البيادر. قال:

ـ دلاّ، غداً تأتي رهام. سلميها هذا الظرف.

كان غريب الشكل. عيناه زائغتان، وشفته السفلى بالكاد تتفرج. وكان صوته يكاد يخرج من عينيه. أمسكت الظرف بيدها. لم ينتبه إلى رجفتها، وهي تتناوله، لكنه عاود النظر في عينيها. صمتت، وشعرت بماء يتدفق من أرجاء جسدها. دار في مكانه، واتجه نحو المكتب الخشبي المطل على النافذة، ثم جلس. كان يحدق بمحتويات غرفته، برفوف الكتب التي تغطي

twitter @mjanen٢٣

الجدران بأكملها، في السرير النحاسي الملكي، في الصورة الكبيرة لفارس نحيل يحمل رمحاً وترساً وينظر إلى الأمام بأسى وألق والتماع. إلى الخلف منه بدا رجل بدين، يعتلي حماراً. وأمام الرجلين كانت تلوح طواحين هواء بأذرع طويلة.

لم تعرف ما الذي عليها فعله. تنصرف، أم تبقى؟

دائماً انتظرت أوامره برضا وخشوع. وضع نظارته على عينيه. قالت باضطراب: تشرب شاي؟ قال: إذا شربتها معي. كانت لا تصدق ما تسمع. هي تشرب الشاي معه؟ إنه يعود إلى أزمنة طفولتهما، فهتفت: أشربها... أشربها!

صنعت الشاي، وأحضرت صينية جديدة تناولتها من الدرسوار القديم. كانت من الفضيات القديمة، ولم تستخدمها طيلة عقود، منذ توفي ابرهيم بيك. وضعت فنجانين مذهبين، وصبت الشاي المعطر، وأخذت ترتشف فنجانها صامتة، دون أن تنظر إليه. قال:

- خلّي الإبريق عندي. أحب الشاي بارداً.

في لحظة نظر إليها، وكان ما يزال يبتعد:

- أسوأ شيء، دلاّ، أن الحرش اختفى من الضيعة.

الحرش؟

قفز قلبها...

طارت دلاّ، وهربت، وعادت إلى البنت والصبي اللذين يدوران في الأحراش.

سكري الباب، قال.

كانت تلك آخر كلماته، وأحست أنه يريدها أن تغادر. أغلقت الباب، ونزلت الدرج، يدها تضغط على الظرف الورقي الأصفر. كان يحتوي مجموعة أوراق كما يبدو. تمنت لو استطاعت فك الحرف. كان الماء الذي تدفق من جسدها ينحبس داخلها ويغلي. في اليوم التالي، وهي تسلم رهام الظرف قبل أن تصعد إلى غرفة والدها، قالت لها أن تحفظه جيداً في الحقيبة، لأنه يحتوي على أوراق مهمة. كانت تستطيع تخمين أهمية الأوراق من الطريقة التي أمسكها

twitter @mjanen٢٣

بأصابعه وضغط عليها وهو يطلب منها إيصالها.

كان حيدر قد عاد بعد غياب طويل. تزوج وأنجب بنتا كالقمر، وصار ضابطاً كبيراً في الجيش. عاد فجأة، وحيداً، بلا قبعة عسكرية. رحل صغيراً، وعاد بشاربين، وحزن، وسيارة مكشوفة. وهي لم تغادر ذلك القصر أبداً، ولم تعرف ما هو أبعد من أطراف الضيعة. وعندما حاولت بعض النسوة ثنيها عن قرارها بعدم النزول إلى المدينة، كانت تصرخ بهنّ:

- الله يخليكن. تركوني بحالي... إذا نزلت هذه المرة، لا أرجع أبداً.

فتحملق النسوة فيها مذهولات.

كانت واقفة أمام باب الغرفة، ورهام مرتمية، فاقدة الوعي، في الغرفة التي تلي الممر الصغير. صاحت بزوجها لتتأكد من خروجه. لم تسمع جواباً، فاطمأنت إلى خلو المكان، فسارت بضع خطوات وصارت في الداخل. أغلقت المزلاج بهدوء وكأنها تخاف إيقاظ النائم. استدارت نحوه وفتحت عينيها كأنها تبصر النور للمرة الأولى. شمت رائحة البيادر، وهي تخطو خطواتها المنومة إليه. عبق الطين والحشائش، وخز الشوك، وطعم الديس الأحمر، كل ذلك مرّ تحت أنفها وعبر لسانها وهي تتأمله. كان طولها لا يبلغ متراً ونصف. وفي الشطر المتعلق بحيدر من ذاكرتها، تدرك أن اللحظة التي سافر فيها إلى المدرسة الداخلية في اللاذقية، هي اللحظة التي توقف فيها دمها عن التمدد، وتقلصت داخل جلدها. تستطيع أن تلمح كل شيء. الآن فجأة تأتي الذكريات، تشمها وتلمحها وتومض بها، هي التي لم تلمح ضياءً منذ نصف قرن. كان الزمن الذي توقفت فيه ثابتاً، هناك في تلك اللحظة. كان الزمن منتهياً ومتوقفاً، منذ أن عانقها جسد غريب وتعرق معها على فراشها، ولعب بلسانه داخل فمها. كان الزمن غير محايد، فأجبر تحولاتها على التوقف عند غياب أميرها. لم تكبر ولم تكره أو تفرح، وبقي إلى جانبها العجوز الزمن حتى لحظة النهاية هذه. شعرت أن طولها بدأ يزداد، وأن قلبها يدق، وأعضاءها تتفتح. بالنسبة للآخرين كان توقف الصبية السمراء، ابنة المرابع عن النمو،

twitter @mjanen٢٣

أمراً غريباً لأنها كانت في سنّ العاشرة تشبه صبية في الخامسة عشرة. ولم يحاولوا كثيراً التفكير في إيجاد السبب الكامن وراء ماحدث لها. فالأمر كله لم يكن يعنيهم، وهي في النهاية لا بدّ أن تكبر. ولكن عندما تواصلت الأيام، وبقيت دلاّ على حالها، بل تحولت إلى قزمة غريبة الأطوار، بدأوا يعتقدون أن بها مساً من الجنون، هو من غضب الله وسخطه عليها. وكان يحلو للكثيرين منهم أن يصيح بأعلى صوته، عندما كانت تمر من أمامه: القردة!

ورغم معرفتها ان اللقب يخصها، كانت تتجاهل بكبرياء هذه التعليقات. ومع مرور الأيام، صار الأمر عادياً بالنسبة للأهالي، واكتفوا بين حين وآخر بإلقاء نظرات الاستغراب وهم يشاهدون جسد طفلة يحمل بعناء ثقل ثديين ضخمين. وفي الحقيقة كانت دلاّ تشبه يقطينةً مشوهة النمو، ذات خصر رفيع، ومؤخرة عريضة وملفوفة، وساقين قصيرتين، وقدمين عريضتين كأقدام الرجال. وبعد انحناء خصرها المتنافر مع مؤخرتها، كانت تحمل، وعلى عرض متواز، ثديين يبدأان من عنقها، وينتهيان عند بداية عانتها. أما رأسها فكان صغيراً كطفلة، وشعرها الرمادي الطويل والمجدول دائماً، يزيد من غرابة مظهرها بين الناس. كان ذلك قبل أن تحبس نفسها مع حيدر داخل القصر، وتقرر عدم الخروج أبداً إلى الناس، مكتفية بإملاء ما تحتاجه من لوازم وحوائج على محيمود، الذي كان يؤمّن للقصر كل ما يحتاجه من أشياء. وبعد أن عاشت سنيّها الثلاثين الأخيرة مع حيدر، استطالت قامتها، وتكورت مؤخرتها، وصارت بين الحين والآخر توصي على الحنة السوداء، لاخفاء الشيب الكثيف.

الآن تسترق النظر إلى المرآة، وتشعر أنها صارت أجمل بكثير، والجدران الأربعة تجمعها بحيدر لأول مرة.

المرآة ثانية تخطفها، وتلتف حول السرير، وتحاول ألاّ تعاود النظر ثانية، لأنها خافتها دائماً. المرآة الغولة، كانت تسميها. كان تنظيفها أصعب الأعمال التي واجهتها في حياتها، فما إن تلمسها بيدها حتى تشعر بالحاجة لرمي نفسها

twitter @mjanen٢٣

فيها. تبدو المرآة حافة وادٍ شهي السقوط، وكانت دلاً تخشى الارتفاعات وتشعر بالدوار، لذلك كانت تتجاهل تنظيفها حتى يلح عليها حيدر بذلك. والأمر الذي كان يزعجها أنه لم يهتم يوماً بنظافة البيت، ولكنه كان ينتبه حين لا يتمّ تلميع المرآة. اتجهت إليها، ووقفت قبالتها، وسحبت منديلها الأبيض عن رأسها، فبان الشعر المجدول بعناية. بدا شعرها أشبه بكبة خيطان بيضاء مفتولة، في نهايتها تبدو بقايا الحناء. كانت تتمايل بجذعها الثخين، وتفرك أصابعها السمراء الخشنة بعضها ببعض، ثم تحوم بها حول شفتيها المرتجفتين والشبيهتين بفم سمكة. كانت هي نفسها الطفلة التي ولدتها أمها قرب التنور، وهي تخبز لإبراهيم بك. وكانت هي الطفلة التي قطعت أمها حبل سرتها بسكين حديدي، أسود صدئ ملقى إلى جانب التنور. لفّتها، وقامت لتغسلها بالماء والملح، ثم تركتها وأكملت الخَبز، وصاحت تُعلم من حولها أنها سترتاح في بيتها حتى فجر اليوم التالي. بعد ذلك اليوم بتسعة أشهر تماماً، ولد حيدر في الغرفة العلوية للقصر.

تأملت نفسها بارتباك.

كان شعرها رغم الشيب، سميكاً. أعادت جدله أمام المرآة. لفت الجديلة حول رأسها، وربطت الشعر ببعضه. رفعت ثدييها الثقيلين، وحدقت بالمرآة بقوة، ثم استدارت. جاست بعينيها غرفته، واستقرت نظراتها على وجهه الهادئ. إنها تحفظه. كان حتى البارحة يطلب منها شاي الصباح، مع الزنبق والنعنع، قبل خروجه للصيد. وظهراً كان يتناول وجبته الوحيدة، المكونة دائماً من الخضراوات والخبز المحمص، ويغرق لساعات بين كتبه، والراديو الصغير. وفي آخر الليل كانت تراقبه، وهو يدور حول القصر، حاملاً بيده كأساً كريستالياً يلمع تحت القمر، ويرشف قطرات السائل الأصفر، ثم يمسحها بعناية عن فمه بكمه. وفي بعض الأحيان كانت تسمع صوت احتكاك أسنانه بالكأس، مصحوباً بأنين لم تفهم معناه أبداً. كان كل يوم يقف في نهاية الدرب الخلفي المؤدي إلى الأراضي المتسعة وراء القصر، ويتنشق الهواء كأنه

twitter @mjanen٢٣

سينفجر بصدره. وأحيانا كانت تراقبه عن كثب، في محاولة لفهم ما يدور برأسه، كما فعلت يوما عندما ركضت وراءَه خفية، وهو يحمل بندقية صيده ويسير ساهماً نحو الأحراش. ظلت تتبعه، لتعرف ما الذي يفعله بعد هذه السنوات الطويلة من الذهاب اليومي إلى الصيد، والعودة بيدين فارغتين. كانت في دهشة من أمرها بعد ان اكتشفت، وهي تقوم بتظيف غرفته، أن بندقيته فارغة. تبعته، من وراء الأشجار، وصارت تراقب أدق تقلصات وجهه. كان يسير بهدوء، مسترخياً، لا ينظر أمامه. يدخن غليونه، ويتوقف أحياناً تحت فيءِ ما، وأثناء جلوسه كان يغمض عينيه، ويهمهم، ويتمتم، ثم يحدق في الفراغ. كان يقضي ساعات نهاره الطويلة على هذا النحو، ويعود إلى غرفته لتناول كأس من الويسكي. في تلك الليلة، وبعد أن راقبته، بكت بصمت كما لم تفعل من قبل. لكنها، بكت بصمت للمرة الثانية، عندما تأكد لها أن أميرها يتصرف بغرابة.

في المرة الثانية كانت تدق باب غرفته، حاملة صحنا من خضراواته المفضلة: البقلة والنعنع والجرجير مع شرائح البندورة. دقت الباب للمرة الثانية والثالثة، وعندما لم تسمع جواباً فتحت باب غرفته، وشهقت. كان متربعاً أمام المرآة، محدقا في صورته، غير عابئ بوجودها. ارتجفت حينها، وأغلقت الباب. هبطت الدرج بسرعة، وغرقت في البكاء الصامت للمرة الثانية، وقررت عندها أن تنسى كل ما تراه، وتتجاهل ما يقولونه في القرية عن حيدر.

الآن ترتجف يداها أمامه، وتحاولان لمس وجهه. كانت المسافة الفاصلة بين الارتجاف والوجه البارد بحجم ظل الكف على الخد. تتأمل يدها وخده، وتشم روائح قمصانه وسراويله الداخلية. يدها المرتجفة على خده أمضت السنين الماضية تغسل ملابسه. يدها التي تحتك بالصابون، مع رائحة عرقه، تخاف التقدم. كان حيدر قد جلب لها آلة للغسيل، وعبثاً حاول إقناعها باستخدامها بدل الجلوس وراء وعاء الغسيل، محنية ظهرها لساعات وهي تفرك بالثياب. كانت تشتم الدنيا بينها وبين نفسها، وتبكي وحدها مقررة ألاّ تسمح لحيدر

twitter @mjanen٢٣

بحرمانها من متعتها. وعندما يكرر إلحاحه، تتمتم بينها وبين نفسها، وهي تشد على الملابس حتى تكاد تتمزق:

- موت... وعصّة قبر!

وعندما كان يمر أمامها وهي تغسل، يضحك وهو يراها غارقة في كومة الغسيل تتمتم، فيتوقف قائلاً:

- دلاّ، الغسّالة عندك، وأنت تتحنين طول النهار، على ظهرك؟

تكتفي بهز رأسها، وكأن كلامه لايعنيها، ولاتلمح منه سوى حذائه الموحل، الذي يراوح في مكانه لدقائق. وطول السنين الماضية، لم يخطر ببالها أن ترد عليه وتنظر في وجهه، وهو يرجوها أن ترتاح. كانت تتحول إلى ثور ينطح الغسيل، وتكرر جملتها الشهيرة عن الموت وعصة القبر. في تلك الأثناء كان يُسمع صوت خشخشة الأوراق اليابسة تحت الحذاء، وتهدات دلاّ، ذات الإيقاع المتواتر مع حركة يديها.

أخيراً، وبعد أن يحل الصمت سيداً للمكان، كان الحذاء يتحرك، فتظل دلاّ منحنية، تتابع بدأب، فرك الثياب. وعندما تتأكد من ابتعاد الخطوات، واختفائه من المكان، كانت ترفع رأسها. وتحت الشمس تلمع الدموع الساخنة النازلة على وجنتيها، وتستقر في الوعاء البلاستيكي، وتختلط برائحة الغسيل وعرقه. كانت متعتها الأبهى عندما تحك بيديها ثيابه التي يخطر في بالها أنها التصقت بجسده، فتعتريها لذة غامضة تجعلها تنتحب حتى المساء.

عادت وركضت نحو الباب، وأسندت رأسها إليه، وصاحت من جديد. وعندما لم تسمع الجواب، تجرأت، وقفزت نحو السرير. أزاحت الغطاء كاملاً عن جسده. أخذت نفساً عميقاً، وجمدت عيناها، وتوقفتا عن الحراك. أزاحت يده عن طرف السرير، وبخشية أنزلتها فوق صدره. اندست بقربه، ولفّت رأسه تحت إبطها، وكوّمت جسدها المترهل بجانبه، وحضنته.

كانت تغمض عينيها وتشبك أضلعها، وساقيها حوله، كجذوع شجرة عملاقة ملتفّ بعضها حول البعض.

twitter @mjanen٢٣

جنازة رجل مثل حيدر العلي كانت تحتمل بقاء القرية، لأيام طويلة، في غلبة وجلبة، ليس بسبب غموض الميت، ولكن من أجل المكانة التي تركها إبراهيم بك في نفوس أهالي القرية. المهابة والسطوة والكرم، الأشياء الثلاثة التي تحول الإنسان إلى نصف إله بين البشر. فهم ما زالوا يتذكرون يوماً بعيداً عندما كان حيدر ما يزال فتى، كيف جمعهم إبراهيم بك حول شجرة الجوز، وطلب من أكثر العائلات العاملة في أراضيه فقراً أن تلحق به إلى القصر. وعندما اجتمع بهم، أقام لهم مأدبة سخية من البرغل والحمص واللحم المسلوق واليخنة. وبعد الطعام، قام من أمامهم وقال إنه سيستريح، ثم خطا بضع خطوات نحو الدرج، والتفت إليهم قائلاً:

- الأراضي التي تعملون بها، من الآن فصاعداً هي ملك لكم.

ولم يتسن للأهالي إدراك ماحصل، حتى اختفى في الطابق العلوي. لكن عائلة واحدة رفضت ماقدمه، وتركت العمل في أرضه، وعملت لدى ملاك صغير، هو والد سحر النصور نفسها. والسبب الذي دفع العائلة لرفض كرمه أن هذه الأراضي كانت هدية من الفرنسيين، الذين قدموها له امتناناً على تعاونه معهم. والكثير من الفلاحين والملاكين الصغار يعرفون أن إبراهيم بك كان يقوم بتسليم الثوار الذين حاربوا الفرنسيين آنذاك. ومنهم من يذكر أن بعض الثوار، الذين حاربوا مع الشيخ صالح العلي، يعرفون هذه الحقيقة، ورأوا أن ما يحاول فعله بعد خروج الفرنسيين هو حفظ ماء الوجه لا أكثر. ومع ذلك، بقي محافظاً على هيبته أمامهم، فكانوا في أعيادهم الدينية يجمعون أفضل مآكلهم ويتجهون إلى بيته، كنوع من الوفاء، وامتداداً لعادة قديمة درجوا عليها. وفيما بعد، عندما اختلفت الأمور، وبدأت البلاد تتغير، ظلوا محافظين

twitter @mjanen٢٣

على طقس الزيارات تلك، مكتفين بإعلان حضورهم أمامه. وفي السنوات الأخيرة من حياته، كانت القلة التي بقيت له هي مجموعة من العجائز الطفيليين الذين ينتظرون طعامه. لكن أحداً لا يستطيع أن ينكر اسمه، ومهابته التي تجعل من موت ابنه سبباً جديراً بالاهتمام، حتى لو انقلبت الدنيا رأساً على عقب. هكذا كان سيقول لو كان موجوداً، والصمت يكلل موت ابنه الوحيد والحبيب. لكن رحيل الحبيب الأخير الذي صار عجوزاً، كان شبيهاً برحيله الأول عن دمشق، بعد موت إبراهيم بك بسنوات، في العاشر من الشهر الثالث، سنة ١٩٧١. في ذلك الزمن، عندما حزم حقيبة وألماً في القلب، ولم يودع زوجته وابنته، ركب سيارته بعد أن قدّم استقالة خطية طلب فيه إعفاءه من مهامه لأسباب صحية، واتجه إلى البحر.

في كلا الرحيلين، كان صامتاً. في الرحيل الأول، كان الناس مشغولين عن كل شيء في البلاد بقيادة الحكم الجديد، وكانوا يتساءلون إن كانت هذه فاتحة لعصر جديد من الانقلابات العسكرية التي مرت بها سورية، في مرحلة الخمسينات. كان كل شيء مبهماً، والجميع خائف من القادم. هزيمة ١٩٦٧أمام إسرائيل، موت جمال عبد الناصر، ومن ثم أخبار أيلول الأسود، والقلق من الغارات الجوية الإسرائيلية على حدود البلاد. كل ذلك جعل الناس في دوامة من الخوف والتوجس، لم ينتبهوا خلالها إلى أحوال بعضهم. والأمر الذي لم يخطر على بال واحد منهم، هو أن تستمر الأمور على ما هي عليه لعقود طويلة قادمة، وأن يثبت هؤلاء الضباط، الذين انقسموا فيما بينهم أثناء مؤتمرات حزبهم الحاكم التي سبقت اختلافهم، أن باستطاعتهم حكم البلاد، وإقصاء كل من خالفهم، وإبعاد شبح الانقلابات. مع ذلك، كانت المصائب والأزمات، التي اجتاحت البلاد تمر بصمت، كما هي الحال في السنوات الطويلة التي مرت على الناس، والتي يذكرها أهالي القرية تماماً، حتى وان كانت ذاكرتهم يشوبها الكثير من القلق والتحريف، بعد أن توهموا خلاصهم من عذاباتهم. وما حدث لاحقا جعلهم يتأكدون أن لا أحد سينجو من

twitter @mjanen٢٣

القادم. فمع تدفق اموال النفط في منتصف السبعينات، أثرى عدد كبير من الرجال المقربين للسلطة ثراء فاحشاً، ولم تفلح محاولات إيقاف النهب والسلب في وضع حد للتدهور. واللجنة التي عُينت للتحقيق في أسباب الإثراء غير المشروع، أخفقت لأنها وجدت نفسها في مواجهة عواقب وخيمة مع رجال نافذين مقرّبين من الحكم. في غضون هذا كله كانت ثروات البلاد، ومنها النفط، تسقط بدورها في دائرة النهب.

وكان طبيعياً أن يأتي، بعد ذلك، ما يزرع الخوف القديم ذاته في نفوس الناس. اندلعت حرائق وشقاقات واغتيالات جماعية وتصفيات جسدية وحملات اعتقال وحصار مدن وقصف أحياء آهلة بالسكان. وبدا أنّ النعرات الطائفية والمذهبية والعشائرية تستفيق من سباتها، وتتسلل رويداً رويداً إلى مظاهر الفقر والحاجة والبطالة وكمّ الأفواه، إلى جانب الخشية العميقة من يوم الغد الغامض القاتم. وصارت النجاة عند الناس مرهونة إما بالصمت المطلق وغض النظر، وإمّا بالدخول في لعبة البقاء. وأي خيار أخر كان سيودي بالواحد منهم إلى مكان لا تعرفه فيه سوى الشياطين.

لذلك، كان غياب حيدر هامشياً في تلك الفترة من بداية تثبيت رجالات الحكم لسلطتهم، في بداية السبعينات. وظل هامشيا أمام المصاعب التي واجهوها، فيما حدث لاحقا.

الآن، في رحيله الأخير، سيحظى بنفس الإهمال لأن غيابه عن الدنيا بدا باهتاً مثل مغادرته العاصمة. فعندما أفاق الناس على صياح محيمود، وهو يلطم وجهه ويلوب في دروب القرية، كان العالم مشغولاً بأخبار سقوط بغداد على أيدي القوات الأمريكية. وكانت المصيبة بالنسبة لهم متساوية مع الموت، بعد أن مرت عليهم تلك السنوات الطوال من الصمت والانتظار والاحساس بأن كل شيء لايعنيهم. لذلك ظلوا متحلقين حول شاشات التلفزيون، رغم صياح محيمود. كانت أصوات التلفزيونات تُسمع عالية في أنحاء القرية، وتطغى على صوت الرجل. فلم يكن بيت من بيوت القرية يخلو من الصحون اللاقطة

twitter @mjanen٢٣

المنتشرة على الأسطح، حتى لو كان سطح غرفة واحدة يسكنها الأب والأم والأولاد. كانت فرصتهم في متابعة الحرب كبيرة. كانوا يتحلقون جميعاً حول تلك الصور المخيفة لذلك اليوم الذي لن يفارق ذاكرتهم، مثل أيام كثيرة لسقوط المدن واشتعال الحروب. الصورة هذه المرة مختلفة لأنها كانت أمامهم، وكانوا منذ الصباح يتابعون ما يجري وكأنهم في قلب بغداد، على خلاف الحروب السابقة التي كانوا يتابعونها من التلفزيون الرسمي الحكومي أو من الإذاعات. الآن يرون تماثيل الرئيس العراقي تسقط، والأطفال يُقتلون، والبيوت تحترق، وكل شيء يتحول في رمشة عين إلى رماد. كانوا يصيحون وهم يرون الدبابات الأمريكية في ساحات بغداد. كانوا مبهوتين، ينتقلون من قناة إلى أخرى، لأن جميع القنوات التلفزيونية العربية والأجنبية دخلت في سباق لنقل أكثر وأسرع الصور الحية والمباشرة للقتل والدماء. كانوا متكومين حول أنفسهم، تاركين أعمالهم الزراعية، وأحاديثهم اليومية المتكررة، ونمائمهم، محملقين بالصندوق، ساحر العالم الجديد. وهكذا كانوا غير عابئين بصياح محيمود.

حيدر فارق الحياة، قبل سقوط بغداد. وما كان سيعرف، إن كانت سقطت أم لا. سمع صدفة من دلاّ التي كانت تهذر أمامه عن الحرب التي شاهدتها في تلفزيونها الصغير، إلا أن نبأ سقوط بغداد وصلهم قبل نبأ موته. لماذا؟ هذا ما لم يعرفوه، وظلوا طويلاً يتساءلون لماذا بقي طيلة الفترة الماضية وحده ؟ وأين كانت دلاّ؟ وهل حقاً قتل نفسه؟ أم قُتل؟ كانوا ينسجون القصص والحكايا الكثيرة حوله، في محاولة لتفسير تصرفاته وعزلته ورحلاته الغريبة للصيد.

بقي ثلاثين سنة يخرج يومياً للصيد، يحمل بندقية يرونها ملقاة إلى جانبه في السيارة التي كانت تتجاوزهم، مع غبارها. وكان يعود، والبندقية على حالها. ولم يروا يوماً أي صيد بحوزته، ولم يلمحوا طيراً، أو طريدة. كان يصيد اللاشيء، وكانوا يعرفون في قرارة أنفسهم أنه لم يكن يصيد. بقيت رحلاته

twitter @mjanen٢٣

سراً عليهم، أما صمته وشروده الدائم الذي كانوا يراقبونه من خلال أشجار الليمون، وهو يمشي بينها، فقد عزّزا الثقة لديهم بأن هذا الرجل شبه مجنون. ومنهم من قال إنه يعيش إقامة جبرية، وإنه لايستطيع الخروج من بيته لأن رئيس البلاد غير راض عنه. لكن جماعة أخرى نفت الأمر تماماً، لأن سيارات المرسيدس السوداء التابعة للجيش، كانت تصطف بين حين وآخر أمام القصر. وآخرون قالوا إن ما يحل بحيدر العلي هو اللعنة التي ورثها عن عائلته، والتي ورثتها العائلة عن الأرض التي بنت عليها القصر. وأكد عجائز القرية أن القصر بني فوق مرتفع من الآثار القديمة، كانت امتداداً لما عرف فيما بعد، بـ "تلّ سيانو" الواقع بضعة كيلومترات إلى الشرق من مدينة جبلة، والذي يحتوي على آثاراً كانت مثار اهتمام بعثات أجنبية كثيرة. واللعنة التي حلت بالقصر هي نفس اللعنة التي حلت بأهل البيت القديم الذي بني من آلاف السنين. وتناقلت الألسن، جيلاً بعد جيل، أن كل من يسكن فوق هذه الأرض سيختفي بطريقتين: إما بالجنون، وإما بانقطاع نسله.

وهو ما حدث... فقد مات أبناء إبراهيم بك السبعة، وبقي حيدر، ولم ينجب سوى بنتٍ واحدة. وفي النهاية فقد عقله، وصار يصيد الفراغ. وهذا أمر طبيعي، يتناسب ورؤيتهم للحياة. لكن أن يموت حيدر بهذه الطريقة الغريبة، فهذه نهاية لم يجدوا لها تفسيراً. عندما افاقوا من ذهولهم وانشداههم أمام شاشات التلفزيون، كان صياح محيمود عالياً، خاصة بعد أن طلبت منه دلاّ الانصراف، لتبقى وحيدة مع حيدر. وهو ما أثقل قلبه بغصة لم يسبق له أن شعر بوطأتها، رغم العذاب الطويل الذي اعتاد عليه في معاشرته لدلاّ. إلا أن هذه المرة كانت مختلفة، فهو يعرف دلاّ ويدرك أكثر من غيره ما الذي يعنيه، أن تتحول عيناها إلى حفرتين فارغتين، وأن تبهق بشرتها وهي تمسكه من يده، وتكلمه بصوت مخنوق. كان في وسعه أن يشعر بطقطقة حنجرتها لذلك تركها تحاول نطق جملتها الأخيرة قبل أن تتحول إلى مخلوق صعب الاحتمال. مخلوق من جلد حجري أزرق. هو وحده يعرف أن في زوجته ما يخيف حدّ الموت، وأنها فعلاً

twitter @mjanen٢٣

مغضوبة. وإلا فما الذي تعنيه كل تلك التحولات التي كانت تصيبها، عندما تصمت أياماً، ويصيبها خرس الحجر، وتتحول إلى مطحنة يومية من العذاب؟

يركض في حواري الضيعة الترابية، يولول كالنساء، ويجعر بأعلى صوته بنبأ موت حيدر. وعندما أحس أن الجميع منشغلون بما يحدث خارجاً، صار يصيح بصوت أعلى، ويرفع يديه عالياً نحو السماء، طالباً من الناس الخروج من البيوت، احتراماً للموت. كانت ذراعا محيمود الطويلتان تتأرجحان في الهواء، وتلتفان في حركة دائرية حول جسده الضخم، الطويل. كان يزيد دلاّ بثلاثة أضعاف الحجم، وكان يستطيع أن يرفعها كشوال طحين. لكن منظره وهو يقوم بتلك الحركات، مع ضخامته وسعاله المتكرر وشواربه البيضاء الملفوفة كحد السيف، كان يجعله مدعاة للأسى والضحك معاً. البعض من أهالي القرية فتحوا النوافذ وسمعوا الخبر، ثم عادوا لإغلاقها. والبعض طلب منه الصمت لأن الموت منتشر في كل مكان. ومنهم من خرج نحو مصدر الصوت، وتساءل عن هوية الميت، دون أن يركض كما درجت عليه العادة في القرى. حدث الموت يجعلهم يجتمعون، ويهرعون لمواساة أهل الميت ونجدتهم، فتتحول القرية إلى عائلة واحدة، وينسى الجميع خصوماتهم، ولا يفكرون كما يفعلون في أيامهم العادية. يتحولون إلى كائنات مختلفة، فتصبح قلوبهم أكثر رحمة، وعيونهم أقل قسوة. الموت وحده كان قادراً على فعل ذلك بهم، لكنهم هذه المرّة أخفوا ضحكة مكتومة على الرجل العجوز وهو يصيح كالنساء.

الوحيد الذي خرج وراء الصياح هو أستاذ التاريخ العجوز محسن العاقل، أقدم مدرّس تاريخ في المنطقة، فبدأ يدق على الأبواب لتخرج الناس من بيوتها، احتراماً للميت.

كان أستاذ التاريخ يقفز من بيت إلى بيت وعيناه طافحتان بالدموع، غير مصدق أن عظامه المهترئة تطقطق الآن وتتحرك، والرجل البهي الطلعة، حبيبه حيدر العلي، فارق الحياة! كان يعرف أن حيدر لن يطيل المكوث بينهم، فقد فارقهم منذ سنوات طويلة وارتحل إلى رغبته بالموت. كان يعرف الأستاذ ذا

twitter @mjanen٢٣

الوجنتين الضامرتين، والعينين الصغيرتين اللامعتين. كان يدرك أي سعادة ينعم بها صديقه القديم الذي هجره، احتراماً لرغبته في انتظار الموت، بعيداً عن الأوباش كما سماهم دوماً. والآن يقرع الأبواب من بيت إلى آخر، ويصيح:

- اطلعوا يا ناس، حيدر ارتاح من الأوباش!

ولأن أهالي القرية كانوا معتادين على غرابة تصرفات أستاذهم العجوز، فقد صمتوا جميعاً، أمام صراخه، وهو يسبهم على تكاسلهم في الخروج، احتراما للميت. يعلو بصوته المبحوح:

- يا ولاد الكلب... لو كان علي حسن الميت كنتم ركضتم مثل الجراء!

كان الأهالي يغرون أفواههم، خائفين من العيون المبثوثة بينهم، مستنكرين جرأة الأستاذ، وهو يتفوه بهذا القول على الملأ. ورغم أن حيدر العلي وعلي حسن ولدا ونشأا وتربيا في ضيعتهم، إلا أن صراخ العجوز على تلك الطريقة جعلهم غير مرتاحين، وخائفين من القادم. والشئ الوحيد الذي أزاح عن صدرهم الثقل، وهم يخرجون تباعا، تاركين شاشات التلفزيون وصور الحرب، هو رغبتهم بمواساة الأستاذ العجوز. فهم يعرفون حبه لحيدر العلي، رغم ان أواصر الصداقة لم تعد تجمعهما منذ زمن. لكن أياً منهم لم يكن يجرؤ على المساس بحيدر أمامه، لأن ذلك كان كفيلاً بقيام الدنيا من حوله وقعودها. ويعرفون أيضا أن الأستاذ نفسه كان كذلك صديقاً لعلي حسن، رغم تعريضه به على الدوام. وكان كما يروي عنه عجائز القرية، من جعل علي حسن يفهم ويتحدث في السياسة، قبل أن يلتحق بالكلية العسكرية. وسانده بعد ذلك في العاصمة، أمام رفاقه، كما يليق بابن قرية أن يفعل في الغربة، مع ابن قريته. ثم تبرأ منه، وتشاجر مع عائلته أمام أهالي القرية، وصار بعد ذلك يتجنب الحديث عنه نهائياً، بعد أقاويل عن سيارة بيضاء جاءت ذات يوم وأخذته من فراشه بعد منتصف الليل، ولم ترجع به حتى فجر اليوم التالي. وطيلة أيام بقي الأستاذ صامتا لا يتحدث، يشرب بضع قطرات من الماء، ويعود إلى الاستلقاء، جاحظ العينين، ثابت النظرات. وهذه المرة، المرة التي يصيح

twitter @mjanen٢٣

فيها، كانت الأولى بعد تلك الحادثة التي يأتي فيها على ذكر علي حسن، علانية ودون خوف. لذلك خاف عليه أهل القرية، وبعضهم صار يسبه، وينعته بالمجنون. مع ذلك بدا هذا اليوم مختلفاً عند الجميع، ربما لأنهم كانوا على موعد مع الموت والخوف. القلة منهم ركضوا وراء محيمود ليجتمعوا في القصر، استعداداً لشعائر الموت، وأداء الواجب تجاه الرجل الذي لم يعرفوا عنه أكثر من الصمت والغموض. ولكن في أعماقهم كان يسري ذلك الفضول لدخول المكان السحري الملعون، الذي ينتهي كنهاية صاحبه، والذي سيتراكم غباره مع السنين فوق آثار البيت القديم. سوف تعلوه الحشائش والنباتات الغريبة، وفي يوم ما سوف تسكنه أرواح جديدة، تحلّ بها العذابات ذاتها.

كان العالم يفقد ذاكرته في رحيل حيدر، يفقدها بهدوء واستسلام. ولو تسنت لحيدرالقدرة على رؤية ماجرى بعد موته لأغمض عينيه، وكأن شيئاً مما يحدث لا يعنيه. ولو سمع حكاية اللعنات والنهايات تلك، لأحسّ بسعادة وهو يتمدد على سريره، محدقاً في المرآة، مرخياً يده للظلام.

twitter @mjanen٢٣

اللعنات التي تحدث عنها أهالي الضيعة كانت، بالنسبة لكثيرين، مجرد كلمات تأتي مع الريح وتختفي بين الوحل والزرع. لكن ما حدث للعجوز، والطريقة التي عاش بها حياته، جعلهما على يقين أن ما سمعوه من آبائهم وأجدادهم قابل للتصديق، أكثر من أي شيء واقعي. لذلك، ورغم انشغالهم بأخبار الحرب، فقد خرجوا من بيوتهم وتسربوا من الدروب الترابية، حتى التقوا عند شجرة الجوز الكبيرة وجلسوا على المصاطب الحجرية المحيطة بمزار الشيخ عبد الله، حيث اعتادوا ان يجتمعوا. كانت الجوزة العتيقة تنتصب في الوسط، وتحيط بها أشجار الدلب والسنديان من كل صوب، وتمتد حتى أول البيوت المسكونة. وكان المكان المحيط بالضريح يشبه أغلب الأماكن التي توزعت فيها أضرحة رجال الدين في الجبال الساحلية، ومن ثم امتدت حتى السهول القريبة من البحر. وكان مكتظاً بالأشجار العملاقة، ولم تتجرأ يد انسان بأن تمتد إليه، لأن البشر كانوا يخافون من غضب أولياء الله عليهم إن هم دنّسوا هذه الأماكن أوحتى اقتربوا منها. هذا ما حدث مراراً وتكراراً كلما خطر لأحد الناس أن يفكر بالاستيلاء على ممتلكات المزار.

لذلك كانوا، وهم مجتمعون جانب المزار دون أن يعرفوا ما الذي عليهم فعله يشعرون ولأول مرة أن مصيبة إلهية ستحل عليهم، لأن اللعنة عندما تأتي لا تقف عند حدود. وهم يعرفون أن من الصعب لمقبرة الضيعة أن تفتح ترابها لأقلّ من ثلاثة موتى. هذا ما علمتهم إياه الطبيعة، فعلى امتداد عشرات السنين لم يمر عام إلاّ وفتحت مقبرتهم ترابها لثلاثة موتى. وإذا مرت ثلاثة أرباع السنة ولم يمت أحد في الضيعة، كان العام يمر بسلام، وينتظرون بدء عام جديد، لانتظار موت آخر. هذه السنة، وقد بدأ الموت بحيدر العلي، فقد كان عليهم أن

twitter @mjanen٢٣

ينتظروا ميتين آخرين، خلال شهر واحد. هكذا عوّدتهم المقبرة، أن تأخذ ثلاثة منهم دفعة واحدة، خلال مدة لاتتجاوز الثلاثين يوماً.

كانوا يجلسون تحت شجرة الجوز، يتشاورون، بعد أن اصطفت السيارات السوداء أمام القصر، ومنع بعضهم من الاقتراب. لم يعرفوا إن كان يجب عليهم البقاء في أماكنهم، أم العودة إلى بيوتهم، أم الذهاب إلى الأرض الملعونة، الأرض القاتلة التي أودت بحياة حيدر، وأخوته السبعة وعائلته. كانوا يعتقدون أن اللعنة التي حلت بعائلته، ربما تنتهي به، فقد وجدوه في البداية، غريب الأطوار، وبعد ذلك تأكدوا من خبله، ولم يقتربوا منه، ولم يعرفوا عن حياته الشيء الكثير. الآن يبدو لهم الأمر أكثر غموضاً. فجأة يختفي، وفجأة يعود. وبعد سنوات طويلة، تظهر ابنته، وفجأة يموت. وربما قُتل. كانوا محتارين فيما سيفعلون، وهم جالسون تحت الشجرة.

انتبهوا إلى أن الحفرة العميقة إلى جانب الشجرة، والتي كانت الدولة قد أحاطتها بسياج، وكان بعض الأجانب يزورونها بين وقت وآخر ويحفرون حولها، أصدرت صوتاً يشبه صفير ريح في سهل واسع من الفراغ. وكان الكثير منهم يعرف، وخاصة أستاذ التاريخ العجوز الذي جمعهم الآن، أن تلك الحفرة هي بئر فينيقية موجودة من آلاف السنين، منذ أن كان الفينيقيون أسياد البحر المتوسط. وربما قبلهم. وظلت هذه البئر، بعد أن استولى الآشوريون على جبلة، ومن بعدهم السلوقيون والرومان، ثم العرب والصليبيون، فالامبرطورية العثمانية التي استولت عليها أيام السلطان قلاوون سنة ١٢٨٥. ويقال إن البئر لم تنضب حتى وقت قريب. ويروي العجائز الكبار أن آباءهم وأجدادهم قالوا إنهم كانوا يشربون من مائها. لكن أستاذ التاريخ ظلّ ينفي ذلك، صارخاً في وجه من يجادله بأن هذه البئر جافة من آلاف السنين. وكان يحلو للشبان استفزازه، فيتندرون بأن هذه البئر هي نفسها البئر التي رُمي فيها يوسف وتركه أخوته للموت، فيصيح الأستاذ محسن، ويندد بهم وبسوء معارفهم ومعلوماتهم. وكان ذلك يتم قرب البئر، أثناء سهراتهم، فيقوم من مكانه ويلحق بعضهم به خشية

twitter @mjanen٢٣

أن يسقط من انفعاله. لكن الشبان لم يكونوا يتركونه لحاله، وسط غمزات ولمزات الحاضرين، فيقوم أحدهم ويقترب منه قائلاً:

- والله، يا أستاذ، أنا مستعد لرمي نفسي في البئر، مثل النبي يوسف، على شرط واحد.

فيحملق به الأستاذ مذهولاً:

- وما هو الشرط؟

- أعثر على امرأة تراودني عن نفسي، مثل امرأة العزيز!

فيشتم الأستاذ المسكين ويبرطم، ويرفع يديه صارخاً ومتوعداً، ويهم بالابتعاد، فيستوقفه شاب أخر ويقول:

- أنا أرضى بجاريتها...

فيكاد الأستاذ يجن، ويستغفر ربه، ويدعو على هذا الجيل بالفناء. لذلك عندما هب ذلك الصوت، والموت والخوف حاضران في كل مكان، أطلق البعض ضحكة خفيفة لأن أستاذ التاريخ، الذي يبدو أن الموت نسيه، سوف يلقي عليهم محاضرة عن البئر وأهميتها. لكن الأستاذ لم يتحرك من مكانه، ولم يضحك. احمرت أذناه وهو يحملق في البئر، ويحرك رأسه، مادا أذنيه في حركة كوميدية نحو مصدر الصوت. كانت البئر على حالها، ولم يتغير فيها شيء سوى السور العالي الذي يمنع الاقتراب منها. وفيما مضى، وقبل أن تأتي الحكومة وتجعلها تابعة لوزارة الآثار والمتاحف، كانت البئر ابتلعت العديد من أطفال الضيعة. وكان يحلو لكثير من الفضوليين محاولة النزول إلى أعماقها، فكانت محاولاتهم تفشل، ولا يجنون إلا مزيداً من الموت. لذلك رصفوا الحجارة فوق بعضها على شكل دائرة محيطة بالبئر، فقلّ عدد موتاهم. ولم تصبح البئر آمنة حتى سوّرتها الحكومة بجدار إسمنتي، عالٍ، وصنعت له باباً حديدياً، وقفلاً، وصار الاقتراب من البئر غير مسموح به. ولكن من حين لآخر كانت تأتي بعثات أجنبية، وبعض طلاب معهد الآثار، فيقومون بتصويرها، والجلوس ساعات تحت شجرة الجوز الكبيرة، يتحدثون عنها. ولكن منذ اليوم الذي

twitter @mjanen٢٣

قامت فيه الحكومة بتحويل البئر إلى أملاك عامة للدولة، اختلفت الأمور كثيراً، وصارت تظهر في الضيعة أشياء غريبة. فكثيراً ما كان أحد الأهالي يستيقظ صباحاً، ويرى أرضه مملوءة بالحفر. وقد حاول أحدهم معرفة ما يحدث، فسهر الليل بطوله، لكن أحداً لم يأت في ذلك الليل. وتناوب أهل القرية على السهر، لمعرفة ما الذي يحدث في قريتهم، فلم يأت أحد. وفي اليوم السابع، عندما ملّوا واستراحوا وناموا بعمق حتى الصباح، أفاق أحدهم على أرضه المليئة بالحفر. وعندما لم يتحمل ماحدث، ذهب إلى مخفر الشرطة في المدينة وأبلغ عن الحادثة، وقال إن هناك من يسرق أراضي الفلاحين. أما ما يُسرق منها، فهو ما لا يعرفه. ولكن الرجل الذي خرج من أرضه المثقوبة إلى المخفر، لم يعد حتى مضت ثلاث سنوات. اتُهم بسرقة آثار البلد، وتحولت أرضه إلى مديرية الآثار والمتاحف. وعندما خرج بعد السنوات الثلاث لم يأت على ذكر الأرض، واكتفى بمطالبة الحكومة بالتعويض عن الأرض التي انتزعت منه. وبعد تلك الحادثة انقلب وجه القرية، وصار الأهالي يرون شاحنات ضخمة تأتي في الليل، وينزل منها رجال بيدهم رفوش ومعاول، ويحفرون حتى طلوع الفجر، ثم يرحلون. ولم يتجرأ أحد من القرويين على التدخل، واكتفوا بالتواطؤ فيما بينهم، لأن اختفاء جارهم الذي لم يعد إلاّ بعد سنوات علمتهم أن الصمت منجاة الرجال. كذلك تعلموا مما حصل لاحقاً مع الحارس الشاب الذي عينته الحكومة على باب البئر.

كان الحارس عبد الله طالباً جامعياً، يدرس اللغة الإنكليزية في جامعة اللاذقية. وكان من ضيعة مجاورة تسمى رأس العين، ويعيل أخوته الخمسة بعد أن توفي والده في مشاجرة عائلية حول بضعة أشبار من الأراضي. كان يميل إلى النحافة، والطول، ويضع نظارات سميكة ذات اطار بني محروق، ويسير واضعاً كتبه تحت إبطه، ملقياً التحية على كل من يصادفه. وفي سريرته كاد أن يقفز فرحاً بالوظيفة الجديدة، لأن مكان العمل قريب من بيت أهله ومن البئر القديمة التي شكلت، مع الآثار الباقية في السهل الساحلي، مادة لنظريته التي

twitter @mjanen٢٣

حلم بالسفر خارج البلاد من أجلها. كان مفتونا بتاريخه الذي اكتشفه، وليس التاريخ الذي تعلمه في كتب المدرسة. وكان يجد في هذه البئر مفتاحه الأول نحو عوالم أكثر انفتاحاً. وكان مؤمناً أشد الإيمان أنه سيقوم بكتابة بحث عظيم باللغة الانكليزية عن بلاده، وهذا البحث سيخرج إلى العالم، إلى كل أصقاع الأرض. وسيصبح هو، رغم كل ما يحيط به من أسى وفقر، واحداً من أهم كتّاب العرب اللامعين الذين تركوا البلاد واستوطنوا الغرب. وصاروا صلة الوصل بين هذا العالم الغريب والحزين السائر إلى الماضي، عالمه الذي يعيش فيه، وبين العالم الخارجي، العالم الكامن في المستقبل كما كان يسميه عبد الله. لذلك تصرف دوماً على أن أهالي الضيعة هم شخصيات للدراسة. ليس الأهالي فحسب، بل حتى الأشجار والمزار والبئر، وحتى أستاذ التاريخ محسن العاقل الذي صار صديقاً حميماً له بعد أول جلسة لهما. واهتمامه بالبئر لم يتوقف عند حد الإحساس بالمسؤولية اتجاهها، بل تعداها إلى الحد الذي دفعه إلى توسل محسن العاقل لإعارته بعض الكتب والمراجع حول تاريخ المنطقة قبل الاسلام. هذا هو الموضوع الأكثر أهمية، والذي شغل باله، لأن الحضارات التي عاشت فوق هذه الأرض، قديماً، تفوقت على الحضارة التي تلتها. وهو ماكان يشعل أستاذ التاريخ العجوز غضباً، ويجعله يروي للحارس الشاب قصص المآثر العربية، ووحدة البلاد من المحيط إلى الخليج. ولا ينسى أن يقذفه، وهو يخطب فيه، بأبشع المسبات، وأقذع الشتائم له ولأبيه والذين خلفوه. لكن عبد الله كان يعود، في نهاية كل نقاش، إلى النقطة التي بدأ منها: أن تاريخ جبلة والسهل الساحلي السوري هو تاريخ فينيقي، وأن الاسلام استولى على المنطقة واحتل هذه الأراضي، وعاث فيها خراباً وتدميراً. وكان يأتي ببراهين عدة، لم يكن العجوز يأبه لها كثيراً، لأنه لم يتحمل أبداً أن يأتي على آخر الزمن "هلفوت" كما سمى عبد الله دوماً، وينفي التاريخ الطويل للعرب والاسلام، والذي يشعر بالانتماء إليه. لكن الصداقة العميقة التي جمعت بين الحارس الشاب والعجوز كانت حارّة، رغم اختلاف افكارهما،

twitter @mjanen٢٣

لدرجة كان يصعب فيها على أي من أهالي القرية، مع مشاجراتهما التي لا تنتهي، أن يروا واحدهما دون الآخر. فإما أن يكون العجوز جالساً على كرسي قش قرب باب البئر، وعبد الله يصنع شاياً له على فرقعة أعواد الحطب، وأما أن يكونا جالسين تحت شجرة الجوز يتبادلان لفافات التبغ البلدي، وهما يتصايحان. وفي أغلب الأحيان، كان يُرى في يد كل منهما بعض الكتب القديمة والجديدة. وعندما يحلو لأحد من أهالي القرية التقدم باتجاههما ومشاركتهما الحديث، كانا ينقبضان ويتوقفان عن الكلام، وكأن مساً مؤقتاً من الموت أصابهما. وفي الفترة الأخيرة قبل، أن يختفي الحارس الشاب، كانا يبدوان قلقين جداً، خاصة عبد الله الذي كان يحلو له، بين وقت وآخر مراقبة حيدر العلي واللحاق به في رحلات صيده الغريبة. كان يتوق إلى معرفته عن قرب، ومعرفة الكثير من التفاصيل التي تهمه، والتي يدرك جيداً أن رجلاً مثل حيدر هو الوحيد القادر على مدّه بها. لكنه لم يتجرأ أن يكلمه، خاصة مع المهابة التي كان يخلقها شرود حيدر ونأيه عن الحياة. كان عبد الله يتراجع أمام إحساسه بالأسى، كلما تذكر سحنة الحزن على وجهه. وفكر في أيامه الأخيرة بالاستنجاد به، فهو على الأقل ما زال حيدر العلي، ومن الممكن أن يكون له من يسمعه أو من يتصل به، خاصة أن السيارت السوداء الخاصة بمسؤولي الجيش والحكومة في البلاد كانت تتردد عليه. إلا أنه عدل عن قراره عندما صادفه يوماً وجهاً لوجه، ولمح فراغ الفضاء المطل من عينيه، وقرر أن يتصرف وحيداً. وهذا القرار بالذات هو ما جعل الأستاذ العجوز، عندما سمع صفير الرياح القادم من البئر، يغص بوجوده، وتدمع عيناه وهو يتذكر صديقه، ورحيل حيدر المفاجئ. كأن الدنيا خلت فجأة من كل شيء، وهو واقف وحده تحت ضوء باهر، وعصيٌّ غليظة تضرب جنباته، وعبد الله يصفر من البئر ويتهمه بالصمت والجبن عن رحيله.

في الأيام الأخيرة صار عبد الله يتصرف بغرابة. انقلبت حياته رأساً على عقب، فهجر عائلته، وبقي إلى جانب البئر يومين كاملين، يعبث بالأسلاك

twitter @mjanen٢٣

الكهربائية، حتى أنار البئر وما حولها. كان أهالي القرية يتطلعون إليه مستغربين، وقد حوّل ليل المكان إلى نهار، وجلس على كرسيه المعتاد، واضعاً كأساً من المتة، وبيديه كتاب. وفي النهار كانوا يرونه ممدداً على المصطبة الحجرية تحت شجرة الجوز العملاقة، وهو ما بدا لهم أمراً غريباً. لكن محسن العاقل وحده كان يعرف السبب الحقيقي وراء تصرفات الشاب غريب الأطوار. وكان يستيقظ أحياناً في منتصف الليل، ويترك بيته متجهاً إلى البئر، هناك حيث سيقضي وقتاً ممتعاً من الصراخ والقلق والسرور مع صديقه الصغير.

البئر تصفر ثانية، ودموع محسن العاقل تراوح في عينيه. وهذا المنظر الذي ألفه أهالي القرية بعد اختفاء عبد الله، بدا لهم اليوم أكثر بؤساً. فقد اعتادوا على نوبات بكاء العجوز على صديقه، ولكنه اليوم مختلف. وكل ما سيفعله أي منهم، سيتحول إلى كابوس لأيامهم القادمة. الصفير الحاد، ودموع العجوز التي راحت تتدفق من عينيه بصمت، أثقلت أكثر على قلوب معظمهم، فتركوا لأحزانهم العنان. شرقوا مع دموعهم، كلّ في دنياه، وخاصة النساء اللواتي رحن ينتحبن بصوت خافت، دون أن تصدر عن أي منهن ولولة أو عويل. كانت لحظات متواطئة من الحزن، مرت قبل أن يشتد صفير البئر فيقوم محسن العاقل من مكانه، بعظامه المتبقية تحت جلده، ويدخل ضريح المزار كأن عفريتاً ركبه. في الداخل أحس بهدأة قلبه، واستند بظهره على الضريح الأخضر، وأخذ نفساً عميقاً من البخور المتصاعد بشكل دائم، وأغمض عينيه. كانت خيالات عبد الله وحيدر تلاحقه. يأتي عبد الله ضاحكاً، ويدنو حيدر ماراً من أمامه بسرحانه. يغيب عبد الله، بصراخه، ويعود حيدر كما عرفه شاباً صغيراً وخجولاً، بخدين أحمرين، كانا لاينفصلان عن بعضهما. يسبحان في السماء، وهما معلقان بحبل قلبه. صورة حيدر الضبابية، وعيون عبد الله اللامعة، وصفير البئر، ولغط البشر، وصياح أولاده الذين ركضوا تاركين بيوتهم بعد أن أخبرهم أحد الأهالي أن العجوز المسكين، في حالة يرثى لها. كل ذلك جعل روحه على وشك الالتفاف بالحبل المعلق من قلبه، والسفر بعيداً

twitter @mjanen٢٣

هناك حيث العوم الأبدي مع أناسه الذين يغادرونه واحداً واحداً. عرف ذلك عندما فتح عينيه ووجد أن الجميع ملتفون حوله، يحملونه، بعيداً عن المزار، ويبعدون عينيه عن أطياف أحبابه. لكن أحداً منهم، حتى أولاده، لايعرف أن الحبل بقي معلقاً في السماء، وأن زوجته التي أحبها، خمسين سنة، وتوله فيها أكثر بعد موتها، كانت تمسك الحبل من الطرف الآخر، وهي تهش عن قلبه الأسى.

twitter @mjanen٢٣

عندما اختفى عبد الله فجأة، ولم يُسمع عنه خبر، وصارت أمه تجوب القرى مولولة بين الناس، تبحث عن أملها المفقود بعد أن فقدت زوجها ثم ابنها، كان العجوز هوالوحيد الذي يعرف أنه ربما يكون قد قُتل. ذلك لأن الحجارة الثلاثة الضخمة المزينة بتيجان رومانية، والمحيطة بالزاوية اليسرى للبئر، اختفت مع اختفاء الشاب، وأصدرت الحكومة بحقه مذكرة توقيف، بتهمة سرقة ونهب الآثار. هو وحده يعرف أن البئر التي أخذت عبد الله إلى غير رجعة، كانت نجمته الساطعة، وبنى حولها الكثير من النظريات والأفكار وحتى الآمال. أو هكذا على الأقّل ما كان يخبر به العجوز وهما ينتظران طلوع الفجر، ويصرخان كأن حرياً توشك على الوقوع. كان عبد الله يحاول جاهداً إقناع العجوز، الذي يكن له حباً واحتراماً كبيرين، أن التاريخ كذبة كبيرة وأن أفضل ما يفعله هو أن يسلمه المحاة، ليمحوه. ذلك لأن التاريخ الذي علمه العجوز لطلابه ولأجيال عدة، كان تاريخ طغاة، كتبه الأقوياء وصنعوه. والتاريخ الحقيقي غير موجود، وهو لم يكن ليوجد أصلاً، لأن المنتصر دائماً، يعود ويلعب لعبة الأقوى، ويكتب التاريخ بلغة المنتصر. ولأن الناس الحقيقيين الذين يصنعون التاريخ والحضارات، يختبئون في مكان ما من هوامش الحياة، مكان مظلم في عتمة التراب. والآثار المتبقية من الحضارات القديمة هي من بقاياهم، لذلك يجب المحافظة عليها لإعلاء الشأن الانساني، وللارتباط والانتماء لحضارة ما، حتى لايشرق الغارب ويغرب الشارق كما كان يختم حديثه دوماً. وهذا الكلام كان كفيلاً بانتفاخ دماغ العجوز، وانفجاره على الشاب، وتقريعه بأقذع الشتائم التي كان عبد الله يستقبلها بإيماءة وابتسامة. ولكنه، وما إن يهدأ العجوز، حتى يعود للصراخ كما كان يفعل سابقاً. وعند

twitter @mjanen٢٣

طلوع الفجر، كان كل منهما ينصرف: العجوز إلى غرفته، وعبد الله إلى المصطبة الحجرية. قبل يوم واحد من غيابه، كانا كعادتهما، يتناوبان على كأس متة واحدة، صامتين على غير العادة. وعبد الله يحاول السكوت عن الأمر، لكن العجوز كان مستفزاً إلى درجة يصعب فيها الصمت، قال:

- الأمر ليس مزحة، وهؤلاء البشر لايلعبون معك. هم قادرون على محوك من الدنيا.

كان عبد الله صامتاً، ينظر إليه والألم يقلص عينيه :

- والله، يا أستاذ، لا اعرف ما أعمل. ..

يصمت العجوز ولايجيب، ويتنهد عبد الله وهو يصب لنفسه ماءاً حاراً فوق كأس المتة:

- تريدني أن اصمت عما يحدث؟

يصمت العجوز، محدقاً في الفراغ، وهو يفكر بطريقة يخرج فيها هذا الولد من ورطته. لكنه لا يجد ولو خيطاً واهياً من الأمل، فيبحّ صوته:

- دنيا... دنيا... أين كنا... وأين صرنا؟

يستطيع العجوز أن يتذكر كل التفاصيل. وأكثر ما يتذكره هلع عيني عبد الله، في ذلك الليل، وهو يخبره أنه لم يسمح لهم بالدخول إلى الفناء المحيط بالبئر، وتشاجر معهم، وهددهم باللجوء إلى الشرطة. ذلك اليوم سأله العجوز إن كان لمّح لهم أنه يعرف من يكونون، فأومأ عبد الله بالإيجاب. صمت العجوز، وهو يرى الشياطين القادمة، ويذكر النظرات الأخيرة، والفزع، وتلويحة عبد الله له، وهو يقول :

- صباحا، أرى أمي، وأعود عند المساء.

ولم يعد.

وجاءت الشرطة بعد أيام، وتحققوا من سرقة الحجارة حول البئر، حتى تلك المرصوفة حول جدرانها. وأصدروا بحق عبد الله مذكرة توقيف، بتهمة السرقة. لكن أهالي القرية كانوا يستبعدون أن يكون ذلك الشاب اللطيف

twitter @mjanen٢٣

والنحيل، ذو الغمازتين، والنظارات ، والملابس العتيقة، قد سرق البئر. وعزوا الأمر إلى اللعنة التي تصيب كل من يحل بهذه الأرض، وأيقنوا أنه سقط في البئر وابتلعته، كما ابتلعت غيره. لكن الأستاذ العجوز محسن العاقل يعرف أن الشاب المولع بالشعر الإنكليزي الكلاسيكي، لا يستطيع أن يسرق حبة حنطة من وكر نمل. وصار بينه وبين نفسه يحاول أن يصدق أن عبد الله سرق البئر، مفضلاً في سرّه هذا الخيار، على فكرة موته. لكن قلبه كان ينفي ذلك، ولهذا عندما سمع صفير البئر أحس برغبة في البكاء. شعر أن الشاب يناديه من أعماق البئر، ويؤنبه على صمته. كان يود أن يجلس جانب الحافة الصلعاء للبئر، بعد اختفاء حجارتها، يوماً بعد يوم. ويود أن يصدق حقيقة أن أهالي القرية مجتمعون حوله، كما يحدث في الروايات، وأنه سيثير حماستهم لإقامة جنازة لائقة لحيدر العلي، بعد أن وقف مكتوف اليدين حيال اختفاء عبد الله.

كان أستاذ التاريخ يريد أن يصدق نفسه، وهو يهرش شعره المتبقي، ويحك يديه النحيلتين والطويلتين، ويمشي، ويخاطب نفسه شارداً عن الآخرين. لكنه يعود فينظر إليهم ويدرك أن ذلك الزمان قد أفل. إنه يعرف أن هؤلاء يسخرون منه، ولم يجتمعوا الآن إلا لإشباع فضولهم ورغبتهم بتغيير الحديث الطويل عن الحرب، الذي شل حركتهم لأيام. فكر أن يتجه إلى غرفته الصغيرة التي بناها له أولاده، بعد أن وزع لهم حصصهم في الأرض، وكانوا يتناوبون مع زوجاتهم على خدمته ورعايته، ويعاملونه باحترام وحب. حتى أهالي الضيعة، رغم تندرهم الدائم لم ينسوا أنه أول أستاذ تاريخ يعرفونه، وأن أولادهم، وأحفادهم تربّوا على يديه. وكان أول من حدثهم، بعد الحوادث الغريبة الطارئة على الضيعة، بأنهم يعيشون فوق مملكة قديمة كانت فيما مضى المملكة الأم لسبع ممالك، تمتد على ساحل البحر. وأن تلك المملكة، المسماة سيانو، حكمت عدة ممالك منها جبيل وصور وبارات. وأن بيوتهم القائمة فوق سطح الأرض مبنية على بيوت وعظام أناس لم يعرفوهم. واخبرهم أن قصر آل العلي تحديداً،

twitter @mjanen٢٣

بني فوق القصر الملكي القديم، ولعنة الأرض هذه جاءت من القصر. فالعائلة التي سكنت القصر الفينيقي قبل آلاف السنين، أرادت أن تشق البحر نصفين، وأن تصل السماء بالأرض، وبنت معابد جديدة لآلهة شابة، وكسرت تماثيل الآلهة القديمة ورمتها في البحر، فطاف البحر وهدم القصر وحلت اللعنة في الأرض، إلى الأبد.

لم ينسوا أيضاً أنه أول من حذرهم بشأن أهمية أراضيهم، واهتم بشؤونهم، وبقي يسافر من القرية إلى العاصمة عدة أشهر. لكن سفره لم يُجدِ نفعاً، ولم تتوقف عمليات الحفر الليلية لأن ابن عمّ حيدر، الوحيد المتبقي من عائلة العلي، كان قد باع نصف القرية لرجل مجهول. وقيل إنه حين رحل الفرنسيون رحل معهم ولم يعد. وقيل إنه سيبني مطعماً فوق الأرض، لكنه حفرها وقلب أسفلها عاليها، واختفى بعد أشهر، وبقيت الأرض حفرة جرداء للريح والأوساخ.

كان الناس في القرية، يطمئنون إلى الأستاذ العجوز، ويستندون إلى معارفه. لكنهم أخذوا يشعرون أنه صار يضيق بهم، وبات عثرة أمامهم، وثقيل الظل عليهم.

الصوت ثانية، يصفر بحدة. ويبدو أن الجميع نسوا رجلاً ميتاً، وقبراً يحفر، ومقبرة تنتظر حفرتين أخريين. ولم يبق أمام الأستاذ محسن إلا أن يتجه إلى غرفته. سار عدة خطوات، صامتاً، والجميع مشغول بالحديث عن سعر البندورة في البازار، وصور التماثيل العملاقة المحطمة في ساحات بغداد، وذكريات القصر القديم. غيّر اتجاهه فجأة، ومشى نحو القصر، هناك حيث قرر أن يودع أول الضيوف الثلاثة في المقبرة.

twitter @mjanen٢٣

كان قصر آل العلي بناءً قديماً من طابقين، بجدران صفراء، ويبدو في وضعه الحالي أشبه ببيت مهجور. وفيما مضى كان البناء الوحيد، على اتساع السهل الساحلي لمدينة جبلة، المرتفع عن الأرض، إضافة إلى بناء أقل ارتفاعاً سيكون فيما بعد بيت سحر النصّور. وكانت البيوت المحيطة به من الطين والخشب، تبتعد عنه مشكلة قوساً حوله. بلونها الطيني، تبدو كأعشاش السنونو. لذلك أطلق عليه الفلاحون تسمية القصر. ولا يستطيع أهالي القرية أن يتذكروا متى بني القصر. لكنهم يتناقلون عن الكبار في السن أنه بني في عشرينات القرن الماضي، وأن إبراهيم بك، عندما فرغ من بنائه، دعا إليه الأغوات ورجال الدين والمشايخ، على امتداد عدة مدن تمتد من اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس حتى حماة وحمص. ويقولون إن ذلك الاجتماع جعلهم، بعد ذلك بسنوات، يطالبون الجنرال الفرنسي بإقامة دولتهم الخاصة بهم. أيّدهم الفرنسيون لأنهم، خلال احتلالهم سورية، أرادوا أن يكون لهذه الطائفة دولة خاصة بها، ضمن سياستهم في إقامة دويلات متفرقة في المنطقة.

ويحلف أغلب الفلاحين أنه، بعد تلك الوليمة بأشهر، استضاف ابراهيم بك في بيته كبار الضباط الفرنسيين، وأن أهم رجالات البلد في تلك الأزمنة مروراً على هذا القصر، وناموا وأكلوا فيه. ورغم خراب الزمن، وانقطاع نسل العائلة التي ملكته، وانتهائها بحيدر، إلا أن نظرة واحدة على المكان كانت تجعل المرء يدرك السبب الذي جعل من القصر قطعة من الجنة. فقد بني وسط عشرات الدونمات من الأشجار المثمرة: التين والرمان والزيتون والجوز والعنب فيما مضى. واليوم يقتصر على أشجار الليمون وبضع زيتونات هرمات ماتزال تشع بأوراقها الرمادية، على تخوم أشجار الليمون. وكانت الدوائر الخضراء

twitter @mjanen٢٣

المحيطة به، تتخللها قنوات مائية صغيرة، تتفرع إلى جذوع الأشجار. وبين هذه القنوات رصفت دروب ضيقة، توزعت على جوانبها الورود، وشتلات النعنع والحبق والزنبق البري المنتشرة في كل الزوايا المحيطة بالجدران. وكان وجودها ضرورياً، على الأقل بالنسبة لدلاّ، لأنها كانت تعمل على صنع أنواع ومذاقات مختلفة للشاي الصباحي الخاص بحيدر. والطريق الرئيسة المؤدية إلى أول القصر كانت تبعد أكثر من كيلومتر عن بداية أشجار الليمون، حيث بنيت بوابة حديدية، تحولت بفعل الزمن إلى قطعة خردة، لم يحاول سيد البيت الجديد في يوم من الأيام أن يصلحها. وإلى اليمين من القصر كانت تتوزع ثلاث بحرات، تحيط بها ورود الجوري الخالصة البياض، وتلتف حولها مصاطب حجرية، عريضة، بعوارض حديدية. وعلى جوانب المصطبة تُرك فراغ عميق، امتلأ بالتراب، وزرعت فيه زهور البنفسج. ورغم أن الزمن لم يعد كما كان، إلا أن دلاّ ومحيمود حاولا المحافظة على المكان بقدر الجهد الذي استطاعاه، فبقيت ملامح فردوس قديم تلوح بين وقت وآخر، وتتبدى أكثر في بداية الربيع حيث تتحول القرية إلى انفجار أخضر. وكانت بيوت القرية تبعد عن الالتفاف الأخضر للقصر حوالي كيلومتر أيضاً، فكان المكان يبدو كقصور الملوك في حكايا الأطفال. والبناء الذي صمم على طراز قصر أوربي، كان يحتوي في قسمه السفلي ما يحتاجه السادة في حياتهم آنذاك. غرف الخدم أولاً، وكانت تسكن الغرفة عائلة واحدة مات أولادها الواحد بعد الآخر، ولم يبق للزوجين سوى ابنة سمراء قصيرة القامة، ستكون فيما بعد دلاّ. والغرف الأخرى خصصت لإعداد الطعام، وأكياس المؤونة، والخيول. وفي القسم العلوي كان المكان مختلفاً عما يحيط به. في الداخل كانت الجدران والشبابيك والأبواب من خشب السنديان. وكانت تزين الأسقف ثريات على شكل شموع، وتتوزع الستائر المصنوعة من الدانتيل والبروكار الدمشقي، على النوافذ العريضة التي تجعل من المكان ملعباً للشمس والضوء. كل هذا الاتساع لم يشكل لحيدر أي معنى. كانت الغرفة الصغيرة التي تعلو الطابق الثاني بدرجات، والتي خصصت

twitter @mjanen٢٣

فيما مضى لسهرات الصيف، تطل على اتساع البحر وتربطها بورود الحديقة السفلى دالية عنب عجوز. وكانت جدرانها الداخلية مطلية بالأزرق، والمرايا الطولانية تشغل نصف مساحة الغرفة، ولم يبق منها سوى مرآة واحدة حافظ حيدر على تجديدها بين حين وآخر، وترك كل شيء عدا ذلك على حاله. بعد سنوات طويلة من عزلته، فكر بضرورة صنع مكتبة جدارية. كانت كتبه قد توزعت في ممرات القصر، وبين أشجار الليمون، وعلى جوانب النوافذ، وصارت تنتشر في كل مكان كالحشائش البرية. والشخص الوحيد الذي كان يركض وراءه كل يوم، ويجمع هذه الكتب، كانت دلاّ. فهي لا تكف عن النقّ أمامه بضرورة التصرف بهذه الكميات الكبيرة من الكتب، التي كان يرسل في طلبها في البداية من صاحب مكتبة مسن في دمشق. ولاحقاً عندما كبرت رهام تولت مسؤولية إحضار كل ما يحتاجه من الكتب والويسكي والسجائر. وبعد مرور بعض الوقت، كانت الغرفة الصغيرة قد أسرت قلبه وجعلته يتخذ منها بيتاً له، فكان يقوم بتجديد الطلاء كل سنة. وهذا الطلاء حافظ على لونه، ولم تختلف درجات تلونه أبداً. الأزرق الخاص، الأزرق الذي يجمع لون سماء صافية، وبحر شتوي. حتى رفوف المكتبة الخشبية كان يقوم بإعادة طلائها كل عدة سنوات، بنفس درجات اللون. والكرسي الخشبي أيضاً. كل ما في غرفته كان يبدو مبلولاً بالأزرق، وعدا ذلك فإن الملاءات البيضاء، وتوهج أعمدة السرير النحاسي، والرمادي الغريب الذي يخرج من المرآة، والكون خارج الغرفة الصغيرة... كل هذا لم يكن يعني حيدر. حتى البيت المجاور للقصر، والذي خصص فيما مضى للجمال والأغنام والأبقار والماعز، والذي احتفظ له من طفولته بذكريات طيبة، لم يكن يعنيه في شيء، ولم تطأه قدماه منذ رحيله عن دمشق حتى رحيله الآن. كانت غرفته هي المكان الوحيد الذي شعر بانتماء إليه.

twitter @mjanen٢٣

عندما وصل القصر أخذ علي حسن يجول بعينيه في المكان، محاولاً تكذيب ما سمع. ولم يكن أمامه فرصة للتفكير بغياب الرجل الذي أتعبه في حياته. طلب من مرافقيه إحاطة المكان، والتزام الهدوء ريثما تتكشف الأمور. كان رجاله أشبه بالعمالقة وهم يتجولون بالبدلات الكحلية والنظارات السوداء، يحركون رؤوسهم كرجال آليين. وكان وجودهم وسط المكان القديم، الشبيه بلوحة مقتطعة عنوة من العصور الوسطى، أمراً مضحكاً. كانوا يجوسون المكان كآلة تصوير، وعيونهم معلّقة على معلمهم علي حسن، ينتظرون إشارة منه. لكنه كان ساهماً، وهو يصعد الدرجات الحجرية، ويتمنى أن ينتهي من هذا كله في رمشة عين. استغرب خلو المكان من الناس، وارتاح لذلك. كان يبكي، معتقداً أن أحداً لا يراه، ورجاله في حالة ذهول. المعلم يبكي! لأول مرة يرونه باكياً، يمسح دموعه مثل باقي البشر. لم يصدقوا أعينهم، هل يبكي هذا الرجل؟ الرجل الذي كان اسمه كفيلاً بإثارة الخوف والهلع بين الناس. الرجل صاحب القامة الضخمة، والعينين الخضراوين الجاحظتين، يبكي على درج حجري قديم، ويضع يديه وراء ظهره، ويخفض رأسه حتى يكاد يختفي عن جسده. يدخل بيتاً مهترئاً من طابقين، يسمى تجاوزاً بالقصر، ويغلق الباب وراءه، مترنحاً في مشيته. يشم روائح الطفولة حين كان يلعب فوق تلك الدرجات، ويهرب من بيت أهله ليختبئ عند حيدر الذي يؤمن له الطعام والشراب والمأوى لأيام عدة، حتى يزول غضب والده منه، ويستطيع العودة إلى البيت دون أن تنتظره ضربات السوط الجلدي وسباب أمه وتقريع أخوته الكبار. إبراهيم بك بنفسه كان يأخذه، ممسكاً إياه من أذنه، وشافعاً له، ألا يعود إلى الهرب من المدرسة. وكان

twitter @mjanen٢٣

مجيء إبراهيم بك وحده كفيلاً بإنهاء الأمر، خاصة أن الأرض التي يزرعها والد علي كانت تعود ملكيتها لإبراهيم بك.

كان ينظر في ساعته، غير مصدق أن هذا العجوز أنهى حياته. تتابه رجفة وهو يحدق إلى رهام الفاقدة الوعي. وبين الوقت والآخر يصرخ بمرافقيه أن يمنعوا أي امرىء من الدخول. كانت رهام غارقة في بياسها بعد أن حملها محيمود من الغرفة، وأرخت دلاً عليها غطاء رقيقاً تستر به عري فخذيها وكتفيها إذا ما دخل غريب. خاف أن تفتح عينيها، وتمنى في نفسه أن تستغرق في سبات أطول، حتى ينتهي من وداع صديقه. وعندما تجرأ وحاول دخول الغرفة كان يلزمه أن ينحني امام الباب الصغير المفضي إلى ممر طويل، ينتهي عند غرفة الميت. تلك اللحظة جعلته جمراً على وشك التحوّل إلى رماد. كان رأسه متدلياً، وجسده ضخماً. يشبه جملاً، أو فيلاً ممطوط الساقين. لكن السبب الذي جعله يتقوس أكثر، كان لحظة مرت في خاطره. لحظة أفلتت من زمامه، يوم كان ينحني بنفس الطريقة وهو يناول حيدر صرة ثيابه، ويتسلق النافذة مقرراً عدم العودة إلى البيت. الآن يذكرسخرية رفيقه، وأسنانه البيضاء، وشقلباته فوق السرير، مستغرقاً في الضحك عليه لأنه كان يبكي كالأطفال، ويلعن والده السكير. لن يستطيع نسيان تلك الانحناءة، وكان يتذكرها كلما تسنى له، بين وقت وآخر، أن يخترق عزلة رفيق عمره ويرافقه في رحلات صيده.

كانت المرة الأخيرة قبل سنة، طقسها مختلف عن هذه الأيام، لأن الشتاء جاء خجولاً. يشعر الآن بالحر، ويتمنى لو يستطيع التقدم نحو عمق الممر. لكنه متيبس في مكانه. يستطيع الآن رؤية صاحبه بوضوح. كانا جالسين على شرفة الغرفة، وكل منهما يحاول الاسترخاء. يذكر تماماً أن حيدر كان يطلب منه في نهاية كل زيارة ألاّ يعاود المجيء، لكنه في كل مرة كان يترك جملته التي لم يغيرها لسنوات:

- سآتي مرة أخرى.

twitter @mjanen٢٣

ويغيب. وفي الكثير من الأحيان يقرر ألاّ يعود، لكن قدره كان يحمله إلى الإنسان الوحيد الذي كان يستطيع أمامه أن يبدو رجلاً بقلب وأخطاء، وبالكثير الكثير من القبح الذي يدمره في داخله. ألم يكن حيدر من قال له يوماً: إنّ للقبح جمالاً؟

في ذلك المساء، كان جالساً مع حيدر في الغرفة الزرقاء. حيدر واقف على النافذة، وهو يترنح على الكرسي الخشبي، ويحتفل بقرب استقالته. كان يعب في جوفه جرعاته اليومية من ويسكي "بلاك ليبل" ويصغي لحيدر الذي أطلق العنان لنفسه. كانا يتحاوران بعد أن استعر جوفهما بالويسكي:

- في الصراع على السلطة، هنالك دائماً هاملت. هل تعرف هاملت؟

وكان علي حسن يمط شفتيه، ويطلب من رفيقه المتابعة.

- هنالك هاملت مكرر. والتاريخ يثبت ذلك. ولكن هاملت في كل زمان ومكان، يحتاج إلى شكسبيره الخاص.

يصمت الرجل الآخر منتظراً من رفيقه إكمال حديثه، فيتابع حيدر، وهو شبه غائب عن الوعي:

- هل تركت فرصة لوجود شكسبير، أيها البطل؟

- ماذا تقصد؟ هل أنت في إحدى هلوساتك المعتادة؟

لا يرد حيدر، ويحاول علي حسن الابتعاد عن الحديث لأنه كان دائماً يحذر مكاشفات حيدر، الذي لم يكن يأبه له أو لمكانته.

ما زال يذكر حديثه، ويشعر بالغرابة. كيف بقي يحتفظ لهذا الرجل بكل تلك المهابة والحب؟ هل هو الإحساس بالذنب، على ما خربه في حياة صديقه؟ هل هي الخيانة؟ هل هو العرفان؟ أم هل بقي حيدر إبن إبراهيم بك؟ هو لايعرف حقيقة تلك العلاقة بينهما، لكن حيدر كان يفسر تلك العلاقة على طريقته. كان مصراً أن صديقه لايعرف أن يحب إلا صورته. حدث ذلك مرارا ً وأثناء الحوارات المتشعبة التي كان يرهقه بها، وبعد أن يعبا الويسكي كالعادة. وفي اليوم نفسه الذي أراده علي احتفالياً، والذي لم يكرره حتى اللحظة، كان

twitter @mjanen٢٣

حيدر يفسر له سر الرابطة التي تجمعهما:

- العلاقة التي تجمع بين الضحايا، هي نفس العلاقة التي تجمع بين الضحية والجلاد. وأنت نفسك لم تعرف ذلك. أنا كنت ضحية حلمي، وأنت جلاد هذا الحلم، وقاتله. ولكننا، في النهاية، وحيدان. أنا وحيد بطريقتي، وأنت رغم زحام الناس حولك أشدّ وحدة مني. لأنك تخاف هؤلاء الناس، تذكّر ذلك... وجودك قائم على الخوف من حرية البشر. هل تتصور بشاعة وحدتك؟

يذكر تماماً تلك العبارات، ويشعر الآن أنه يود لو ينتحب كرضيع. كيف ذلك؟ انتبه إلى نفسه، وفكر أن يعود لتوازنه. عليه أن يكون أكثر صلابة. منذ زمن تعود على فكرة أنه تجرد من ضعف الإحساس. القوة هي في القسوة، الحياة علمته ذلك. عليك أن تكون قوياً، وأن تنتزع قلبك من صدرك وترميه للكلاب. قلوب الضعفاء جديرة بنهش الكلاب... كان يردد لنفسه. يذكر تماماً، أنه بعد أن طلب من حيدر الصمت النهائي، بعد ذلك الحديث عن الضحية والجلاد، بدأ يسأله عن أحواله الخاصة. قال حيدر بعد أن نهض وفتح نافذته حتى النهاية، فغطى علي حسن عينيه براحة كفه من انعكاس الضوء في المرآة التي تحولت إلى شمس صغيرة:

- ثمة من يقول، ولعله التاريخ المكرر لتجربة البشر في كل أنحاء الاستبداد، هل تعرف ماذا يقول؟

يبتسم علي حسن بدعة، محاولاً استيعاب صديقه:

- ماذا يقول حيدر بيك؟

- يقول: انتبه للناس وأنت صاعد لأنك سوف تلتقي بهم وأنت نازل.

هاجمته الذكريات.

الحرش، ورائحة الأخضر الداكن، وصمت الظهيرة، وأزيز حاد يصفر بين جذوع الأشجار، وفوضى النباتات البرية الموزعة على حافتي الطريق الترابي الضيق الذي يخترق الحرش إلى نهايته. حيدر يمسك بعود رفيع، يضرب فيه الهواء، يقفز وينط وكأنه يقاتل الهواء. وعلي حسن غارق في ضحكه يصيح:

twitter @mjanen٢٣

- دون كيخوت... انتظرني!

يتجاوز حيدر علي حسن، وينحني أمامه في حركة استعراضية، ثم يقف حاملا غصنا أخضر يناوش به سيف صديقه المفترض. كانا كلاهما غريبي الأطوار. علي حسن الولد المتجهم، السريع الانفعال، الممتلئ بانتفاخ صدره أمامه؛ وحيدر الرقيق كالغصن الذي يحمله.

- الحمد لله أن دلاّ لم تأت معنا. يقول علي.

يتجاهل حيدر كلام صديقه، ويحاول مبارزته من جديد، فيسقط متعثراً بحجر. ينحني حيدر نحوه، ويطفر بالضحك صائحا:

- انهض يا سانشو، لأني أرى أن السعادة التي لم ترضها كل آلامي، قد أوصدت كل الطرق التي يمكن أن يأتي منها بعض السرور إلى هذه الروح الشقية التي تقطن جسدي.

ويرمي بنفسه على الأرض، معفرا بالتراب. علي حسن يحدق فيه:

- ماذا تخرف؟ صدقت انك فارس الفرسان، وأكلت الكتب عقلك؟

يلم حيدر نفسه، وينظر إلى عيني صديقة طويلا، قبل أن يقوم وينفض الغبار عن ثيابه، وهو يتمتم بهدوء:

- أنت تنسى ما أكلته البارحة.

- أنا لاأنسى شيئاً!

- نسيت قسم الفرسان؟ نسيت ما تعاهدنا عليه؟ نسيت الحلف الذي حلفناه بالدم؟

- فرسان؟ ما نسيت... ذاك كان لعباً، وتمثيلية من أحد كتبك العظيمة.

- ما كان لعباً، وأنت أقسمت. وأنا اقسمت. حلفنا...

- حلفنا؟

- بالشرف!

- أي شرف؟ شرف الفرسان الماضي، أم شرف زماننا؟

- الشرف هو الشرف، لا يتغير في كل زمان ومكان.

twitter @mjanen٢٣

- غير صحيح. الشرف يتغير ويتبدل من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان. الشرف يخترعه البشر، ويجعلونه تابعا، وليس العكس. حضرتك، اطلع من كتبك وانظر إلى الدنيا.

يحدق حيدر طويلا في عيني علي، وتلتمع عيناه وسط دكنة الخضرة. العيون نفسها. النظرة الحادة نفسها في ذلك اليوم داخل الحرش. تكررت عندما انهى حيدر جملته تلك:

- انتبه للناس، وانت صاعد، لأنك سوف تلتقي بهم وانت نازل!

وكانت نفس الالتماعة، والحزن والأسى، تعود إلى علي حسن وصوت حيدر يطغى على المكان، الأن بعد أن انتهى هذا الرجل وإلى غير رجعة.

كان يدرك أنه يريد الهرب منه، لذلك كان يأتي إليه حتى يتخلص منه. لماذا انتظر موته حتى يدرك الحقيقة؟

كان مخنوقا بذكرياته وإثمه. وهل يستطيع أن ينسى آخر حوار لهما، قبل أن يترك حيدر دمشق؟ هل يستطيع نسيان دموعه وتشنجاته، وهو يبصق على كل ما فعلوه من أجل أن يكونوا قادة عسكريين؟ ليست قيادة هذه التي صعد بها علي حسن مع رفاقه في الحزب، ففرضوا قانون الأحكام العرفية والطوارئ، ثم انقلبوا على بعضهم البعض وحكموا البلاد. القيادة التي كانت ترفرف أمام حيدر، المفتون بقصص الفروسية والشجاعة، هي قيادة فارس حالم بحياة جديدة تنسيه عذابات الماضي، وصراخ الدماء المسفوحة في حنجرته. من أول التحولات حتى آخرها، كان كل شيء بينهما مختلفاً. رجل هارب للأمام مدججاً بالحديد والنار، ورجل هارب للخلف بصحبة أوراقه وكتبه وعشقه، ونتف من بقايا طفولة، وذكريات تلح عليه،وسط الحرش، عن ذلك العالم الجديد المحمول على ميزان العدل الذي أراده، وهو يمتطي صهوة حصانه الأشقر.

الرجل الهارب للخلف سقط عن صهوة حصانه، والهارب للأمام يتمنى في هذه اللحظة الفرار من كابوسه اللعين الذي صنع له قبواً خاصا في بيته الجديد

twitter @mjanen٢٣

ليدفنه، خوفا من الالتماعات الحادة وروائح الدكنة الخضراء في الحرش، وقهقهات الشرف والفروسية. لن ينسى التماعة بريق حاد، يضيء كنصل سيف حاد، يمزق قلبه ويختفي.

الالتماعات ذاتها لاتتغير، تمر في الزمن، ولاتتطفئ. بدأت قبل زمن طويل، لكنه يحفظه لأن البريق في عيني حيدر لم يحمل من قبل سوى تهادي ماء غريب اللون والصفاء، أو هذا ما كان علي حسن يراه. هكذا تحولت عينا حيدر تلك المرّة، قبل أن تهجره سحر بأيام، وتطلب منه الانفصال. آنذاك، قبل أكثر من ثلاثين سنة، وكان لايزال برتبة مقدمّ في الجيش، صار من الصعب على حيدر البقاء صامتاً عما يحدث. دخل إلى غرفة علي حسن الخاصة، ولبث صامتاً، ثمّ طلب فنجاناً من القهوة. كان الوقت ظهيرة، وشهر آب في نهايته. كان كل منهما يجلس قبالة الآخر، في الغرفة التي قلما كان علي حسن يخرج منها. المكتب الخشبي العريض، ومشجب الثياب، وخزانة، وكرسيان عريضان من القماش المنجد، بينهما طاولة زجاجية مدورة. فنجانا القهوة على الطاولة، والنافذة مفتوحة، وكل منهما يشرب قهوته بصمت. كل منهما يدرك ان الزمن فات، والدنيا لم تعد كما كانت. علي حسن يرتجف من أعماق قلبه، لأنه لو علم حيدر بغرامه فسيكون مضطراً إلى... وإلى...

كان يفكر، وهو يتأمل حيدر، ما الذي سيفعله؟ ما الذي سيقوم به، لو أن حيدر عرف بالأمر؟ تتهنه حيدر، ونظر بحدة إلى عينيّ علي. هناك بدأت الالتماعة تقتل علي حسن. وهناك تماماً اختفت عينا حيدر الغارقتان في الصفاء. هناك، وبينما كان حيدر يرتشف قهوته بهدوئه المعتاد، وعلي حسن يدخن سيجارته، في حاجته لاطفاء حريقه، خائفا ان تكون سحر كاشفت حيدر بحبّهما.

القصة بدأت، وانتهت في نفس اللحظة.

كانت بضعة جمل كافية حتى يفهم علي أن حيدر انتهى، وأن ليس هناك ما يدعو للقلق.

twitter @mjanen٢٣

- إلى أي أرض تتوجهون؟

قال حيدر، وحنجرة علي حسن علي توشك على التفتت وهويبلع ريقه:

- من؟

- أنت، وجماعتك ؟

انزاح جبل عن قلب علي حسن، وتمدد دمه، وضحك:

- قليل من الخلاف لا يضر، سوف يمشي الحال... أكيد.

ضحك من جديد، وتابع:

- قلنا لك الف مرة، نحنا رفاق ولسنا جماعة.

كان حيدر على وشك البكاء، وهو يحدق في عينيّ صديقه. كانتا باردتين، عندما عاد للحديث معه يذكره بأحلامهما، طالباً منه مراجعة نفسه. وكان علي حسن راغب في البكاء مع صديقه أيضاً، وراغب في البكاء على نفسه، وعلى المسكين الذي أمامه. حيدر المخبول بقصص البطولة والفروسية، ما زال بعد كل هذه السنوات يتذكر عهداً تواعدا عليه. عهد غريب من نوعه، عن الظلم والألم والعذابات الدافقة في الدماء، والتي توارثها علي حسن وحيدر العلي عن أجدادهما. أراد البكاء، وبكى بعد خروج حيدر الذي قال:

- أنا غير موافق على ما يجري، واعتبرك خائناً لكل ما حلمنا به.

لكنّ علي حسن، وقبل أن يخرج حيدر من مكتبه إلى الأبد، أمسك بيده، وشده بقسوة، قائلا:

- إذا كانت الفروسية تقول ببقاء حيدر إبن البيك، وانا علي حسن إبن المرابع، فإني لا أريدها. وإنت لا تقدر أن ترى غير ذلك! تريد تحقيق حلمنا؟ أنا مستعد، لكن هل أنت جاهز لتنزل من فوق... فوق... وتصير مثلك مثل غيرك؟ أكيد، لا. أنا جاهز لأصير فوق... فوق... الحياة تختلف. وأنت اخترت البقاء تحت. انت من خان. خنتَ وبعتَ... عندما تلبس بدلة العسكر يجب أن تكون عسكرياً. العسكري عسكري. يموت ولا يسأل. عليه إطاعة الأوامر فقط. أنت خنت حتى ثيابك. اركب فوق حصان أبيك! كن حيدر ابن البيك! انزع

twitter @mjanen٢٣

بدلة العسكر، وارجع حيدر المدلل أبا هلوسات! ارجع، وبلا فلسفة للأمور. الحياة تحتاج للقوة... القوة فقط. وعندما تكون قوياً، فإنّ كل شيء حولك يخضع لك. أنت ترتفع، وكل ما حولك يهبط...

عندما خرج حيدر، صار علي حسن على وشك السقوط. ترنح، وقع على كرسيه، واسند جبهته إلى الطاولة الزجاجية التي انكسرت بفعل الصدمة، وجرحت جبينه. كان يحدق في الزجاج وفي قطرات دمه، ويبكي. كان يبكي كالولد الذي كاد أن يسقط فو ق جرف نهري، لولا يدا حيدر. وكان الولد الذي تدحرج فوق البيادر مع حيدر، وغنى معه على الطرقات الترابية، وقرأ له الأشعار. الولد ذو الضحكة الرنانة. الذي جرح نفسه بموسى سرقها من بيته، وجرح حيدر، وتحت شجرة دلب ضخمة في الحرش تعاهدا على أن يكونا فارسين. امتزجت دماؤهما، وامتزجت عروقهما. كان مخزياً بينه، وبين نفسه، وليس بسبب ما يحدث في البلاد، فقد قرر أن يكون الأقوى. وليس بسبب الذكريات فقط، ولكن نتيجة احساسه بالوهن والانشطار، أمام عيني سحر، ورغبته في وقف نزيف قلبه. لكنه لم ينجح، لأن قدميه كانتا تسبقان قلبه اليها، وكان كل ما فيه مالحاً، وفائراً إلى جسدها. كانت سحر النصور أقوى منه. أنوثتها تلفّ وجوده كله، ولم يستطع في يوم من الأيام التحرر منها. بعد تلك القبلة، جرفته إلى قلبها، وامتصته، ولم يعد كما كان ابداً.

ما يزال محدقا بالفراغ، في عيني حيدر البعيد يشده من كمه بقوة، عندما مرقت تلك الالتماعة من جديد. سمع صرخة رهام، فالتفت إليها وكاد يهوي على الأرض. ليس من أثر الصدمة، بل بفعل تلك النظرات الحاقدة من العينين الزرقاوين.

لقد كان هنا، وليس في مكتبه.

كان أمام عيني رهام، وليس أمام عيني حيدر، ولحظاته البعيدة.

كان في حضرة إثمه، بعيداً عن سحر وحيدر.

رهام التي اضرمت نيران عذابه.

twitter @mjanen٢٣

تدارك الأمر سريعاً وهو على وشك السقوط أرضاً، وركض إلى الخارج طالباً من الرجال إتمام حفر القبر، والإسراع بإحضار المشايخ ليغسلوا الميت. كان يشعر بحاجة للخروج من العالم بأسره، نحو الولد الذي كان. يريد رمي بزته العسكرية، والاختفاء عن عيون رجاله، ليتسنى لتجاعيد وجهه أن تعبر عن تغضنها، ويغمض عينيه بسلام، حتى تنزل ملوحة الدمع المحبوس فيهما. قلبه يدق بسرعة كما لم يفعل منذ زمن طويل. وتَدَفّق الدم داخل شرايينه يشبه تدفقه قبل سنوات طويلة، عندما قرأ استقالة صديقه الموضوعة على مكتبه، صباح يوم شتائي كئيب. إنه الزمن، يعيد نفسه مرة أخرى، وعلي حسن كان الوحيد من هذا العالم، الضيق على حيدر، الذي احترق في رحيله. في الرحيل الأول حبس نفسه لأكثر من أسبوع، رغم الأوضاع الأمنية في البلاد، وبقي عدة أشهر لا يغمض عيناً حتى تفتح أخرى. كان يريد أن يعرف إن كان قاتلاً أم مقتولاً. يريد لمس طيف من الحقيقة. وحيدر يتسرب إلى الماضي. هو ابن المرابع، يمسك الحاضر نحو المستقبل، والمجد والعظمة اللذين خلقا له وحده وليس لغيره. يمتحن لحمه في روحه، بعد أن جاءت الأنثى الأخيرة في العالم وقضت على كل شهواته ونزواته وولعه بتغيير مذاقات الحموضة في سوائل النساء الليلية حينما تغزوهن الشهوة. حلت محلها ضحكات سحر النصور وغنجاتها، امرأة حيدر الأولى والأخيرة. والآن في الرحيل الثاني، وبعد أكثر من ثلاثين سنة، كان الرجل الوحيد الذي ترك مكتبه الفخم، وقطع كل مهماته، رغم الحرب والتهديدات التي تلوح في الأفق، وأقفل جهاز هاتفه النقال، وهام على وجهه ساعات حتى وصل غرفة حيدر، غير مصدق أن هذا الرجل انتهى إلى الأبد. كان يريد أن يعرف هل هو تعيس أم سعيد لهذا الرحيل الأخير؟

twitter @mjanen٢٣

بين ولادة دلاّ جانب التنور، وولادة حيدر في الغرفة العلوية للقصر، ولد طفل أشقر مائل للحمرة، بوزن يتجاوز خمسة كيلو غرامات.

كان علي حسن، الولد السادس لفلاح أجير عند إبراهيم بيك، من بين سبعة صبيان وخمس بنات. كان ولداً مشاكساً وذكياً، يميل إلى العزلة، والعبث، ويكره فقر عائلته. ولم يكن يرى في والده أكثر من رجل سكير وسخ، لكنه كان يحب أمه ويساعدها في كل ما تحتاجه، ويحاول البقاء حولها أينما تحركت. وكان المفضّل عندها من بين أخوته، خاصة بعد الصداقة التي جمعته مع ابن إبراهيم بك، والتي جعلته طفلاً مدللاً عند العائلة. كل ما يحتاجونه من البيك صار علي كفيلاً بتأمينه لهم، بعد أن رأوا التعلق الشديد بين الصبيّين اللذين باتا لاينفصلان. صار علي، بعد أن دخل مدرسة حيدر، يقضي معظم أيامه عنده. ولم يعد يخاف من زيارته خلسة عن أبيه، لأن البيك أعلن على الملأ أن علي هو بمنزلة أخ لحيدر، وابن له. وهذه السطوة التي وجد علي نفسه فيها بين ليلة وأخرى، جعلته أكثر ثقة بنفسه، وأكدت له أن هناك مجداً كبيراً في انتظاره. لذلك كانت أيامه، رغم مصاعبها، تمر على قلبه بخفة، ويجد العزاء في أيام قادمة، ستلوح له عاجلاً أم آجلاً. كان يحلو له كثيراً، وبعد الانتهاء من ساعات العمل الصباحية، جَمْع أخوته، خاصة الصغار منهم، وتوزيع الأشغال عليهم، ومخاطبتهم كأجراء لديه. وعندما يتسنى لواحدهم التعبير، ولو بتأتاة أو نمنمة، عن اعتراضه، كان يجد المبرر لتلقينه أشد أنواع العقاب. وكان في هذا الأمر بارعاً إلى حدّ أدهش الجميع. حتى والداه صارا يوكلان اليه عقاب أخوته الصغار وتأديبهم، لأنه كان على درجة من الصرامة تكفي لتجعله يخفف عنهما عبء تربية أطفال يشبّهون بحبات

twitter @mjanen٢٣

المسبحة.

قرر ابراهيم بك أن يتكفل بمصاريف علي حسن ورعايته ليكون مصدر تسلية لإبنه، وظناً منه أن وجود رفيق مع حيدر سيمنع عنه الهلوسات والفرق في قراءة الكتب. يومها كان علي حسن شارداً أمام مصطبة البيت، يحلم بأيامه القادمة، ويفكر بخيط النور الرفيع الذي التمع فجأة في سماء حياته. المدرسةالداخلية وحيدر، وما وراء المدينة، والبحر. كان شارداً حتى عن نفسه، لو لم تجفله أمه بصراخها كي يساعدها على أخته العنيدة التي لم تقبل يوما بالانصياع لأوامر أمها. وهو عادة يبدأ بالصراخ، ثم يبصق على ما حوله، وينظر مستمتعاً إلى وجه الشخص الأخر، ضاحكاً من البصاق النازل على وجهه. كانت ذروة متعته في أن يتحول إلى آمر وناه، ويتفرّج على وجوه الأخرين تنكمش أمام عينيه. وفي ذلك النهار كان احتقانه على أشدّه، فلم يبدأ بالصراخ، بل نهض من مكانه، وأمسك شعر أخته الأسود الطويل، ولوى رقبتها الصغيرة، ثم رمى بها أرضا صارخاً:

- إذا عذّبت أمي فسأقطع رأسك!

انتظر حتى تقوم الصغيرة بأي ردة فعل، لكنها لم تفعل. وقف ينظر إلى أخوته الباقين، الذين اكتفوا بالصمت، ثم اتجه بسرعة نحو شجرة التين خلف البيت، وغاب بين أغصانها. عاد يحمل بيده سحلية ترابية اللون، عصرها أمام أخوته، وانتزع رأسها من جسمها، ثم رماها أرضا أمامهم، وتحت قدمي الأخت المعاقبة. عاد يكرر وعيده:

- سأقطع رأس كل من يعذب أمي!

كانت الأم في الداخل تراقب ابنها من النافذة، وتحمد الله لأنه رزقها بولد مثل علي، عوضاً عن والده المهلهل، وأخوته الضعفاء. ضحكت له من وراء النافذة، في دلالة على رضاها. تنحنحت الأخت الصغيرة، ونظرت بحقد في عيني علي، ثم بصقت في وجهه. انقلبت الدنيا فوق رأسها، وضاعت بين رجلي علي حسن. كانت هذه الأخت هي نفسها أول فتاة، في القرية كلها، تهرب من دار

twitter @mjanen٢٣

أبيها، ذات ليل شتوي كئيب. وتختفي إلى الأبد، وتترك لعائلتها ما اعتُبر فضيحة وعاراً لن ينجوا منهما حتى سابع جيل، كما رددت عجائز القرية بعد انتشار خبر هروبها.

اما أخوته الباقون فقد مات اثنان منهم، وتحول الأخرون إلى أتباع لأخيهم وحُماة لأملاكه بعد أن كبر علي حسن، وصار له شأن عظيم في البلاد. صعد بهم إلى الجنة، وأقام لأمهم ضريحا خاصا بها حين ماتت، وهي بكامل الرضى عنه. زيّن الضريح بماء الذهب، وزرع حوله أشجاراً عملاقة، حتى بدا القبر شبيهاً بالأضرحة البيضاء المنتشرة في رؤوس الجبال الساحلية.

كان علي حسن قد دخل الكلية العسكرية قرابة منتصف القرن الماضي، وصار وحيدر رفيقين دائمين. كان يحلو له أن يقوم بغزواته الليلية إلى بيوت الفلاحين، حيث يشم رائحة النساء الجميلات، وهي الموهبة التي كانت تنقص حيدر، كما قال دائماً وهو يدعوه إلى غزواته تلك. كان يلذ له دعوة المرأة وسرقتها، من تحت فخذ زوجها. يغازلها لأيام طويلة، ويأتيها بالهدايا من المدينة، ثم يدعوها لملاقاته ليلاً، مرة واثنتين، حتى تستوي كالطبخة وتلين وتضج بالرغبة. هكذا حاول أن يّعلم حيدر. وعندما تستسلم له، يبطحها تحت الأشجار، ويلجها، مرات ومرات، حتى طلوع الفجر. ثم ينسل إلى بيته، متعبا خائر القوى، مستعداً للسفر والاختفاء تماماً عن عيني تلك المرأة، ليبدأ مع امرأة جديدة. وعندما كان حيدر يعنفه بين وقت وآخر على ما يقوم به، كان يضحك بشدة ويقول:

- صاحب نفس عفيفة! أين يقضي ابراهيم بك لياليه؟

وكان حيدر يعرف أن لأبيه نزوات كثيرة، وكان، كما قال له بعض الرجال لاحقاً، يسطو على زوجات الفلاحين. وقيل له إن هناك أطفالا كثيرين، لو تمعن حيدر فيهم، لأدرك وجه الشبه بينهم وبينه. وعندما كبر، وعاد وحيداً إلى القرية، صار يبحث بين الوجوه عن أخوة له، مشابهين، فلم يعثر على أي منهم. لذلك كذب، بينه وبين نفسه، ما قاله الناس عن أبيه لأنه

twitter @mjanen٢٣

كان مقتنعا أن الانسان كلما كبر عادت أصوله وملامحه الحقيقية إليه. لكنه شعر بغيظ شديد ممّا قاله علي حسن، وقام بمقاطعة صديقه طيلة أيام، حتى تصالحا بعد ذلك في حمص، في مبنى الكلية العسكرية. كان ذلك قبل أن يغيب حيدر نهائياً في عشق سحر النصور، الوله الذي لن يبرأ منه في كافة تحولاته اللاحقة.

دخل حيدر وعلي إلى مبنى الكلية العسكرية، وكل منهما متجهم معرض عن الآخر. كان حيدر يبدو أكثر قتامة، وهو يستعيد كلمات صديقه عن أبيه، ومعاشرته للنساء. التفّ بعض الشبان حول علي، لأنه كان أكثر شعبية من حيدر المنطوي على نفسه، القلق والساهم الذي كانت تصرفاته تتسم بالبرود والاستعلاء. قهقات علي ومهمازحاته وذكاؤه السريع كانت تجعل منه نجماً بين رفاقه، رغم أنه كان أكثرهم فقراً، وكان من قلة قليلة من أبناء الساحل السوري الذين أرادوا في ذلك الزمن أن يصبحوا ضباطا في الجيش. ولولا ابراهيم بك لم يكن ليحلم بوجوده بينهم. وغالبية الطلاب كانوا من مدينتي دمشق وحلب، ومن أبناء العائلات البرجوازية التي أرادت الاعتماد على هؤلاء الأبناء، ضباط المستقبل، في تأسيس ارستقراطية عسكرية بعد الاستقلال. وجود أبناء هؤلاء العائلات إلى جانب علي حسن، الأجير الفقير ابن مرابع ابراهيم بك، لم يخلق في نفسه إحساساً بالدونية، بل جعلت زهوه يتعاظم، وإحساسه بالتفوق والعظمة يكبر. كان يزيل الفروق بينه وبينهم، ويتحول بطريقة لاشعورية، سواء بإحساسه الداخلي أو حتى بإحساسهم به، بذكاء وحذر. جعلهم ينقادون إلى حديثه، تماما كما فعل مع أسرته يوما، لكن الفارق كان بسيطا وكبيرا في آن. بينما كانت عضلاته ما تلزمه ليكون الصوت الأول في عائلته، كان دماغه يلزمه هنا لتطويع كل مَن حوله، كما يريد. ولذلك في تلك الليلة، وبعد أن عاد كل منهما من القرية مغبونين، لم ينتبه رفاقهما إلى حيدر المستغرق في شروده فوق سريره الحديدي. ونوبة السعال التي انتابته كانت الإشارة الوحيدة التي نبهتهم إلى

twitter @mjanen٢٣

وجوده بينهم. وفي الحالتين، سواء أكان حاضراً أم غائباً، نادراً ما كان ينضم إلى جلساتهم. كان يغرق دائماً بين كتبه التي لا تفارق وسادته، كان يكتفي بالصمت الطويل، وبتعليقات سريعة ومقتضبة على أحاديثهم. وفي الحقيقة لم يشعر في يوم من الأيام بانتمائه إلى هذا المكان، الذي اعتقد خطأ أنه ينتمي إليه حتى اكتشف النقيض، ولكن بعد فوات الأوان. كان ينتظر مرور الأيام ليعود إلى القرية، وينتهي من كابوس التدريبات اليومية، والحياة القاسية، وكل ذلك الهذر، والتهريج الذي كان رفاقه ينخرطون فيه. سيكتشف أن ما يدور في ذهنه مغاير للواقع الذي يعيشه، وسيعرف بمرور الزمن القادم أن الفروسية شئ مختلف عن الحياة القادمة المنتظرة. ذلك هو السبب الذي جعله في حالة تعب ومرض دائمين، وجعل كل من حوله يعامله كمدلل مترف. ورغم تربيتهم البرجوازية، لم ينظروا بعين طيبة إلى حيدر، ولم يفهموا شروده الدائم عنهم، وكانوا يعتبرونه مخنثاً وجديراً بملازمة بيته. ولولا علي حسن، والصداقة التي عرف الجميع أنها تجمعهما، لتطاولوا عليه. لكن نظرة واحدة من علي حسن كانت كفيلة بإسكاتهم، وأن يتردد الواحد منهم ألف مرة قبل أن يقدم على ازعاج حيدر، الغائب عنهم داخل تحولاته. هذا ما منعهم، عندما بدأت نوبة سعاله بعد منتصف الليل، من التأفف، وانتظار ما سيقوله علي حسن.

كان السفر قد ارهق حيدر، والتدريبات المستمرة، جعلته أكثر وهناً. ولأنه في ذلك الوقت، وقبل أن يسافر، قضى يوماً كاملاً على صهوة حصانه، تحت وابل من الأمطار، يجوب القرى المجاورة لقريته، باحثا عن فراغ يدفن فيه قلقه فقد بدا أن نزلة صدرية حادة ستّلم به، وكان مرض حيدر فرصة لعلي حسن كي يعتذر من صديقه الذي أحبه رغما عنه، وكرهه أيضاً رغماً عنه. وما فعله لاحقاً، وليومين متتاليين، سيجعل من رفاقهما في المهجع يستغربون سر العلاقة التي تجمع الاثنين. كان علي يسهر الليل بطوله أمام حيدر، يقرأ له الأشعار التي يحبها حيدر ولايطيقها علي، ويغيّر له كمادات الثلج بين حين

twitter @mjanen٢٣

وآخر، ويحرص على إعطائه الدواء في مواعيد منتظمة. وعندما يتوجب أن يلتحق بتدريباته، كان يوصي به أحد رفاقه. وقبل أن يقوم بالاغتسال، يجلس معه لدقائق، متمتماً كلاماً عن ضرورة أن يتعافى بسرعة، ليتسنى لهما الحديث من جديد. وكان حيدر يرد عليه بابتسامة وارفة، تجعل من قلب الرفيقين يخفقان بعد تبدد الغيمات السوداء. وتعلّم علي من تلك الحادثة ألاّ يأتي على ذكر ابراهيم بك بسوء أمام ابنه الوحيد.

وحيدر الذي وجد في علي حسن منفذاً لطفولته على العالم، كان أكثر من سعيد في تلك الأزمان، رغم غربته عما يحدث، لأنه في وحدته التي فرضها والده، كان يتوق إلى عالم أكثر حقيقةً من العالم الذي خُلق فيه. وهو السبب الكبير الذي جعل من لقائهما على حافة الجرف النهري في الضيعة، مولداً حقيقياً لصداقتهما الطويلة التي لن تعرف إلاّ الحزن. وربما هي الصدفة أو الحزن نفسه من رتّب لقاء حيدر بسحر النصور، فوق نفس البقعة من الأرض، وعلى نفس المنحدر، ولكن بعد ذلك بسنوات.

كان علي حسن الولد الذي يمشي في القرية، حاملاً على ظهره كيسا كبيراً من الخيش، دون أن يحني ظهره. كان يطيب له فعل ذلك أمام الجميع، وعلانية، وهو يصفر أو يتظاهر بالالتفات، هنا وهناك، متجاهلا نظرات الدهشة والاعجاب من الناس الذين يرون ولدا صغيرا يحمل كيساً بحجمه، وكأنه يحمل على ظهره حزمة من زهور شقائق النعمان المنتشرة بكثرة في السهل الساحلي. لذلك، وعندما قرر المرور من الطريق الترابي الضيق المحاذي لنهر القرية، كان يعرف أن ثمة صبايا ينتشرن على هذه الطريق، استعدادا للاستحمام أو الغسيل، أو أي شيء آخر. ولم يخطر في باله، أن أحداً لن يراه سوى ابن البيك المدلل، الذي لم يكن يطمح حتى للقياه، لأن ابراهيم بك كما هو معروف لدى الجميع، كان يغلق على ابنه الأبواب دائما، ولا يسمح له بالاختلاط بأبناء القرية. والبعض من هؤلاء قالوا إن سبب تشدد والده في عدم اقتراب انسان منه، هو مرضه الشديد، الذي لم يعرف ماهيته.

twitter @mjanen٢٣

كان النهر في أقصى جريانه، بعد أمطار غزيرة. وكان الطريق الضيق موحلاً ومغطى بالأعشاب التي تجعل المرور فوقها خطراً يؤدي إلى الانزلاق. ولم ينتبه علي، وهو يجوس الطريق والاتجاهات بعينيه، إلى التواء رجله اليمنى، وتدحرج كيس الخيش، ثم ظهور الفرس الشقراء أمامه، بغتة، وهو يتهاوى محاولاً الامساك بجذر شجرة طالع من تحت الأرض في اتجاه ساقط نحو الماء. كان الجذع متوسط الحجم، ولا يكفي لبقائه أكثر من نصف دقيقة دون أن ينكسر. لكن اليد التي امتدت فجأة، وانتشلت علي من الفراغ، أنهت تلك الحادثة بخير وسلام. كان علي فزعاً، مندهشاً، وهو ينظر إلى رجليه، وإلى أسفل الجرف النهري، وصوت المياه الهادرة يصم أذنيه. كان يتنفس بصعوبة، وهو يشهد ولداً يلمُّ الشعير عن الأرض، ويعيده إلى كيس الخيش بكل هدوء، ويطلب منه ألاّ ايخاف لأن الجرف ليس عالياً، ولأنه بأمان. بعد ذلك وضع الولد الغريب ذو الملابس الأنيقة الكيس جانباً، ومدَّ يده اليه مصافحا بابتسامة مقتضبة: أنا حيدر العلي. يمد علي حسن يده أيضاً، قائلاً، وقد خفق قلبه: وأنا علي حسن.

ومنذ ذلك اليوم، وبعد أن ذهبا معاً إلى بيت ابراهيم بك، وشربا الشاي، تحولا إلى رفيقين يقضيان أغلب أوقاتهما معاً. ولكن كل تلك الأوقات كان يشوبها من الصمت، وكسر جدار الوحدة، واللعب بين الأحراش، أكثر من الكلام والحوار بينهما. وكان من الممكن أن يقضيا ساعات يتجولان، دون أن يوجه واحدهما للآخر كلمة. ومنذ تلك الأزمان البعيدة، لو راود حيدر أدنى إحساس بأن هذا الرفيق الذي شاطره نهاراته ولياليه، سيقطع قلبه نصفين، لما انتظر لحظة واحدة معه، ولأبعده عن عالمه، وعن فرحته الوحيدة التي خرج منها في الدنيا: سحر النصور. لكن الحكاية لم تكتمل لولا الاتصال الذي جمع الرجلين حتى في أزمنة العداوة القادمة، بعد أن كبرا، وتحول علي حسن إلى رجل يحسب له ألف حساب، وضاع حيدر بين مساحة ضيقة لا تتجاوز حجم مرآته وكتبه وأحراشه الغريبة. كان الرجلان يبتعدان عن بعضهما. وجاء

twitter @mjanen٢٣

القدر، وجعل من صاحبة أجمل عينين في الساحل السوري عروساً لحيدر. والقدر نفسه، من جعل هذه العروس الجنّية التي أخذت عقل علي حسن، وانحل وذاب في عشقها. وقبل أن يدرك ما حدث، وجد نفسه على الضفة الأخرى من العالم، بعيداً عن صديق عمره، عندما كانت كافة التحولات تغري بالسطوع. لذلك كان لابد له أن يبتعد عنه، وأن يفصل روحه عن كل ما حلما فيه منذ الطفولة، وهما يلعبان مع دلاّ، لعبة الساحر الشرير، والأمير المسحور.

twitter @mjanen٢٣

كان علي حسن قد بنى، بعد أن صار ضابطاً كبيراً، قرية خاصة به وبأهله داخل قريته الأصلية. وضم إلى ملكية عائلته الكثير من الأراضي المحيطة ببيت أهله القديم الذي رفض أن يهدمه، أو أن يقوم بتجديد بنائه وأثاثه، كي يظل شاهداً أمامه على حياته الماضية، فتركه على حاله. وإلى جانبه بنى بيته الخاص المؤلف من ثلاثة طوابق تعادل في ارتفاعها ستة طوابق من البناء العادي، وتعلو سطحها حجارة القرميد الأحمر، وتحيط بها أشجار النخيل التي جلبها خصيصاً من الخارج ليزيّن بها الفيلا، وأحاطها بسور من الحجر الأبيض، واشترى لأخوته الأرض التي بجانبها، وبنى كل منهم بناءً جميلاً. وأيٌّ من هذه الأبنية لم يكن يتجاوز ارتفاع النصف الذي تشكله فيلا علي حسن، ولايقترب من روعتها. فقد جلب علي مهندس ديكور خاصاً من لبنان، قيل له إنه المنفذ للعديد من قصور آل أرسلان في جبل لبنان، وإنه من قام بتخطيط أحد القصور المرتفعة في إمارة موناكو، ولكن اسمه بقي سراً على الجميع. وعندما أنهى المهندس البيت، ظهر شبيهاً بحلوى الأطفال المزينة بالشوكولا والكريما، وكان كل شيء فيه مرسوماً بعناية، من مفاتيح الأبواب، حتى غرفة الحارس، ومن ألوان الزهور وأنواعها المختلفة والنباتات العملاقة التي أوصى بها من البرازيل والأرجنتين، إلى طيوره الغريبة، وأحواض السمك المنتشرة بين الغرف، والتي تبدو كبحر صغير، وسط قطع الحلوى تلك. وفي الطابق السفلي كان هناك، باب حديدي، يفضي إلى درج حلزوني في غرفة المطبخ، ينتهي بقبو واسع، قبو مظلم، ومنفصل عن الوجود. كان يقوم في هذا القبو بتنفيذ أفكاره، وصناعة الأيام القادمة للآخرين، بكل هدوء وانتباه، ويحاول مراراً، وهو يخلو مع وحدته، أن يعيد هدوء روحه، ويمنع قلبه من

twitter @mjanen٢٣

الصراخ عليه، هو الذي حمل الموت لمن حوله، لكنه لم يقدر على الألم الذي صنعه لرفيق عمره، ولم يقدر الا أن يكون الأقوى.

كان القبو ذا زوايا مختلفة، ولا يضاء إلا بالشموع بناءً على رغبته. الشموع العملاقة ذات اللون العاجي، والتي تنتصب بين مكان وآخر كأعمدة خشبية، والشخص الوحيد المخول باشعالها هو علي حسن نفسه. كان جدار القبو مرصوفاً، على امتداد عشرين متراً، بكل أنواع النبيذ الموصي به من كافة أنحاء المعمورة. رفوف خشبية، مصنوعة بدقة، حيث لكل زجاجة بيتها الخاص: زجاجة للأعلى، وأخرى للأسفل، تختلف أحجامها الناتئة عن الجدران. وكانت تبدو مثل عرائس مصفوفة بشكل حلزوني. ويستطيع الواقف أمامها معرفة نوع النبيذ الذي سيختاره، دون أن يمد يده نحو الزجاجة. وكان هذا المكان هو الأمان الحقيقي الذي يبحث عنه، خاصة في زاويته، بعد صفوف الرفوف الخشبية، لأن العشرين متراً تشكل في نهايتها امتدادا للرفوف الخشبية على شكل دائرة تشبه وريقات وردة مفتوحة. كانت وريقات عملاقة تكفي للأنواع المختلفة من المشروبات الغريبة التي، شكلت فكرة اقتنائها هوسا لديه. كذلك وضع مكتباً خشبياً أثرياً اشتراه خلال إحدى رحلاته إلى إيطاليا، وإلى جانبه شمعدان انكليزي من الطراز الفيكتوري الرفيع، غريب أيضاً. كان يقوم على قاعدة برونزية ملفوفة بالأجساد العارية التي تتسلق صاعدة، صارخة، فاغرة الأفواه، وملامح الذعر بادية عليها، ونساء عاريات مشدودات نحو الأعلى، يتطلعن نحو الاله. كانت تلك التماثيل تشبه مشهداً من "جحيم" دانتي. وقبل أن تتفرع ستة أغصان، هي التي ستوضع فوقها الشموع، ثمة وجه لرجل ملتح، حاد الملامح، ينظر بهدوء وعظمة إلى تلك الأجساد المعذبة. كان يشبه إلى حد كبير وجه تمثال للاسكندر المقدوني. وإضافة إلى عمق القبو، كسا علي حسن الجدران بالاسفنج والخشب، وأحاط زاويتي ركن المكتب بمرآة تصل السقف بالأرض. كانت مرآته تعكس له صورته كيفما تحرك، وتجعله يرى كافة زوايا القبو، وهو جالس وراء طاولته. وإلى جانب

twitter @mjanen٢٣

المكتب، أريكتا جلد بلون نبيذي قاتم، تتخللهما طاولة بلورية، ترتمي حولها الطنافس الغريبة. وكان القبو مغطى بسجادتين كبيرتين، قدمتا له هدية من ايران، مزركشتين بألوان يطغى عليها الأحمر والبني. وعلى يمين الآرائك، كان هناك سرير صغير بلا حواف، قوائمه مصنوعة من الاسمنت، وفوقه فراش مائي ووسادة بيضاء.

كان المكان شبه غائب عن العالم، خاصة مع الرائحة المختلطة لأنواع المشروبات والنبيذ المخزّن منذ سنوات. لكنه المكان الوحيد الذي حلم بالطيران إليه، بينما كانت رهام تنظر بحدة إلى عينيه وهو يهرب من رجاله، صارخاً بهم أن يسرعوا لأن إكرام الميت دفنه، ولاعناً الساعة التي ولدتهم فيها أمهاتهم.

twitter @mjanen٢٣

الغرفة الصغيرة التي كان علي حسن يدور أمامها، من الممر الضيق، حتى أسفل الدرج هرباً من نظرات رهام، كانت ماتزال مقفلة. ولم يستطع حتى الآن، رغم ضرورة إلقاء النظرة الأخيرة على رفيقه، أن يتجاوز المنحنى المفضي إليها. كان يلف حول نفسه هارباً من وجوده. ولو حاول أن يفتح الباب، لما استطاع ذلك، لأن دلاّ قبل أن تستلقي في السرير النحاسي، أغلقته بالمزلاج الحديدي. ورهام التي أرادت العودة إلى الغرفة، كانت لاتشعر بقدميها، ولم تستطع أن تحرك لسانها داخل حلقها الجاف، فازدادت نظراتها فزعاً وجنوناً. لم يبق أمامها سوى الرجل الذي كانت تحلم برؤيته ميتاً، يقف أمام غرفة رجل آخر ميت حلمت بعودته للحياة. الآن يدور أمامها، وهي لاتستطيع حراكاً. كلاهما كانا مرميين كفأرين في مصيدة، في المنحنى الذي يصنع زاوية على شكل حرف (ل). رهام في نهاية الحرف، وهو في أوله المفضي إلى الغرفة، يمشي متعثراً، ويصل إلى نهاية الحرف، حيث رهام تستلقي على أريكة من خشب السنديان، يعرفها تماماً ويحفظها. إنها نفس الأريكة التي قضى هو وحيدر طفولتهما في القفز فوقها. وهي نفس الأريكة التي قبّل عليها سحر النصور للمرة الأولى، وأصيبت بإغماء، وبقيت بين ذراعيه حتى استفاقت بعد دقائق. إنه يحفظ هذا الممر، لأنه شاهد على جنونه وعشقه الذي لم يعرف أن يضع له حداً. هذا الممر كان يربكه، ورهام تحاصره، ولم يبق أمامه سوى الهرب من المكان إلى قبوه ونبيذه. نادى رجاله، فطلع عليه واحد منهم كمارد، طلب منه أن يأتيه بسيجار، فاختفى لدقائق وعاد ليشعله لمعلمه، ثم اختفى كما ظهر. كان يعض سيجاره ولا ينفث دخانه، بل يتركه في صدره. شعر بالظمأ لجرعة من الويسكي، لكن صوته أيضاً بدأ ينطفئ، وهو يحدق في

twitter @mjanen٢٣

الأريكة. كان يجلس، ذلك اليوم البعيد، على نفس الأريكة. هل كان هذا منذ خمس وثلاثين سنة؟ هل حدث أم لم يحدث ؟ أغمض عينيه، لكن المشهد عاوده، وكأنه اللحظة. كان بانتظار عودة حيدر من الصيد، فصديقه كان مولعاً بالتسكع بين الأحراش والغابات، وحيداً. وكان قد صادف زوجته مرتين، المرة الأولى في ليلة العرس، طلعت عليه وعلى المدعوين كإلهة، تلبس فستانها الأبيض الذي يجر وراءه ذيلاً طويلاً من الدانتيلا، وترمي بعضا من خصلات شعرها الخرنوبي المتموج على ظهرها، وتترك الجزء الباقي منه يصل حتى ركبتيها. وكان حيدر فرش لها الأرض، من منزل والدها حتى القصر، سجاداً أحمر بعرض مترين، مشت عليه حافية. نذرت لها أمها أن تمشي في يوم عرسها حافية على قدميها من بيت أبيها حتى بيت عريسها، بعد أن سقطت ذات مرة عن صهوة حصانها، وغابت عن الوعي خمسة أيام. لم تترك أمها مزاراً إلا ذهبت إليه، وحلفت بأن ابنتها إذا قامت من غيبوبتها أن تمشي حافية حتى بيتها الجديد، يوم عرسها.

قبل أن تصل القصر، كانت سحر شعرت بالتعب، فحملها حيدر بين ذراعيه، كطفلة. وبدل أن يكون محرجاً من الناس المصطفين على جانبي السجادة، والذين كانوا منذهلين بجمال العروس، بدأ يغني بصوت مرتفع، ويقهقه وهو يذوب مع قطعة السكر التي يحملها. كان يمشي مترنحا بخفة، مدفوعا بقوة لامرئية، والناس مذهولون، وهو بالكاد يلامس الأرض كأنه يتهادى على الماء.

في تلك اللحظة، عندما اقترب علي حسن من صديقه واخترق المدعوين وطبع على جبينه قبلة، هبت رائحتها القاتلة. في ذلك الزمن التعيس بدأت اللعنة تسمم حياة الثلاثة، وتجري في عروقهم، لحظة نظر علي حسن في عيني العروس الشهلاوين. كانت لحظة مرت. لحظة لم تتته أبداً. كانت الأبدية. ولم يستطع علي حسن، رغم مغامراته النسائية، وقسوته، أن يمحو من ذاكرته تلك النظرة. كانت تراوده حتى هذه اللحظة، وهو محبوس داخل نفسه ينتظر وداع

twitter @mjanen٢٣

جثمان حيدر. كانت تهب عليه تلك النظرات، وهو بين ذراعي سحر، بعد أن نالها كما اشتهى طوال عمره. كانت اللعنة التي لم يستطع مقاومتها. عينان شهلاوان مسترخيتان بعذوبة ودائما نديتان حد البكاء.

تابع حيدر طريقه، وبقي علي حسن واقفاً، جامداً، وحيداً على مسرح مضاء ببقعة ضوء شاحبة.

المرة الثانية لجريان السم في عروقه، واكتمال ولهه وجنونه وشهوته، حدثت عندما ذهبت سحر إلى دمشق بعد عرسها بأشهر. وكانت تستعد لتأسيس بيتها الذي ستسكنه في العاصمة. كانت تركب إلى جوار حيدر في السيارة، وتغطي عينيها بنظارات سوداء بإطار أبيض، وترتدي بلوزة بيضاء وبنطالاً مخططاً بالأبيض والأسود. يستطيع حتى الآن أن يتذكرها، تماماً، فقد صادفهما، في شوارع دمشق وهو منهمك في اشغاله التي أخذته من حيدر، هو ورفاقه، بعد ان كانوا يجهدون في تثبيت سلطة حزبهم، ويسعون لحل المشكلات العالقة فيما بينهم، والتي كان حيدر بمنأى عنها.

كانت تجلس إلى جانب حيدر، وتميل برأسها ناحية علي حسن. ابتسمت له وقالت: حدثني حيدر عنك. قال: بالخير، وضحك حيدر. قالت: بالخير، وأردف حيدر: نحن في الضيعة غداً، تعال نسهر.

ولم يستطع مقاومة بذخ بهائها. كان منذ الظهيرة في القرية، وحيدر لم يعد من رحلته. وكان يجلس على نفس الأريكة التي تجلس عليها رهام الآن. المكان لم يزل على حاله، لكن ألوان الأقمشة كانت ابهى واسطع، ورائحة النظافة والترتيب تفوح من المكان.

خرجت سحر من الغرفة، واشتعل قلبه. كانت كعادتها في كامل زينتها. عيناها بنداوتهما، تغزلان بلا توقف. ترندي فستانا ورديا مزركشا بأزهار بيضاء، وتعقص شعرها الخرنوبي بدبابيس زهرية. كانت فواحة بالألق، وهو الخبير بالنساء والعارف بأدق تفاصيلهن، بدا متلعثماً، منفوخ الوجنتين، وهو يستعد ليصافحها. حملق في عينيها كأبله. وقبل أن تمد يدها البضة للترحيب

twitter @mjanen٢٣

به، كانت قطرات العرق قد بللت جبهته، وبدأت بملامسة خده. كان طافحاً بنورها. سألته عن أحواله، بعد أن جلست على الأريكة المجاورة، وأعلنت أن العشاء سيكون دجاجاً محمراً على الفحم. وبعد أن ضحكت وتمايلت، عادت بقعة النور إلى الاختفاء، وعاد وحيداً مهملاً فوق مسرح مظلم. لكنه لم يكن هذه المرة وحيداً، كانت هناك بقعة شاحبة تضيء بطلين على أريكة. كانت تنظر اليه، وعيناها مثبتتان في عينيه، وبدت رجفة خفيفة تعلو شفتيها وهي تقاوم ارتباكها أمام تلكما العينين الحادتين كحدّ خنجر، واللتين اخترقتا قلبها أيضاً إلى غير رجعة. كانت تتمدد، واصابعها المرتجفة والممسكة بعضها ببعض تتعرق، وهي تحاول تفسير الخفقان المتسارع والقاسي لقلبها الموشك على الانفجار. مرت دقائق، قبل ان يحدث ما حدث، وتبدأ لعنة الثلاثة.

كيف حدث وأن قام من مكانه، وأخذ شفتيها إلى شفتيه؟ لم يعرف. ولكن تلك القبلة جعلت سحر ترتمي بين ذراعيه فاقدة الوعي، وجعلته مدركاً للهلاك المقبل عليه. وعندما أفاقت لم ينظر في وجهها، بل تركها راكضاً نحو الخارج، مسرعاً بسيارته حتى البحر. ألقى بجسده فيه، وبقي يسبح لساعات حتى فقد القدرة على الحركة، ثم خرج وارتمى على صخور الشاطئ، مستسلماً لنوم عميق. وفي القصر، عندما افاقت سحر من حلمها، لم تصدق ماحدث. ورغم وقوفها الطويل أمام مرآتها، محدقة لوقت طويل في وجهها، ومتلمسة شفتيها بدهشة، الا ان الفرحة جعلتها تقفز كطفلة وهي تنظر من النافذة، محاولة، ايجاد طيف الرجل الذي حرك دماء جسدها، وترك حرقة غامضة تبدأ بأصابع قدميها، وتنتهي برعاش خفيف كرذاذ. ومع عودة حيدر الذي لم يسأل عن مجيء علي، ويبدو أنه نسي، بقيت سحر صامتة لأيام. ثم أعلنت لحيدر، بعد عودتهما إلى دمشق، أن علي حسن مر ذلك اليوم، واعتذر عن دعوة العشاء. ولم يعلق حيدر بحرف. كان الغضب قد بدأ يعتمل في نفسه، مما يحدث في البلاد.

الآن تعود البقعة المخيفة إلى الظهور أمامه، وتختفي سحر. تختفي أميرته،

twitter @mjanen٢٣

وتتحرك البقعة نحو رهام التي استطاعت الحراك أخيراً، وهو يدور حول نفسه، مسكوناً بروائح قبلته الأولى.

كانت رهام مترنحة، صفراء. جلست، وبحقد أشارت لـه بالخروج، وهي تصر على أسنانها. حملق فيها، وصرخ برجاله: أين المشايخ؟ افتحوا الأبواب!

twitter @mjanen٢٣

لو كانت رهام امرأة أخرى، لولولت، وفاضت دموعها، وبح صوتها. لكنها، كانت هي نفسها، وليست أي امرأة. كانت الحجر الذي عرف كيف يبقى صلباً، وكانت الروح الصعبة الامتلاك. انها ابنة سحر النصور، ابنة الفتنة والسحر، السحر الذي ازداد مع تزايد الشعر الأبيض في شعرها. ولأنها رهام العلي، الفتنة المتحركة، كانت تعتقد أنها تدوس بأقدامها الغيوم. لذلك كانت تلف علي حسن بنظرات أرعبت الرجل الذي أرعب كل من حوله. كانت تريد الانقضاض عليه، وجهاً لوجه، وأمام الناس، لأنها هي وحدها، واكثر من أي كائن آخر، ذاقت من قسوة الرجل الذي وجدته في بيتها منذ الطفولة، كحام وراع لها ولعائلتها. وهو نفسه الرجل الذي سيتحول مع مرور الأيام، إلى عدوها الوحيد، وسيكون سبباً رئيساً في تعاستها غير المنتهية. ولو أنها انتبهت في أيامها المنصرمة، عندما كانت تذوب عشقاً بين يدي ابنه، أن الرجل الملفوف حول عنقها سينتزع قلبها أمام عينيها، بكل بلادة، لحزّت رقبته بسكين بارد، ولما اهتزت شعرة في رأسها، وهي ترى رأسه المتدحرج بين ساقيها. على الأقل هذا ما أخبرت به أمها عشية عرفت بسفر عشيقها المفاجئ، حبيبها الوحيد والأخير الذي امتص قلبها حتى اليباس، وبكى تحت قدميها حدّ الصراخ، وهو يعلن لها بكل صراحة أن والده سيقتلهما بين عشية وضحاها. وكانت رهام تعرف أن علي حسن لا يقول كلمة، ويتراجع عنها، حتى لو كان هذا العاشق ابنه، والعاشقة ابنة حيدر العلي وسحر النصور. والآن لا تستطيع أن تغفر له ما مضى رغم الموت، حنّان القلوب.

كانت رهام تعيش مع أمها في بيت أنيق ذي طابقين، من الحجر الأبيض. هو نفسه بيت والدها الذي سكنه في الستينات، عندما كان من النادر، أن

twitter @mjanen٢٣

تسكن عائلة قادمة من القرية في منطقة المالكي في دمشق، لأن الكثير من قاطنيها كانوا يتندرون عليهم لكونهم من أولاد الفلاحين، ويريدون السكن بين ناس المدن. لكن ثروته الضخمة كانت كفيلة بشراء بيت كهذا، خاصة أن رغبات سحر النصور كانت أمراً ونهياً. وعندما انتقلت سحر للعيش في البيت الجديد، قامت بتجديده، وتأثيثه حتى تحول إلى قصر حقيقي. وحتى اليوم، لم تغير فيه الكثير سوى الأثاث، وورق الجدران من وقت إلى آخر، الأمر الذي جعله أشبه بقلعة قديمة في جوار البيوت الملاصقة له، والتي هدم الكثير منها، وبنيت مكانها عمارات. بعد أن ترك حيدر العاصمة، وبقيت سحر مع طفلتها، كان هناك زمن فاصل، زمن صعب ومقيت، بين الأيام الأولى لرحيل حيدر، وقدرة سحر النصور على تَعُّود الحياة الجديدة كإمرأة وحيدة في مدينة لم تعرف عنها الكثير. المدينة التي كانت تستعد للتحول إلى أبنية حجرية، متداعية وشوارع ضيقة. المدينة التي كانت أقدم مدن العالم، وتحولت بعد ذلك بعشرات السنين إلى أكثر مدن العالم خراباً. دمشق التي هرب منها حيدر، وأمسك بها علي حسن.

بعد ذلك، ولأن الزمن كفيل بتحويل المصائب إلى ذكريات وصور عتيقة، كان مقدراً للحياة ان تسير. سحر العاشقة. ورهام الطفلة التي وجدت نفسها وحيدة، بعيدا عن حضن دافئ ظلت تذكره بعد ذلك بسنوات، عندما كبرت وانتهى حلمها. أيقنت أن كل ما حولها سراب، ولم يبق لها الا ذكريات الحضن الجميل، والعينين الصافيتين. ولو قدّر أن تركض الأيام بوجود الأب، لاختلفت الأمور كثيراً، على الأقل بالنسبة إلى سحر النصور. لكن القدر كان يسير وفق لعنتها التي ستتكرر طويلاً، وكثيراً من زمن إلى آخر. كان يلزم كل هذا الحزن للبشر حتى تكتمل اللعنات. كان يلزم حيدر الهروب، وسحر البقاء، والطفلةَ اللهو والمرح الكثيران، كما يحدث في كل الحكايات. واليوم تحديدا، وفي بداية قرن جديد، وعندما كان التراب يبدأ بالتحول إلى طينه الدموي، والعالم كله ينتظر أن تحدث معجزة، وتتوقف حرائق البلاد المجاورة

twitter @mjanen٢٣

للبحر للمتوسط، والمجاورة للنفط... اليوم تحديداً، ورهام تهذي بكوابيسها على حافة سرير بارد، وسحر النصور تنتظر حبيبها، بأناقتها، على شرفة انكليزية... اليوم وفي الجنازة المنتظرة لحيدر العلي، كانت اللعنة. كانت نظرات رهام الحادة التي تجلد علي حسن. نظرات حاقدة جعلت قلبه مركزاً لوخز حاد وعميق، عذبه طويلاً، وأراد الهروب منه على الدوام. كان يتأملها، ويريد الهرب من الماضي الذي عاد إليه. وكان يتمنى في قرارة نفسه لو استطاع قتل هذه المرأة اللعينة. لكنه كان على الهاوية وهو يتذكر إثمه الكبير، ويستحضر في ذاكرته الانتفاخ الدائم الذي ظلّ يصيب ابنه حالما يتواجد مع رهام. لايستطيع أن ينسى لقاءا تهما الحميمة تلك، ولا يستطيع أن ينسى أن هذه المرأة الشيطانة التي تقتله بنظراتها الآن، قد تكون خرجت من صلبه يوماً ما. الإثم يلاحقه من عينيها. كان عليه قتلها في رحم أمها، قبل أن تتكون وتتحول إلى لعنة عليه وعلى سحر. كان يتنهد، ورهام أمامه تتذكر طفولتها في بيتها الحجري.

الطفولة المدفونة بعيداً في عتمة القلب، هناك في مكان قصي، عندما جرفت عذاباتها ذكريات الفرح والحنين، وجعلتها تنسى أنها عاشت فردوساً مفقوداً لن يعود أبداً. كانت رهام كأي أميرة ترفل بالهناء، وتتألق ببهاء العز. ومنذ طفولتها، كانت تلمح الدهشة واللمعان في عيون الناس أمام جمالها، فكانوا ينقادون لها كساحرة تقود جيشاً من ذرات الضوء. وبعد أن كبرت ازدادت فتنتها بنفسها، وصارت ترى نفسها في عيون هؤلاء الناس أكثر ما تراها بعينيها. وانقلب سحرها على نفسها، وضاع فردوسها المفقود، وخسرت كل شيء، ولم يبق أمامها سوى جلدها اليابس من الأسى. كان فادي حسن هو مَن حوّل قلبها إلى حطام، وطعن كبرياءها مرة واحدة لا غير، لكنها كافية لقتلها. كانت عزيزة النفس، وتحب عزتها أكثر من نفسها. ولولا عودة حيدر العلي إلى حياتها، لما أمكن لهذه العزة أن تشعرها أنها خلقت من جديد. وأن فادي ابن ابيه لم يكن جديراً بها.

twitter @mjanen٢٣

في الأيام الخوالي، وعندما كان العاشقان الكبيران، سحر النصور وعلي حسن، يذوبان في الغرام وكل منهما يغرف من الآخر اشتهاء لاينتهي، ويتجدد لحظة انتهائه. كان الولدان الصغيران يكبران. بعد أن ترك حيدر دمشق، وصارت رهام تفتقد حضوره الحاني، وجدت الأم في وجود فادي منجاة لابنتها من الوحدة، واحاطتها برعاية لم تحظ بها طفلة مثلها. كانت تأتي لها بأساتذة اللغات إلى البيت، اللغة الفرنسية واللغة الانكليزية، وأستاذ الموسيقى. وعندما كبرت قليلا، استعانت على تربيتها باحدى صديقاتها الشاميات التي كانت تحب سحر وتقدرها كثيرا، وهي التي جعلتها تدخل بيوت الأسر الارستقراطية في دمشق. كذلك جلبت مربية قامت بتعليم رهام كل فنون اللباقة والإتكيت، وجعلتها تتصرف كأميرة في بلاط ملكي. امتد هذا على سنوات عدة، حتى كبرت رهام وصارت تضيق ذرعا بتعاليم معلمتها العانس.

لكن وكل ما احاطت به سحر النصور ابنتها من مظاهر العناية لم يمنع دخول فادي إلى قلبها. وعلى مدار سنوات قليلة تكثف عشقها، واستقر عميقا في روحها. تكشف قطرة قطرة، ولحظة لحظة، ويوماً بيوم، وبقي سنوات مدفوناً تحت قشرة واهية من الخوف. كانا في البداية غير مدركين سر التعلق الشديد بين روحيهما. كانا طفلين لا يحلمان إلا باللعب، وبدأ حبهما بلعبة. بدأ بقصة عروس وعريس كما يفعل اغلب الأطفال، ولكنه علمها بعد ذلك كل فنون الحب والألم كما ستكتشف بعد وقت طويل. فادي إبن علي حسن، الذي تعلمت معه كيف تقبّل بشفتين صغيرتين وجنة طفل لم يتجاوز العاشرة. كانت رهام عاشقة منذ أن تعلمت الحكي، تقبل حبيبها منذ سن العاشرة، ويمارسان الحب كجروين عابثين، من أول مراهقتهما. ولم يعرف الأب والأم بتلك اللقاءات الحميمية، ولزمهما الوقت الطويل لينتبها إلى غرام الولدين المخيف. حدث هذا عندما فاجأ الوالدان، العاشقان الكبيران، العاشقين الصغيرين، في البيت. كانا مرتبكين، وبنطال فادي منفوخ، بشكل واضح ومضحك، ووجهه يشبه كرة من الدم. أما رهام فقد استأذنت بالدخول إلى

twitter @mjanen٢٣

الحمام. كانت تلك المرة كافية ليتأكد الوالدان أن بين هذين الصغيرين ما يوجب عزلهما عن بعضهما، ونسيان أنهما ما يزالان طفلين. كان علي حسن ينظر بدهشة إلى عضو ابنه المنفوخ بين فخذيه. وكان هذا المنظر كافياً لتقوم القيامة، وتتحول الأرض إلى جحيم. صار واضحاً لسحر النصور وعلي حسن أن هذين الصغيرين على هاوية غرام لا نهاية لها، وهما يلمحان اللمعان والإرباكات، وأخيراً الانتفاخ المخجل لعضو ابنه.

المياه السوداء التي غطت عينيهما لم تتوقف، بعد ان خرج فادي، ودخلت رهام غرفتها. طقطقة عظامهما التي فرقعت وهما يجلسان مبهوتين، كعجوزين منهكين أضناهما العيش، كانت تُسمع كأنها ضربات عصا. كانا ينظران إلى بعضهما، وكأنهما يكتشفان وجهين غريبين، كل منهما يحدق في وجه الآخر متسائلا. وكان الوقت ليلا، وهما عائدان من بيروت، مُنتشيين بسهرة عارمة، مع اصدقائهما. تبخرت نشوة السكر، ونشفا في أقل من دقيقة.

كان الخوف يجري في دمائهما، وكان كامناً في أعماقهما. كل منهما يريد اخفاءه عن الأخر، ولكنه صار الأن أكثر وضوحاً.

لماذا لم يفكرا بهذا الأمر من قبل؟

لماذا؟

ألم تلمّح له سحر يوماً، ومنذ زمن بعيد بهذا الأمر؟ ألم تقل له، عندما انتفخ بطنها قليلا، إن الجنين في احشائها قد يكون من صلبه؟ لقد قالت له ذلك منذ زمن بعيد، ولم يهتم للأمر. لكنه الآن، وبعد أن رأى ما رأى، انكمش على نفسه. انخرطت سحر في البكاء، ولم تتوقف عنه بعد ذلك لفترة طويلة، حتى رحيل فادي عن البلاد.

كانت سحر تبكي ليل نهار، وهي تؤكد لعلي حسن أنها غير متأكدة إن كانت رهام ابنته حقاً، أو أنها ربما إبنة حيدر الفعلية. ولكن نسبة الشك التي كانا يصلان إليها، وهما عاريان مستلقيان على سرير عريض كحطبتين، كانت نسبة متعادلة بين أن تكون رهام ابنة أحدهما بالتأكيد. في تلك

twitter @mjanen٢٣

الأوقات صرخ علي حسن، وهو يؤنب سحر للمرة الأولى والأخيرة في حياته، فقد اعتاد دائما أن يخفت صوته أمامها، ولم يغير عادته هذه منذ أول قبلة لهما حتى هذه اللحظة، وهي تنتظره في لندن بكامل شغفها وفتنتها. لكنه حينها أنّبها، وصرخ عالياً وهو يهذي كمجنون، عارياً ومنقلباً على نفسه، ولاعناً أمه التي ولدته، ولاعناً كل من حوله. وهو إن كان دُعر من فكرة أبوته لرهام، فقد بدأ ينكمش على نفسه، يريد أن يكسر عظام رقبته بنفسه، متمنياً أن يكون ما يسمعه كابوساً سيستيقظ منه عاجلاً. وسحر لم تكن بذعرها، وفكرة الحرام التي تتخيلها، قادرة على التفوه بحرف. كانت أكثر ذعراً منه، وهي تتخيل أن ما يحدث هو عقاب إلهي على ما فعلته هي وعلي بحيدر.

أما العاشقان الصغيران، فكانا منذهلين بما يجري حولهما، وغير عابئين بشيء، عدا الاندفاع الحار في دمائهما، الذي كان يحولهما إلى حيوانين بريين صغيرين.

وجدا نفسيهما، منذ الطفولة، مزروعين على القدر نفسه. يمارسان على أبويهما مختلف أنواع التعذيب، وفنون الإغاظة واللهفة والسخرية على عقليهما الخائفين من شيء غير واضح. وكان ذلك منذ زمن، قبل أن يكبرا، ويتحولا إلى بشريين يشبهان بني جنسهما. كانا شقيين، يرميان بمداعباتهما الخفيفة أينما اتجها. ولأنهما كانا مدللين، ويعتقدان أن الحياة ليست أكثر من هذه المداعبات، فقد استمرا فيها عندما كبرا، وصارت جزءاً من سلوك لم يفارقهما حتى انفصلا. ورغم أن رهام عاشت مع أمها، وفادي كان يعيش مع اخوته وأبيه وأمه، إلا أنه بات من الصعب بعد مرور الزمن الطويل حساب عدد الأيام التي قضاها في بيت والده. ومن المستحيل أن يكون مر يوم من الأيام دون أن يلعب ويتشقلب الصغيران مع بعضهما. ولعل تأخر علي حسن في اكتشاف الانتفاخ الغريب الذي يصيب ابنه بين فخذيه، كان مرده إلى المسؤوليات الكثيرة في عمله، وإلى انشغاله الدائم بالشأن العام، وبقضايا الناس من حوله، كما كان يصرح لمن حوله بتعب وأرق. حتى إن سحر كانت تهدده دائماً بأنها

twitter @mjanen٢٣

ستهجره إذا لم يخصص لها المزيد من الوقت. وهذا الانتفاخ الذي كان فرحاً بالنسبة للعاشقين الصغيرين، ولعنة على العاشقين الكبيرين، تحول في نهاية الأمر إلى كابوس. فرغم اللقاءات الحميمة التي جمعت الصغيرين، إلا أن مشكلة الانتفاخ لم تنته. أينما تتواجد رهام كان فادي يهرب، وخاصة في الأماكن العامة. وطوال زمن وجودها قربه، أو حتى اذا لمحها، كان ينتفخ، ويحترق رغبة بها. وعندما حاول أن يعالج الأمر، أصيب بإحباط أكبر.

في إحدى المرات، وبدل أن يتجها إلى الجامعة، قررا حل هذه المشكلة التي حرمتهما من حضور الحفلات المشتركة، والرحلات البحرية بين اليونان وقبرص ومصر، وجعلتهما وحيدين تماماً. في ذلك اليوم اتجها إلى بيتهما السري. مارسا الحب عشرات المرات المتواصلة حتى أصيبا بالإنهاك، ولم يعد بإمكانهما الحراك. كانا يفعلان ذلك كأن الموت قادم إلى لحظتهما تلك، وعندما ودعت رهام فادي طالبة منه أن يلحق بها إلى البيت، كان شبه غائب عن الوعي. ولكنه بعد ساعة واحدة عندما دخل بيتها، وظهرت من باب جانبي أمامه، بكامل تعبها، عاوده الانتفاخ، وشعر أنه يريد البقاء عندها إلى الأبد. وبدل أن يتحول الأمر إلى مأساة، أطلقت رهام ضحكة عالية، وأطلق فادي أمامها ساقيه للريح. اختفى عن ناظريها عدة أيام لم ينم خلالها إلا ساعات قليلة. وقام بمضاجعة أجمل الفتيات اللواتي كن يتحلقن حوله، حتى لم يستطع حراكاً، وبقي طريح الفراش يومين متتالين. في الوقت ذاته أكلت الحمى جسد رهام، وأغرقته في العرق الغزير، عندما علمت باختفائه طيلة ايام. ولم تعرف انه، منذ تلك اللحظة، بدأ يخونها.

الأب والأم تحولا إلى مهووسين، وانقلبت الدنيا عاليها أسفلها. انتهت سعادة رهام منذ تلك اللحظات، ولم تعد إلى ما كانت عليه. فقط في تلك اللحظات التي جمعتها لاحقاً مع حيدر العلي، في غرفته الزرقاء، عاد إليها بعض من مجد تلك السعادة، هو المجد نفسه الذي دفع بسحر النصور لتركب سيارتها المجنونة في تلك الليلة، وتقرر لقاء حيدر بعد طول عمر.

twitter @mjanen٢٣

كان لزاماً على العاشقين الصغيرين، بعد فوران علي حسن، ممارسة كافة أنواع التخفي عن أعينه. ولم يكن ذلك بالأمر الهين، خاصة أن عيونه الكثيرة كانت مبثوثة في كل مكان. لكن الحيوانين الصغيرين تحايلا عليه بالقدر المستطاع، والتقيا رغماً عنه، ورغم كل الاجراءات التي أصدرها لاحقاً. امتنع عن المجيء إلى بيت سحر، وصار يلتقيها في مكان سري، معذباً ومكرهاً. ومنع عائلته بمن فيهم أبناؤه وزوجته من الاتصال بعائلة رهام دون أن يفسر للطرفين مايحدث، وراقب تصرفات ابنه، وأخذ سيارته منه، وعين عوضاً عن ذلك سائقاً خاصاً، ومرافقاً مخلصاً من النوع المدرب جيداً على كتم الأسرار وحفظ الأمور العائلية. لكن رهام كانت تجد طريقها دائماً إلى دمها، ولحم جسدها، فكانا يهربان إلى بيروت متنكرين، بمساعدة بعض الأصدقاء، ويلتقيان لساعات ثم يعودان. ولم تنطل هذه الحيل على رجال علي حسن، واكتشف الأمر.

كان من اجمل العادات التي لم تنسها رهام يوما، اعتياد العاشقين ان يستقل كل منهما سيارته ويتسابقان على طريق دمشق بيروت الجديد. يطيران، وبعد أقل من ساعتين يتشقلبان في الفندق الذي اعتادا النزول فيه. وهذا السباق، والسرعة الجنونية للوصول إلى مخدعهما السري، كانا يشكلان بداية الجنون والشبق بينهما. ولم يكن أي من موظفي الجمارك على الحدود السورية واللبنانية يجرؤ على اعتراضهما. كانوا يعرفون من يكون فادي، وهذا وحده كاف لصمتهم المطبق. ولقاءاتهما البيروتية كانت أكثر استعاراً من أي لقاءات أخرى، خاصة بعد السباق المجنون بينهما.

الأمور اختلفت، بعد تضييق علي حسن الخناق عليهما. صارا يركبان سيارات الأجرة كأي مسافرين، وبهويات مختلفة، حتى حدثت تلك الحادثة التي جعلت فادي يدرك أن في الأمر شيئا خطيراً، وجعلته يفكر للمرة الأولى بهجر حبيبته. كانت ثقته في والده مطلقة، وهو يعرف أن ما يفعله على الدوام هو عين الصواب. وهذا بالتحديد ما جعل من علي حسن مثلاً أعلى لابنه الذي

twitter @mjanen٢٣

اراد ان يكون سرّ ابيه.

كانت تلك المرة الحزينة هي الأخيرة لهما على تلك الطريق، عندما لم يستطع فادي الإفلات من قبضة الحارس المرافق له. حدث مراراً أنه مارس بعض السلطة على المرافقين المخصصين له، ولكن الحال تبدلت حين صدرت لأوامر المطلقة لهؤلاء المرافقين بإطاعة أوامر علي حسن لا غير. وصار فادي تحت عيونهم، حتى اثناء ذهابه إلى الجامعة. وذات مرة ظنّ أنه استطاع مغافلة الحارس الشخصي، وايهامه أنه دخل لحضور المحاضرة، ثم هرب بعدها. ولم يكن يعر ف أن حارساً آخر كان ينتظره على باب الجامعة الرئيسي، وأنه لحق به، ورآه عندما التقى برهام في قلب المدينة. ولم تمض دقائق حتى كان الخبر قد وصل إلى مسمع الأب، الذي طلب متابعة المراقبة. كان العاشقان قد استقلا سيارة أجرة، وطلبا من السائق أن يكونا وحدهما، وقالا إنهما سيدفعان باقي أجرة الركاب، طالبين منه الاسراع في الانطلاق. وانطلقت السيارة على طريق بيروت دمشق، ولكنها عندما وصلت منطقة "جديدة يابوس" قبل الحدود السورية اللبنانية، احاطت بها سيارات سوداء، وقفز منها رجال مسلحون، اقتادوا العاشقين إلى سيارة مرسيدس سوداء، وتركوا السائق مندهشاً، خائفاً كفأر. لكنه حمد ربه أنه بقي على قيد الحياة، وأن هذين المُطاردين قد دفعا له قبل ان يحدث ما حدث.

كانت تلك الحادثة، بداية الأسى للصبية الفاتنة التي ما انفكت عن البكاء لأيام طويلة، بعد أن أخذها الرجال المسلحون إلى أمها، بكل أدب. ورغم أنها عضتهم، وسبّتهم وسبّت امهاتهم، وبصقت في وجوههم، إلا أنهم لم يحركوا ساكنا لأن أوامر المعلم تقضي بايصال الصبية إلى بيتها، دون التعرض لها. وهم جميعا يعرفون، من تكون أمّ هذه الصبية.

بعد أيام من البكاء والصمت، تعاركت رهام وأمها لأيام عدة. لم تترك الواحدة منهن أي لقب قبيح إلا نعتت الأخرى به. وكانت المصيبة في الصمت الذي لزمه فادي بعد تلك الحادثة، وهو ما جعل رهام على حافة الجنون.

twitter @mjanen٢٣

أيقن فادي أنه سيترك رهام، شاء أم أبى. فهو يعرف والده، ولكن ما يعذبه كان الانقلاب المفاجئ في سلوك والده، والذي لم يفهمه أبداً، رغم محاولاته الكثيرة للمس حقيقة ما يقوم به. وما كان يهمه في نهاية الأمر، رغم ألمه لفقدان حبيبته، أن يكون الشخص المناسب الذي أراده علي حسن. وهو لم يكن يبالي بكل ما يحيط به، ولم يكن دفاعه عن حبه نوعاً من التحدي لوالده، فقد كان معجباً به، ويرى أنه يصنع الأفضل من أجل مستقبله. وكان يريد أن يمتد بمجد ابيه، إلى ابعد ما تخيله الأب نفسه. ومنذ استطاع أن يعي ما يحدث حوله، من هو؟ وابن من؟ من هم الأعداء؟ من الأصدقاء؟ كيف سيسير، وحده عندما يتركه والده؟ كان يفكر في تلك السنوات البعيدة، عندما كان والده ما يزال في مجده، وقبل أن يصبح ما هو عليه الأن، ينتظر ان ينهي مهمته، ويستريح. كان في تلك الأزمنة يفكر بالموقع الذي سيشغله، لأنه لم يحلم أن يكون ضابطاً. ولأنه الصبي الوحيد لوالده بين ست بنات أنجبتهم أمه تباعاً، فقد تربى على أنه المفضل دائماً، والمدلل الذي يفعل ما يشاء. ولكن مشيئته كانت محدودة دوماً بما أراده الأب. وهو يعرف أين حدوده، ومتى يستطيع تجاوزها. ومن قسمات وجه أبيه، يعرف إن كان يستطيع تجاوز هذه الحدود، لذلك عندما قرر والده أن عليه السفر، انصاع لأوامره وطلب فقط ان يترك له حرية اختيار ما يفعل خارج البلاد.

و كان علي حسن يريد ان يغير رائحة الخطيئة والحرام، التي صارت تلاحقه في أحلامه.

قرر فادي دراسة العلوم السياسية، ناظرا بعينين ثاقبتين إلى مستقبله القريب، الذي كان والده يعده على نار هادئة. لكن رهام بالتحديد كانت تشكل بالنسبة إليه ضعفاً شديداً لايستطيع تجاوزه، حتى لو أراد ذلك. لذلك، وبعد أن صار يلتقيها مرات، كان يخونها باستمرار، ويحاول جاهداً إقناع نفسه بالابتعاد عنها. وهو السبب نفسه الذي دفعه لتغيير حياته كلها عندما قرر والده أنه سيسافر إلى لندن. والسبب نفسه ايضا الذي جعله يتخلى عنها ذات

twitter @mjanen٢٣

يوم، ويكتفي بإرسال الدموع الماسية في كيس مخملي أحمر إلى بيتها. كانت رهام قد اعتادت البكاء طويلاً بعد ليالي الحرمان التي وجدت نفسها فيها، فجأة، ودون أن يتاح لها الوقت لتدرك الجنة التي سقطت منها إلى الأرض. كانت تبكي في حضن عشيقها، شاكية والده، ومبدية دهشتها حيال ما يحدث. كانت تريد ان تفهم ما حدث فجأة واي ذنب اقترفته حتى يكنّ لها علي حسن هذا الكم الهائل من الكراهية. وكان فادي ممزقا، بين قلبه ومجده القادم، وبين أن يصدق أن ما يحدث له أمر حقيقي أم كابوساً. لذلك كان رقيقا معها، وكان يحضنها، ويعرف أنه يودعها، ويروي ظمأه الذي لن يرتوي طوال حياته. وكان يطلب من مرافقه الخاص، المرافق الذي رثى لحالهما وخان معلمه مع العاشقين، أن يحصي عدد دموعها وهي مستلقية في حضنه. فعلها في المرة الأولى دون ان يدرك ما قاله، ولكن المرافق، عندما جاءه بعد يومين بحبات ماس تشبه دموع البشر، طار عقله من الفرح. وفي ثاني لقاء لهما بعد حفلة الألماس تلك، طلب منها ان تحتفظ بتلك الدموع، وقال لها ان دموعها تساوي كنوز العالم كلها. وصار في كل مرة، وعندما تفرق عينا حبيبته بالدموع، يعود بكيس ماس مخملي احمر. وعندما ترى تلك الماسات تصاب بالدهشة، وهي تقبل أطراف شفتيه وترجوه أن يحتفظ بدموعها لديه، حتى يوم موتها، لأنه الوحيد الذي سيقوم برمي تلك الأكياس المخملية الصغيرة فوق جسدها. وكانت تجد الأمر في غاية الرومانسية.

بعد غيابه المضني، اياما طويلة، أرسل لها كيساً كبيراً من المخمل، وفيه تلك الأكياس الصغيرة المليئة بدموع ماسية. عندها عرفت أن رجلها لن يعود إليها ابداً.

أدركت أن زمن فادي انتهى، ورمت ذلك الكيس في خزانتها كأي شيء مهمل. لكنها بعد فترة، وعندما قررت أن تكون امرأة مختلفة، وجدت في تلك الماسات عوناً جيداً لبداية تجارة رابحة تليق بسيدة أعمال ناجحة. وعندما ستلتقيه في أزمان قادمة، عندما يعود من لندن حاملاً شهادة كبيرة، وأحلاماً

twitter @mjanen٢٣

كبيرة عن مشاريع ما يزال يخطط لتنفيذها، كانت تحدق فيه بثبات. ولم يكن تغير أي شيء في ملامح وجهها، خاصة في المرات الكثيرة التي كانا يقفان فيها وجهاً لوجه، وهما يتجولان بين المدعوين، في حفلات الكوكتيل الخاصة التي كان يقيمها العديد من أغنياء دمشق، الأغنياء الجدد والسماسرة وبعض الممثلات الجميلات والضباط والصناعيين الجدد وتوابل مختلفة من الفضوليين ومحبي الموائد العامرة والشهرة. رهام كواحدة من أبرز جميلات دمشق، وأكثرهن نجاحاً وشهرة، في عالم البيزنس والجنس. وهو كواحد من السياسيين الشباب الواعدين بدماء جديدة في البلاد. كان يتهادى أمامها، بكامل رجولته، وقد ازداد وزنه قليلا، وصارت ابتسامته مقتضبة. يتحرك كرجل انكليزي، بهدوء وبرود، ملقيا التحيات والابتسامات على من حوله، ومراقبا كل ما يحيط به بدقة وحذر. كان يلتقط نظراتها من بعيد، خلسة وبسرعة برق، ثم يعاود لفتاته على من حوله. كانت تتخيله، وهما يرفلان في أزمنة الهناء. كانت تمحو من امام عينيها صورته الحالية، وتمد عنقها بين الحاضرين تبحث بعينيها عن الولد الذي كان ذات يوم. تعود إلى لعبهما وشقلباتهما، فتشرق روحها، وعندما يصير وجها لوجه امام عينيها، تبحث عن الانتفاخ القديم بين فخذيه. كان الانتفاخ ضائعا، في واد. لم تنتبه إلى نفسها، وهي تحدق في ذلك المكان، أن مجموعة من الرجال وقفت تراقبها بغيظ. ولولا أن فادي تحرك من مكانه، لبقيت واقفة تسبر أغوار ذلك الوادي. وكانت الأمور ستمضي بسلام، وكان من الممكن أن تلقي عليه في كل مرة ابتسامة، ويفعل هو ذلك، في اغلب اللقاءات التي كان محتما عليهما أن يلتقيا خلالها. لولا أنها في السهرة نفسها، السهرة التي غرقت فيها عبر ذلك الوادي الذي كان يوما هضبتها الوحيدة، شحذت أساها ووقفت قبالته بتحد، وتلفظت بآخر جملة نطق بها لسانها. كانت تلك حفلتها الأخيرة قبل أن تقرر مواجهة أبيها، وتحاول الانتماء إلى عالمه. كانت تقف على بعد سنتيمرات منه، ورائحة الأنثى تفح من كل مسامها المتفتحة. التصقت به، وقربت شفتيها من أذنه، وأمسكته بين

twitter @mjanen٢٣

فخذيه بقسوة، ثم دلقت كأس الكونياك على وجهه، وسط دهشة المدعوين، قائلة:

- من قال ان الدموع لاتصير... دولارات؟

twitter @mjanen٢٣

كانت النظرات الحاقدة ما تزال تحاصر علي حسن عندما وصل أستاذ التاريخ العجوز ومعه مجموعة من أهالي القرية أمام بوابة القصر. كانوا صامتين تماماً، بعد أن طلب منهم العجوز الامتناع عن أحاديث الحرب والتماثيل المحطمة وأسعار البندورة والخوف من حرب محتملة على البلاد، لأن القادم أعظم، والمقبرة ما تزال تنتظر قادمين جدد، ولن ترضى إلا بواحد منهم. كانت السيارات السوداء ورجال علي حسن يطوقون المكان ويمنعون أحداً من الدخول بناء على أوامر سيدهم المحاصر في الداخل. وكبار الشيوخ المفترض وصولهم تأخروا، وهو ما أغضب علي حسن لأنه يريد الانتهاء من كل ما يحدث. عندما دخل عليه أحد رجاله وأخبره أن أهالي القرية بدأوا بالتوافد، أمر بعدم السماح لأي منهم بالدخول، وأعلن أن من سيغسل الميت، ويصلي عليه هم الشيوخ وحدهم فقط، وأن أهالي القرية يستطيعون الانتظار في المقبرة. كان كل ما يقوله علي حسن مخالفاً للتقاليد التي يتبعها أهالي القرية في دفن موتاهم؛ فعليهم أن يخرجوا مع الميت من بيته، وعليهم أن يتصرفوا في بيت الميت، كأنهم في بيوتهم، وأن يقوموا بالمساعدة القصوى الممكنة. وما طلبه علي حسن منهم كان غريباً بعض الشيء، ولم يقتنع الأستاذ العجوز الذي صرخ برجال علي حسن أنه يريد إلقاء تحية الوداع على حيدر، وأنه لايجوز لأحد، مهما كان شأنه، أن يمنعه من فعل ما يريد. كان الأستاذ العجوز يعرف أن السيارات المحيطة بالمكان تخص علي حسن، ويعرف أنه يزور حيدر بين وقت وآخر، رغم أنه اتخذ من زوجة حيدر عشيقة له، بعد أن اختلف حيدر مع رفاقه في الجيش. كان يعرف كثيراً عن حياة الرجلين، لذلك شعر بالغبن، خاصة أنه لمح حيدر بين الأحراش منذ أيام، وكان سليماً معافى، وألقى عليه

twitter @mjanen٢٣

تحية الصباح، ورد حيدر على الرجل الذي أحبه بضحكة وارفة. فما الذي حدث؟ كان العجوز على وشك الانهيار، عندما عاوده صفير البئر الملعونة، ينشر الخطر حوله. كان يرتعش وهو يتقدم من الرجال العمالقة ذوي البدلات السوداء، ويصرخ فيهم بالابتعاد لأنه سيودع حيدر. وكان أهالي القرية في حالة ذهول، وهم يعرفون أن أستاذهم، رغم خرفه، مقاتل شرس، ولن يقف عند حد معين. ويعرفون أن هؤلاء الرجال المصطفين حول المكان، لن يتورعوا عن إهانة عجوزهم المسكين. كان يسبهم ويشتم أمهاتهم، والساعة التي ولدوا فيها. وحتى تلك اللحظة، لم يحركوا ساكناً حسب أوامر معلمهم، لكن اندفاع الرجال نحو العجوز وصراخه عليهم حفزهم لإشهار أسلحتهم مطالبين العجوز، ومن معه بمغادرة المكان فوراً. توقف الرجال عن الحركة، وكذلك العجوز، وهم يرون الفوهات السوداء أمام وجوههم. كانوا في رعب من هذه الأسلحة، خاصة أنهم لم يستفيقوا من رعب الحرب، وصور الطائرات، والجنود الممزقين على شاشات التلفزيون. تراجعوا، مدركين أنهم تجاوزوا الحد المسموح به... الخطوط التي عرفوها، وحفظوها، وعاشوا على أساسها، وربوا أولادهم عليها، حتى كأنهم لم يكونوا هم أنفسهم، ولم تكن هذه الأماكن تعنيهم، ولا أي شيء يحدث خارج دائرة حياتهم الضيقة. فقد علمتهم السنوات الطويلة الأخيرة أن كل ما يحدث خارج البيت الخاص لكل منهم، لا يعنيهم في شيء. الخارج بمنأى عنهم، وما يسمعونه لا يصدقونه، لكنهم يصفقون له. وحتى يكونوا بأمان أكثر، كان عليهم أن يلعبوا مع اللعب المتحركة حولهم، أو يرقصوا، ويقفزوا كالقرود لتسلية الآخرين وإرضائهم. كانوا يفعلون أي شيء، ما دام سيشعرهم بالأمان المطلوب، الأمان الذي كان يأتي من تجاهل ما يحدث. لذلك، عندما رأوا الفوهات السوداء، أدركوا أنهم تجاوزوا الحد المسموح به لهم، وصار الأوان مؤات للصمت ثانية، والعودة إلى جادة الصواب. كان بعضهم منفوخ الرأس محمرّاً، وبعضهم يميل إلى الزرقة، والآخرون أطبقوا حتى فتحات أنوفهم. كان غضبهم يتسرب، كل على هواه، عدا

twitter @mjanen٢٣

العجوز الذي أخذ يحرك منخريه، ويقلب شفتيه بين فكي أسنانه الاصطناعية.

مرّت لحظات من الصمت أمام الفوهات السوداء، كسرتها صيحات العجوز:

- يا ولاد ستين كلب! روحوا قولوا لمعلمكم سأودع حيدر! روحوا يا كلاب! أنا أستاذ معلمكم!

كان العجوز يصرخ، ويتقدم بجسده نحو الرجال الذين دفعوه بقسوة، ورموا به أرضاً، هو الذي لم يكن يلزمه أكثر من هبّة ريح لترتمي عظامه، وتتحول إلى رماد. سقط الرجل العجوز على الأرض، واندفع اثنان من الأهالي لحمله. كانت دموعه تترقرق في عينيه. عاش عمره كله، ولم يتجرأ أحد على رميه كجيفة. الآن، وعندما صار هو والموت صديقان ينتظر كل منهما الآخر، يضربونه ككلب! قام، وأبعد الرجال من حوله. كان قلبه على وشك الانفجار، وصدره ينتفخ بهواء ساخن، يصعد ليحرق حلقه. استجمع نفسه، وبصق في وجوههم. اندفع أحدهم إلى الداخل، وأخبر معلمه المغيب في نقطة مجهولة عن العالم أن هناك رجلاً عجوزاً خرفاً يريد الدخول عنوة، وأنه يتعرّض لهم ويسبّهم. كان علي حسن ما يزال في غيابه. ولو كان في كامل وعيه، لتصرف بطريقة مختلفة ربما. ولكن اللعنة كانت تنتظر. أومأ له بالخروج، طالباً منه رمي كل من يحاول الاقتراب خارجاً، حتى تنتهي مراسم غسيل الميت. لذلك، عندما حاول العجوز اقتحام المكان، أمسكه الرجال وحملوه كصرصار، ورموه في الزريبة الملحقة بالقصر، والتي لم تستخدم منذ زمن طويل. لكمه أحدهم لكمة خفيفة على صدره، لكنها كانت كافية ليغيب العجوز عن الوعي ويطبق عينيه بسلام، ويجعل هؤلاء الرجال يكملون إنهاء أعمالهم المتراكمة، التي لا تنتهي مادام علي حسن يجيد الكلام وتحريك الشفاه.

twitter @mjanen٢٣

في هذا الوقت كان الأهالي مسمّرين إلى أرجلهم، والأستاذ العجوز في غيبوبة بين يدي أولاده، وسحر النصور تتجول بين الأحياء اللندنية الأنيقة، مقتنعة كل الاقتناع أن حيدر سيهرب في هذه المرة إلى نهاية الأرض، بعيداً عن رهام. وفي هذا الوقت كانت رهام تحاول الحركة داخل جسدها الجامد. والغرفة الزرقاء مغلقة بمزلاج حديدي من الداخل. وعلي حسن يفكر أن كل ما مر به في حياته لايساوي الآن قشرة بصلة، خاصة أن الأمور لم تعد كما كانت. عليه أن يقدم استقالته بعد وقت قصير، ويحرق ما خلّفه وراءه بهدوء وأناة، دون اثارة انتباه. ولأنه قادر على فعل كل شيء، ولم يخطر في باله أن الرجال الذين دربهم معه، وخلّفهم وراءه، لم يكونوا بمستوى الحزم المطلوب الذي أجاده هو، وحوّل من خلاله كل ما يحيط به إلى متشابهات. كانت لعبة المتشابهات تعجبه، وتجعله يشعر أنه إنسان استثنائي يجمع بين السلطة والثروة وقدرة الخلق. هو علي حسن الذي يحصل على كل شيء أراده، ويصل إلى أعمق الخفايا ويفتتها، ويحولها إلى غبار. هو الرجل الوحيد الذي تبيع نساء الأرض دينها ودنياها لأجله. وهو الوحيد القادر على فعل ما لا يفعله غيره. ولقد حاول أن يجد استمراراً له في ابنه فادي، وخاب أمله عندما أدرك بعد فوات الأوان أن الزمن صار مختلفاً، وأن ابنه سيكون ذا شأن في البلاد. غير أن الشأن العظيم هذا يأتي منه وليس من ابنه، والمعارك التي أجاد إدارتها وأتاحت له تطويع كل من حوله، بحزم وشدة، لن يستطيع ابنه الوقوف في وجه أصغرها بثبات يشبه ثباته كجندي محارب. هو علي حسن الذي يعتقد أنه أكثر المخلصين الذين قدموا لهذه البلاد الاستقرار المطلوب، الاستقرار الذي يجعله مطمئناً للعبة التشابهات، ولشيخوخة سعيدة بين جنيف وباريس. لقد

twitter @mjanen٢٣

حصل على كل شيء: ولاء طائفته، ولمعان المجد، وسطوة الحضور. تقلص من حوله إلى أذناب تتحرك كيفما اتجه. هم يحكّون له حتى أصابع رجليه، وهو... من هو ؟ الولد المتشرد بين السواقي والطين، الذي انتزعه إبراهيم بك من الفقر وحوّله إلى لعبة لابنه. إبنه؟ كان يريد أن يفهم بينه وبين نفسه لماذا أحب حيدر على هذا النحو، ولماذا... لماذا كان حيدر الوحيد الذي لم يفارق قلبه، هو الذي لم يصدق أن في جسده الضخم قلباً لولا وجود سحر. مايزال غير متأكد إن كانت سحر هي السبب، أم أشياء أخرى كان يخرّف حيدر حولها بين وقت وآخر. كان مقتنعاً أن حيدر نصف مجنون، وأنه يعيش في عالم غريب، عالم بين الله والأرض، لم يفهم معناه. لكنه لم يستطع الابتعاد عنه. وكان يتمنى في أعماقه أن يختفي الماضي المؤرق مرة واحدة، حتى يكتمل مجده. والآن، أخيراً، حصل على ما كان حلماً في ناظره، وكان ضعفه الوحيد في الحياة. اختفى حيدر العلي، وغاب عن الوجود، واختفت آلامه معه، ولم يعد هناك من مبرر للفزع المفاجئ الذي ظلّ ينتابه عندما يلاحقه وجه حيدر أنّى اتجه.

الآن سيختفي الكابوس، ولم يبق أمامه سوى رهام الشاهد الوحيد المتبقي على إثمه: كان يعرف أي حمل تخلص منه، وأي حزن ينتظره للأيام القادمة. ربما يكون عذابه ضرباً من الوهم القاتل. وربما تكون رهام ابنة حيدر الحقيقية، خاصة أنه لم يشعر نحوها بأي مشاعر. عليها أن تكون ابنة حيدر، وعلى سحر أن تكون مخطئة في شكوكها. على القدر أن يسير وفق مشيئته. على الله أن يفعل كذلك أيضاً، كان يسبّ بينه وبين نفسه. على كل شيء أن يسير وفق ما يحلم به، ويريده.

رهام العلي الابنة الحقيقية الشرعية لحيدر العلي، والحرام الذي رافقه طويلاً سيختفي. ومن الطريف أن يكون ابنه قد ضاجع ابنة عشيقته المزمنة. على الأمور أن تكون هكذا، وإلا فإنه سيعمد إلى تفجير كل من حوله، بعد أن كبر وشاب شعر رأسه، وشعر بثقل الإثم. سيعامل رهام بلطف بعد أن فقدت حيدر، الصديق الوحيد لها منذ سنوات طويلة. كان من الغريب ان تقرر رهام

twitter @mjanen٢٣

العودة إلى والدها رغم الحياة التي عاشتها، وأن تشعر بفريزة الأنثى أن الأمل الوحيد الذي ينتظرها إنما يقبع هناك في الغرفة العلوية لبيت جدها المهمل، الذي لم يخطر في بالها يوماً أنها ستعود اليه. لم تعرف عن عوالم حيدر أكثر مما سمعته منه، لكن ما سمعته كان كفيلا باقناعها أن هذا العالم أكثر صفاء من العالم الذي لوثها في دمشق. كانت مفتونة بسحر الكلمات، بعد اكتشافها متعة الاصغاء لوالدها وهويغرق في حديث طويل عن قصص غريبة حدثت منذ ازمان. كانت هذه المتعة لاتجاريها متعة أخرى في حياتها، بعد أن فقدت حبها، وصارت تتصرف بغرابة، وتزور والدها في نهاية كل أسبوع. صارت أكثر وحدة، ونجحت في إدارة شركة إنتاج فني، وخرجت مع كبار شخصيات البلاد، أصدقاء علي حسن انفسهم. كانت تريد الانتقام منه، من خلال سطوتها عليهم. أرادت أن تتحداه وجها لوجه، معلنة حرباً عليه لم تعرف أبداً أنها الخاسر الدائم فيها. كانت ساحرة في أعين المحيطين بها، الضبّاط والتجار والشعراء والفنانين. وسحرها لم يكن مرده جمالها فحسب، بل كانت صاحبة قلب أبيض لا غبار فيه. كل ما تفعله يخرج من قلبها، من أعمق أعماق قلبها. ويستطيع أي متحدث اليها أن يلمح اتساعاً لا حدود له، في عينيها. وكل الذين اقتربوا من عالمها، بقوا مشدودين إلى بحة صوتها الفنجة والرقيقة، والى صفاء يتهادى بين عينيها. صفاء عذب لم تمتلكه أي أنثى أخرى. ولو انتبه علي حسن إلى تلكما العينين، وحدق فيهما، لعرف أن هذا السحر قد ورثته الصبية عن حيدر العلي... الصفاء ذاته الذي عكره هو نفسه عندما اقتلعها من أرضها، ورماها حطبة يابسة بعيدا عن جذرها، فادي حسن.

تحولت إلى امرأة مختلفة. صارت تقضي أوقاتها في البداية مع صديقاتها من بار إلى آخر، واهملت دراستها، وصارت تتجنب رؤية أمها، ولا تعود إلى البيت حتى ساعة متأخرة. ثم صارت تصطاد الرجال كنوع من التسلية، رغم أنها لم تكن بحاجة للتصيد، فحضورها كان كفيلاً بجذب الرجال اليها. ولكنها عندما قررت أن تنتقم من علي حسن، صارت تنتقي رجالها من المقربين اليه،

twitter @mjanen٢٣

وتسعى لتكوين ثروة ضخمة تجعلها صاحبة امتياز ونفوذ. ولقد نجحت على نحو ما، لكن طقسها الوحيد الذي لم تتخلف عنه يوماً، وعلى امتداد سنوات طويلة وسط دوامة علاقاتها وصفقاتها، كان زيارة حيدر العلي الأسبوعية.

كان علي حسن يعرف كل هذه الأشياء عنها، ويعرف ما الذي يعنيه لها فقدان حيدر. وفي أعماقه تبقى، ومهما فعلت، إبنه عشيقته التي كان مستعداً لفعل أي شيء لإرضائها. وهذا هو السبب الوحيد الذي دفعه لتحمل تصرفاتها، دون إلحاق الأذى بها.

انتفض في مكانه وابتعد عن رهام المحملقة به، والتي كانت في ذهول تام عما يجري حولها، وتمنت ظهور دلاّ لأنها كانت بحاجة إليها أكثر من أي وقت مضى. لكن دلاّ اختفت فجأة، ولم يعد بإمكانها الصراخ في حضنها، خاصة أن الواقف أمامها هو علي حسن وليس أي رجل آخر. كانت تريد أن تستجمع قواها لتفكر حقيقة، فيما حدث، ولماذا الآن وأكثر من أي وقت، يموت حيدر؟

لماذا الآن، عندما قررت أن تأتي إليه، وتهجر دمشق، وتبني هندقاً صغيراً على شاطئ البحر؟ لماذا الآن، بعد أن وافق على المجيء معها، وهجر وحدته إلى عالمهما الجديد؟

ما الذي حدث؟ كانت غارقة في أحجيات لانهاية لها. هل يكون علي حسن خرّب حياتها من جديد؟ هل فعل ذلك؟

كانت تحاول استقراء دخيلته، محدقة في عينيه بتحدٍ. إنه قادر على كل شيء. والرجل الذي استطاع أن يحرمها حبها الوحيد، ويسلبها أمها، قادر الآن بكل بساطة أن يسلبها الانتماء الوحيد الذي أدركته في عالمها المشوه، بعد خسران فادي والانخراط في العلاقات الغريبة التي أجادت إقامتها مع أصدقاء فادي. كانت تعاشرهم كأنها تقوم بتنظيف أسنانها، كل يوم، ولاتأبه لما سيحدث بعد ذلك. وهو ما جعلها فاتنة في نظر العديد من الرجال الذين باتوا يلاحقونها من مكان إلى آخر. ولم يكن يعنيها من تلك العلاقات أكثر من

twitter @mjanen٢٣

إطفاء الفوران الدائم لرغبتها اللامنتهية في رجل ما، بعد نار الويسكي الحارقة، أو سجائر الحشيش التي اعتادت تدخينها مع فادي، في ليالي مجونهما الغابر. لذلك كان الرجال من حولها يجدونها غريبة الأطوار. وكانت الهدايا التي يقومون بتقديمها لها بين وقت وآخر، مختلفة. فمنهم من يهديها بيتاً في حي أنيق، وآخر يهديها سيارة حمراء فارهة، وثالث قلادة ماسية أو رحلة إلى أمريكا، أو يسمي أحدهم مخزنه التجاري الفخم القائم في شارع الحمراء باسمها. وكل هذه الهدايا الثمينة لم تكن تعنيها في شيء، ولم تكن تطلبها. وأكبر ردة فعل إزاء ما يقدم لها من هدايا، كانت ابتسامة تشبه قلبها البارد. ورغم أنها كانت تموء بين أحضان الرجال كقطة، إلا أنها لم تول هؤلاء الكثير من وقتها. وإذا حدث أن لفت أحدهم انتباهها، فإنها كانت تمضي معه ليلة إضافية أو ليلتين، ثم تهجره إلى رجل آخر. وأثناء بحثها بين هؤلاء الرجال عن متعة مشابهة للخدر الذي كان يصيبها في فراش فادي، وجدت كل شيء خاوياً من حولها، وفقدت قلبها إلى آخر العمر. لكنها نجحت بتحويل ثروتها الصغيرة إلى رأسمال مناسب، كان كفيلاً بتحقيق حلمها بتحويل الشاطئ الجنوبي لمدينة جبلة إلى منطقة سياحية، عندما قررت بناء فندق ومدينة ألعاب ومجموعة مسابح ونادٍ رياضي. ولقد طلبت من أحد عشاقها الاهتمام بموضوع شراء الأرض، وبدأت بإعداد جدول الميزانية اللازمة لمشروع ضخم كهذا، وأقنعت والدها بالوقوف إلى جانبها. آنذاك وافق حيدر على طلبها دون أي استفسار، لأنه كان يعرف الوحدة التي تعيش فيها ابنته رغم حياتها الصاخبة، ورغم أنها كانت تخفي عنه الجزء الأكبر من حياتها. إلا أنه قرّر، بينه وبين نفسه، أن الأوان مؤات لتقديم يد المساعدة لابنته التي هجرها منذ الطفولة. في الوقت ذاته أخذت سحر النصور تشعر أن رهام تهرب منها، عندما عرفت أن حيدر سيهجر بيت الضيعة ويعيش معها في المدينة، ويقومان بتنفيذ المشروع الذي تكلمت عنه رهام. كانت منذهلة من قرار ابنتها، ولم تصدق أن حيدر سيتنازل عن وحدته. فبعد أن طلبت الطلاق منه، وخذله علي حسن ورفاقه في

twitter @mjanen٢٣

الجيش، لم يتحرك من مكانه حتى اقتنعت بفكرة موته الفعلي. كان منتهياً، ويشبه حكاية قديمة سمعتها يوماً ما. وعندما اخبرتها ابنتها بمشروعها، لم تتفوه بحرف أمامها، لأنها كانت تخشاها وتعرف أنها لن تأبه بها البتة. رأت أيامها القادمة ناشفة، طويلة، ومملة. رأت كل ما حولها غائباً. حتى علي حسن، ضاع وسط فكرة غياب رهام. لذلك عندما تصرفت بحمق، كما ستكتشف بعد زمن طويل، كانت تبكي طول الطريق الذي قطعته من دمشق إلى جبلة، مدركة آلام حيدر القادمة، وخائفة من أن يكون ما تفعله هو الفراق الأبدي بينها وبين ابنتها الحبيبة.

twitter @mjanen٢٣

في الزريبة المهجورة كان الأستاذ العجوز يتنفس بشكل غريب، ويفتح فمه بين لحظة وأخرى، كأنه على وشك الاختناق. يداه ترتجفان، ويغمغم بكلام غير مفهوم للرجال الملتفين حوله. أرادوا أن يحملوه إلى المستشفى، بعد أن تغير لونه، وتحول إلى الأزرق. رفض أن يقترب أحد منه، وأشار لهم بالخروج وتركه وحيداً. لكن المكان كان قذراً ومهملاً، فلم يكترث الرجال برغبته، وبقوا إلى جانبه. كان العجوز يعرف في قرارة نفسه أن الضوء بدأ يخفت في عينيه، ويعرف أشياء كثيرة لايعرفها أهل الضيعة. إنه الرجل الوحيد الذي كان يتردد على حيدر، ويجلب له الكتب من المدينة، وبين وقت وآخر يجلس معه، ويرتشفان كؤوس العرق قبل أن ينقطع العجوز عن المشروب. وكان العجوز يعاتب حيدر على تركه دمشق والاختباء هنا. كانت جملته المشهورة التي حفظها حيدر عن ظهر قلب: كان البقاء لازماً... كان البقاء لازماً!

وتستمر مفردة اللازم طويلاً حتى يضحك حيدر من أعماقه، ويجف حلق العجوز، فيعاودان ارتشاف العرق البلدي. انقطعت الزيارات، ومرض الأستاذ العجوز، وصار حيدر أكثر عزلة. ورغم مرور زمن طويل على تلك المسامرات، لم يستطع العجوز نسيانها أبداً. كان يشعر بما يشبه صلة الرحم مع حيدر، وأن من الواجب عليه القاء نظرة الوداع على الرجل التعيس كما سماه، وتحميله الكثير من الوصايا إلى العالم الآخر. لذلك أصرّ على ابتعاد الرجال عنه، لأنه يعرف أن هؤلاء لن يسمحوا له بالتحرك، خوفاً من رجال علي حسن. وهو لم يصل إلى مرحلة مخزية من الجبن ليخاف من المرتزقة، كما سيصرخ في وجوههم بعد قليل. طلب من الجميع الانصراف بهدوء ورضا، وانتظر حتى

twitter @mjanen٢٣

اطمأنوا إلى نومه، ثم قام، ومشى، كأنه لم يكن على الهاوية. وبساقين مرتجفتين وقف أمام الرجل الذي يحرس الدرج. كان عبد الله يلوح في غبش عينيه. إنه أمامه الآن، يخطر بخفة، يراه في بيته، وبين أخوته، وهو يزرع شتلات التبغ البلدي خلف البيت، وأمه تسقي الشتلات من خلفه. يراه ينظف أحجار البئر بفرشاة اشتراها خصيصاً لتنظيف الحواف المزخرفة. يرى كتبه المتراكمة تحت شجرة الجوز، وهو يكنس المزار، ويبلل المصطبة بالماء، ويزرع الحبق على جانب المزار. ومن بعيد يلمحه قادماً، راكضا بسرعة، ملوحا له، خائفا، وغبار أسود يلحق به. كان عبد الله يقترب أكثرمن العجوز، وعيناه مضمختان بالبكاء، وأمه وأخوته يلحقون به، مولولين. كانت ذكريات الأمس تضيء عقل العجوز، فيسترجع مراقبة الفجر قرب البئر، والهذيانات الطويلة عن البئر، وحديث التجمعات البشرية التي كان عبد الله يحاول البرهنة على وجودها حول البئر، وكيف عاش الناس وتركوا أرواحهم داخلها... كان ذهنه يلمع، وكان مشوشاً بالكثير من الكلمات والخيالات. لكن الصورة التي ما انفكت تقف له بالمرصاد هي عينا حيدر المسمرتان بالفضاء. وكان هو في حال من الشوق للوداع، بعد أن تركه كل من أحبهم دون وداع. اقترب أكثر من الحارس الجامد، ووضع يده على ظهره المحني، وبالكاد خرجت كلماته المبحوحة:

- سأودّع حيدر...

نظر الرجل العملاق إلى العجوز اليابس، وأطلق ضحكة عالية. أمسكه العجوز، بعد أن لمح في عينيه الاستهزاء والممانعة، وعلا صوته:

- بعُد عن طريقي يا لوح.

نظر الرجل بغرابة إلى العجوز الممسك بطرف ثيابه كأنه يقول له: ماذا أفعل بك ياقطعة الخردة؟ كان المشهد كوميدياً، في البداية، والعجوز يحاول إزاحة اللوح الواقف أمامه، واللوح يضحك. فما كان من العجوز إلا أن بدأ يسبه ويشتمه بصوت مخنوق. أمسك الرجل العملاق العجوز من يديه، وحمله

twitter @mjanen٢٣

كطفل، ثم رمى به بقسوة على امتداد ذراعه الطويلة. طار العجوز في الفضاء، وارتطم بجذع شجرة ليمون، ثم هوى على الأرض بسلام. كان الزمن سريعاً، ولم يتسنَّ للعينين الفارقتين في العمش أن تعبّا الضوء لأن رمية الرجل العملاق كانت من القوة بحيث حوّلت جسد العجوز إلى ريشة في الهواء. تراكض الرجال حالما شاهدوا العجوز يطير في الهواء. ولوهلة خيل للنسوة أنه لن يعود إلى الأرض، وسيختفي فجأة. لكنه سقط، كأي شيء لابد له أن يسقط من الهواء إلى الأرض، والتف الجميع حوله. كان ينوس بعينيه ويفتحهما على نور باهر. وفي النور كانت تسبح كتب ضخمة من الأوراق الصفراء، مجلدات عتيقة تتبختر أمامه، وتخترق البياض المنتشر حوله. وكانت الكتب تضع العمامات الضخمة، ومن العمامات تتدلى أشرطة ملونة وصور غريبة، وتهرب من داخل العمامة كلمات وأحرف وأرقام أشبه بفقاعات صابون. وكانت زوجته تمسك بالفقاعات، وتضحك عابثة بها كطفلة. وكان حيدر يحمل بندقيته ساهماً، يهمس لعبد الله، بشيء ما عن العجوز. كان الثلاثة حوله، معلقين بالحبال، ملتفين حوله. فتح عينيه على اتساعهما، وغمره شلال نور، ثم هدأ صدره وارتخى جسده الضئيل بين راحات الرجال الفزعين، الآملين أن لا يكون إلا في إحدى نوبات نومه. كان ينام ليومين متتالين، ويستيقظ يومين آخرين. لكن أمانيهم بعودة العجوز انتهت، لأن المقبرة في هذه الأثناء عرفت اسم ضيفها، واطمأنت إلى أن القبر الثاني سوف يكون جاهزاً خلال ساعات. وبقي على أهالي القرية انتظار الضيف الثالث بخوف وحذر، لأنهم لم يعرفوا ولن يعرفوا أبداً هذا الضيف الذي بقي مع حيدر إلى الأبد. أما رجال علي حسن، فقد ركضوا إلى معلمهم بخوف وريبة يخبرونه بما حدث. المفارقة أنّ هذا الحدث، على فظاعته ورغم أن العجوز كان أستاذه على مقاعد الدراسة، كان بمثابة طوق نجاة علي حسن. لقد وجد المبرر الكافي ليترك رهام ونظراتها، وينزل الدرج، متجهاً إلى كومة الرجال الذين تجمعوا حول جثة العجوز الهامدة.

twitter @mjanen٢٣

في أعلى العالم، كانت سحر ما تزال منشرحة الصدر، تتسوق كعادتها في لندن، وتنتظر وصول علي حسن بين ساعة وأخرى. وفي منتصف العالم، بعيداً عن أسفله بقليل، كانت الأصوات الصغيرة التي تخرج من باطن الأرض، عبر فتحة عتيقة سماها البشر البئر الفينيقية، ما تزال تصفر بشدة، وكأن ريحاً ستقتلع التراب عن قشرة الأرض، وتترك القرية صلعاء للحجر والصوان. لكن هذا الصفير لم يتجاوز فوهة البئر، والأهالي الذين نسوا الحرب وسقوط بغداد عادت إليهم روح الخوف المبطن بالخشوع، وهم يجتمعون بعد أن سمعوا بنبأ موت العجوز، وينظر كل منهم إلى الآخر متسائلاً: من سيكون التالي؟

كانوا قد تحلقوا حول بعضهم، النساء والرجال والأطفال وركضوا بسرعة نحو القصر القديم، بعد أن كبر الموت، وجمعت تلك البقعة الملعونة رائحة الفقد. لم يكونوا مهتمين بالانزلاق الدائم لزمنهم بعد الآن. اختفى كل شيء. وعجوزهم الذي لم يتخيلوا يوماً غيابه، يدخل في لوعة الحرمان والغياب. إنهم يحبونه الآن، أكثر مما مضى، كعادة البشر في هذه الأجزاء من العالم. كل شيء يأتي متأخراً. والحياة، رغم أهميتها، لا تساوي قداسة الموت. إنه خوفهم من المجهول. يستيطعون إدراك تفاصيل حياتهم، لكنهم لم يعرفوا عن الموت أكثر مّما يجعلهم يطمئنون إلى أرواحهم التي ستعاود التجدد من زمن إلى آخر. ومع ذلك، فالموت يحولهم إلى أنصاف آلهة، والحياة تحولهم إلى بشر حقيقيين، وكائنات خطّاءة، ملعونة. الموت الآن يقترب، وهم يركضون لملاقاته. الغرباء ضربوا عجوز قريتهم، وقتلوه. رجال علي حسن ابن قريتهم، الرجل الذي لم يفهموا يوماً سر علاقتهم به. كان أغلبهم يعدّه أهم من صنع للقرية شأناً واهتم بتطويرها، وتحويلها إلى مدينة، وأوجد فرصاً للكثير من ناسها الذين هاجروا

twitter @mjanen٢٣

إلى دمشق وتبوأوا مناصب مهمة. ذلك كله جعلهم جميعاً طوع بنانه، فكانوا يقدسون المهابة التي يظهر عليها دائماً، وكان التقديس ذاته مشوباً بالخوف والحذر. البعض الآخر منهم كان لا يطيق سماع اسمه ويتحاشاه، والباقي يتزلف إليه بكل الوسائل والطرق. لذلك خافوا في البداية من التفوّه بحرف. فهذا علي حسن القادر على كل شيء، وليس حيدر العلي الرجل الغامض... التائه.

twitter @mjanen٢٣

كان علي حسن يوبخ الرجل العملاق، ويعنفه بشدة أمام الأهالي الذين أخذوا يتوافدون تباعاً، ويتحلقون حول المكان. والرجل الضخم يكاد ينفجر من شدة إحساسه بالذنب. وبعض الرجال ما زالوا يحاولون التأكد من أن العجوز ما يزال على قيد الحياة. عندما أدار علي حسن ظهره، وأراد صعود الدرج ثانية، بعد توبيخه العنيف لرجله، صاح رجل من الحضور:

- هذه جريمة قتل!

أحس علي حسن أنه سينفجر. كيف يتجرأ هذا المخلوق على مخاطبته بهذه اللهجة؟ ومنذ متى؟ لكنه ضبط أعصابه لعلمه الأكيد بالأحزان التي تركها موت العجوز في نفوس أهالي القرية. استدار بهدوء، ومشى ناحية الرجل الذي اختلد دمه:

- لن أقبل بما حدث. للموت حرمة، وإكرام الميت دفنه. بعد الانتهاء من الدفن، القانون سيأخذ مجراه ويتحاسب هذا الثور على فعلته السوداء.

استدار بنفس الهدوء، وصعد بضع درجات حجرية، وكأن شيئاً لم يكن. كان الصمت مطبقاً، وعيون بعض النساء ممتلئة بالدموع، والرجال ينشجون في صدروهم. نظر إليهم ثانية، وأراد البكاء، لكنه بدلاً من ذلك قطب حاجبيه، ورفع صدره عالياً وقال بصوت مسموع:

- الله يرحمك يا أستاذ محسن... الله يرحمك!

اختفى داخل القصر، وبقي الناس منذهلين بما جرى، غير مصدقين أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنهم ما إن غاب علي حسن عن أنظارهم حتى هجموا على الحارس القاتل، وانهالوا عليه ضرباً. كانوا يركلونه بأرجلهم وأيديهم، بعد أن ذعر رفاقه وتراجعوا أمام هياج الأهالي. ركض أحدهم ليخبر

twitter @mjanen٢٣

علي حسن بما يحدث لحارسه، لكن علي حسن أومأ لهم بالانصراف، غير مبالٍ بما سمعه. عادوا خائبين، ينتظرون ابتعاد الأهالي، رجالاً ونساء، عن رفيقهم الذي كان على وشك الاغماء، وهو يصيح طالباً النجدة. ولولا صراخ أولاد الأستاذ الذين يحملون والدهم، وطلبهم من الأهالي تأجيل هذا الأمر الآن، لاستمروا بضربه حتى يفقد وعيه. والأمر الآخر الذي كان يشغل بالهم بعد أن اطفأوا عطشهم، كان أنهم ينتظرون سراً بينهم وبين أنفسهم، أن تتضح هوية ميت ثالث. وحسب تعبير أحدهم: قتيل ثالث. والأمر الوحيد الذي أوقف اندفاعهم هو وصول الشيخين اللذين سيصلّيان على الميت ويغسلان جثمانه. كان حضور الشيخين الجليلين كافياً لتغيير الأحداث، ولوقوف الجميع بصمت وهدوء، والنسيان المؤقت للموت المرابط على أبواب كل فرد من أفراد القرية. فالشيخ عبد المجيد، والشيخ أبو علي، كانا من أهم رجالات الدين في الساحل السوري. وكانا عالمين ومعلمين للدين، على أيديهما تربى كبار رجالات المنطقة، وتعلموا أسرار الدين وخفاياه. كانا صامتين وقورين، ينشران بركاتهما أنّى اتجها، ويشعران بأهمية تلك البركات عند الناس، فيضاعفان منها. لذلك عندما اندفع كثير من أهالي القرية لتقبيل أيديهما، وهما يحاولان الصعود إلى غرفة الميت فوق الدرج الحجري، توقفا ولم يمنعا تدافع الأهالي للمسهما. كانا مغتبطين وهما يمسحان بأصابعهما، ذات العروق الزرقاء، على رؤوس الناس التي امتلأت بمشاعر الخوف والابتهاج بحضور الشيخين، فنسيت أستاذهم الذي فارق الحياة قبل دقائق. في الوقت ذاته كان أبناء العجوز يحملونه، مبتعدين عن المكان المزدحم، الذي اعتقدوا أنه سوف يزعج سبات والدهم الأخير.

لم يستطع رجال علي حسن شيئاً حيال الأهالي المتدافعين حول الشيخين اللذين كان سعيدين في البداية. لكن بعد أن التف الناس بكثافة أكبر حولهما، وامتنعا عن رؤية أي شيء عدا الرؤوس المتدافعة والمنحنية لتقبيل الأيدي، شعرا بالضيق والتعب، وباتا على وشك الاختناق. بادر الشيخ عبد

twitter @mjanen٢٣

المجيد وطلب منهم، بهدوء، الابتعاد عن المكان ريثما ينتهيان من الميت. ولم يكد ينهي جملته حتى تفرق الأهالي، وانتشروا تحت الدرج، متأملين الرجلين الصاعدين بمهابة، وكل منهم يشعر في أعماقه بأن روحه ستخرج من أذنيه وهو يسمع دعاء النسوة، ونحيبهن. كان المشهد مؤثراً بالنسبة لرجال علي حسن، فانزوى كل منهم في ناحية، وشعروا أن لا حاجة لوجودهم بعد الآن، أو على الأقل حتى تنتهي الصلاة على الميت، وتنتهي مراسم إعداد الدفن. لذلك وجد الأهالي فرصة سانحة ليصعدوا بضع درجات، ولينتشر بعضهم في الطابق العلوي بصمت. لكنهم سرعان ما احتشدوا دفعة واحدة، واقتحموا المكان، ووصلوا حتى الغرفة الزرقاء.

كانت رهام ما تزال مغيبة عن العالم، تشد بقوة على الظرف الورقي الأصفر، وتتمنى لو تجرؤ على فتحه لمعرفة ما تركه لها حيدر فيه. لكن أصابعها لم تطاوعها على الحركة، وشعرت عندما رأت الشيخين أن ما يحدث حقيقي، وأن حيدر سيختفي عن الأرض، وسيقوم هذان الرجلان بإعداده لرحلته السفلية. كانت تحاول معرفة ما يجري. وبعض الرجال يحاولون كسر الباب المقفول من الداخل، وسط دهشة الجميع.

من قفل الباب؟

وكيف حدث ذلك؟

علي حسن يراقب رهام، وهو يحاول تخمين من قَفَل الباب، وهو ما يزال في الداخل. من حبس نفسه مع الميت؟ رهام بدأت الارتجاف وصرخت:

- دلاّ... دلاّ قفلت الباب!

كانت شبه مجنونة، وجسدها يهتز. أخبرت الشيخ أن دلاّ آخر من دخل غرفة والدها. وبكت وهي تقول له إنها غير مطمئنة إلى ما يحدث، وإن هذا الرجل علي حسن ربما يكون قد قتل والدها، ودلاّ.

كانت رهام تهذي كثيراً عن مجرم قتلها، وقتل أمها وأباها وحبيبها. تبكي دون انقطاع، وتصرخ بصوت عالٍ يشبه الاستغاثة. كانت أجمل مما

twitter @mjanen٢٣

تكون عليه عادة، لأن الحزن يزيدها سحرا. الجميع ينظر إليها بتأثر، ويبكي على الصبية الفاتنة التي ستفقد عقلها بعد موت والدها، وهو المصير المتوقع بالنسبة لابنة حيدر العلي، ابنة السلالة المجنونة. وتذكرت عجائز القرية الطاعنات في السن كيف كنّ يرينها بنتاً تخطر على الطريق الترابي، الذي تحول الآن إلى طريق اسفلتي، تتهادى أمام حيدر العلي، وترمي بخصلات شعرها الخرنوبي أمام وجهه، وهو يلحق بها، كسائر في نومه. كانت تلك البنت سحر النصور، التي أورثت ابنتها بياضها الناصع، الشديد الغواية.

تحلق الجميع فجأة حول علي حسن، أهالي الضيعة ورجاله والشيخ. هو وحده يعرف أي امرأة هي رهام، ووحده يعرف أنها تعي كل ما تقوله. أشار إلى أحد رجاله، بعد أن سقط شالها عن كتفيها، أن يأخذها بعيداً عن المكان. بدأوا بتكسير الباب، والرجال يحاولون الإمساك برهام وتهدئتها، وهي تعضهم، وتبصق في وجوههم، وتشد إلى صدرها الظرف الورقي. كان الشيخ الكبير هادئاً، وقوراً، واقفاً بثبات، محدقاً في جمال رهام الأسر الذي سطع أمامه. تكلم بهدوء: اتركوا البنت.

وأمسكها بيدها، بأناة شديدة، وهو يصلي باسم الله عليها. سحبت رهام شالها عن الأرض، ولفته حول صدرها العاري، وهدأت. تقدم الشيخ من الباب، وعلي حسن على وشك الانفجار. كيف سمح لهذه المهزلة بالحدوث؟ إنه ثانية حيدر، يعذبه في حياته ويقتله في موته. وهذه البنت ستفضحه، ولكنه سيفرمها فرماً. كان يردد بينه وبين نفسه، مبدياً الهدوء واللامبالاة. كسر الباب، وبدت الغرفة الزرقاء كما هي، وكما تركها علي حسن، في آخر لقاء له مع حيدر. لكن المفاجأة التي كان الجميع بانتظارها حولت المكان إلى حكاية من الحكايات التي ترويها الجدات للأحفاد، قبل النوم.

كان السرير فارغاً تماماً. ولم تكن جثة حيدر المنتظرة موجودة!

حتى دلاّ التي توقعت رهام أن تراها جاثية بالقرب من سرير والدها، لم تكن موجودة. كل شيء اختفى من الغرفة، ولم يبق هناك سوى المرآة،

twitter @mjanen٢٣

والسرير النحاسي، والستائر الزرقاء، وغمامة حمراء جاثمة على السرير. غمامة متراقصة بأناة، صغيرة، ضئيلة، بحجم بقعة دم. تحلق الجميع حول السرير. بدأ الرجال يفتشون المكان، ينظرون من النافذة، ويدفعون الأهالي للخروج، وعلى وجوههم بدت ملامح سعادة لأنهم استعادوا دورهم. كان الأهالي، يهربون من أمامهم، وهم في ذهول وخوف وغربة.

ما الذي يحدث؟

أين الميت؟

كانوا يهرولون على الدرج، خائفين من رجال علي حسن الذين ظهروا فجأة، وتبين أن عددهم كبير، وأن بعضهم كان ينام في السيارات المصطفة. كان الرجال مسلحين، يدفعون الأهالي بعيداً عن القصر. وعلي حسن المشدوه ينظر إلى رهام بحقد، معتقداً أنها من أخفت جثة والدها. والشيخ الهادئ ينظر بريبة إلى المكان، ويحاول ملامسة الغمامة الحمراء المتوضعة على السرير. أما رهام، التي بدأت قدماها تعومان في الفراغ، فقد أمسكت بالظرف الورقي الأصفر، واندفعت خارجة من المكان، وعيناها جاحظتان، وصدرها يخفق بشدّة. هبطت الدرجات الحجرية لاهثة، وأسرعت إلى سيارتها. شعرت أنها في كابوس تريد الاستيقاظ منه سريعاً، وأن علي حسن يقوم بإحدى عمليات تعذيبه المعتادة لها. كانت تتوقع منه أن يقوم بأي شيء. كانت تجثم فوق سرير والدها منذ دقائق، وكانت تحضنه، وتقبّل أصابعه. رأته بعينيها، رأت وجهه الساكن، الأصفر، ويده المرتخية على السرير. رأت ما جعلها تتأكد، أكثر مما تحتاج، أنه رجل ميت. واختفاؤه الآن لا يمكن إلا أن يكون خدعة جديدة من خدع علي حسن ومؤامراته. كانت مهووسة بفكرة القتل الذي يلاحقها، منذ أن هددها هي وحبيبها، ومنذ أن زرع الموت في عينيها، لو اقتربت من ابنه. كانت تريد الهروب من المكان، والابتعاد عن علي ورجاله. كانت تركض حافية، باكية، باتجاه سيارتها، أمام السور القديم، والناس يراقبونها غير مصدقين ما يحدث في هذا المكان الملعون. لم تنتبه، إلى الجروح التي اصابت

twitter @mjanen٢٣

أسفل قدميها وهي تعبر الأرض، ولم تلمح الشال الذي سقط عنها، وتركها عرضة للفرجة والمتعة. أدارت سيارتها بسرعة جنونية، واتجهت نحو طريق العودة إلى دمشق.

في الغرفة العلوية الزرقاء، لم يعد هناك من فرصة للكلام، بين الشيخين وعلي حسن المتجهم، الذي اومأ لرجاله أن يلحقوا برهام، وطلب من أقربهم حبسها في قبوه ريثما يحضر. كان هنالك غائبان، جثة رجل وامرأة قامت على خدمته طوال عمره. وحول الغياب أسئلة كثيرة، لم يستطع أحد الجواب عليها. حتى الشيخ عبد المجيد اعتبر ما يحدث نوعا من الاستخفاف به، هو الذي قطع كل تلك المسافة من أجل ميت لا وجود له. كان مبهوتاً، عاجزاً عن تفسير ما يحدث، وكان حرياً به أن يصرخ أو يبرطم لولا أن الذي استدعاه كان علي حسن، وليس أي رجل آخر. وهكذا انسل بهدوء، نازلاً الدرجات الحجرية، شاعراً بغبن شديد، متمتما بكلام غير مفهوم، لم يفقه منه الأهالي سوى عبارة واحدة:

- لا حول ولا قوة الا بالله. .. لا حول ولا قوة الا بالله!

twitter @mjanen٢٣

كان بإمكان السيارة الحمراء الفارهة، المسرعة بجنون، أن تتابع طيرانها هرباً من الجحيم الذي شعرت رهام أنها تحترق فيه، لولا فضولها ورعبها من اختفاء أبيها المفاجئ. كانت تعتقد أن في الأوراق التي تركها والدها علامة تمكنها من تحديد اتجاهاتها، بحيث تصبح قادرة على حل اللغز الذي قطع استرخاءها الأخير للحياة. وبعد أن تجاوزت بضعة كيلومترات، انعطفت بسيارتها نحو طريق ترابي جانبي. توقفت تحت شجرة زنزلخت عملاقة، وأشعلت ضوء سيارتها، وفتحت الظرف. كانت أوراقه مهترئة، مقصوصة، غير واضحة، مختلفة الترتيب والتاريخ، ممزقة، مختلطة ببقايا حوافّ مهترئة لأوراق أخرى محترقة لا تحتوي إلا على جمل متفرقة، وأخرى ممزقة من وسطها، بعضها محترق من وسطه على شكل دوائر صفراء وبنية وسوداء. كانت رزمة غريبة من نثار وفتات يوشكان على التلاشي. انتبهت رهام إلى ورقة عتيقة، انتزع منها طرفها العلوي الأيمن، وتذكرت القصاصة التي وجدتها إلى جانب جثة والدها، والجملة الوحيدة: رائحتها حرب الكون ضدي. كانت القصاصة منزوعة من هناك. حاولت أن تستعيد تفاصيل التمدد الأخير لحيدر، وأين كانت القصاصة، وقلم الحبر الستيلو الذي كتب به طوال عمره، فلم تفلح. لو أنها بدأت القراءة من الصفحات الأخيرة، لاستطاعت على الأقل، أن تفهم ما الذي حدث بين والدها وأمها. لكنها بدأت من الأوراق الممزقة، ولم تعرف أن الوقت لن يتسنى لها لتكمل ما كتبه حيدر، أو لتقرأ الفصل الأخير مما حدث قبل أن يترك حيدر دمشق ويهجر عائلته. كان القدر يلاحقها، وسيارات علي حسن تبحث عنها. كانت ظمأى لتلك الأوراق. كانت تشتاقه، وأرادت ملامسته، وإطفاء القليل من الظمأ الذي بدأ ولن ينتهي. ولعلها في النهاية أرادت

twitter @mjanen٢٣

البحث عن نفسها في تلك الأوراق. ذلك جعلها تقول لنفسها، كلما أنهت قراءة ورقة: في التالية سيتحدث عني...

twitter @mjanen٢٣

أهم معلّم للحب، الحيوانات.

كل ما يعيشه البشر في حياتهم اليومية، هو بيئتهم الطارئة. وأنا حيدر العلي بن إبراهيم بن سليمان بن صالح، انتمي لبيئتي الأم، التي تراودني عن الدنيا، وعن كل ما يحيط بي من تفاصيل. أنا المولود رغما عني، والميت رغما عني، والعاشق كحيوان بري، لم يمهلني الزمن ما يكفي لأحبه وأكرهه أو أتامله. زمن بعيد ذاك الذي شهد صرختي الأولى. كان كل ما يحيط بي مسكوناً بالنعنع والحبق، وزغاريد مبحوحة بالخوف. كنت اندفع من رحمها، واسمع أنين الألم، وحشرجات الموت. كنت أسبح في جسدها قبل التكون. درت سبع مرات، من السرة إلى القلب، ومن القلب إلى السرة، وقلت لقلبها: لا تنسني! ثم عدت إلى كيسي داخلها، وبقيت وهي تطوف حول جسدي الضئيل المنهمر منها. كانت تدفعني إلى الحياة، وأنا كتلة اللحم الأزرق الملفوفة بالأوساخ والدماء رفست بطن تلك المرأة التي عرفت فيما بعد أنها أمي. كانت تفصلني عنها يدان سمراوان، يدان عرفتهما طويلاً في الطفولة، استمرتا بعد ذلك، بنفس التجاعيد ونفس الانحناءات، في تكوين إنسان آخر. كانت اليدان تقطعان حبل الأنسجة، وتفصلني عن موت أمي. أستطيع سماع صرخاتي، وأتبين بوضوح قطرات العرق المنزلقة على فخذيها المرهقين، وأنا أتدلى كمنقود عنب، محمولاً، كأي ذبيحة، أتلقى صفعات خفيفة على قفاي، وأصرخ. لمحت مكاني الأول، ذلك التجويف المظلم، البعيد، الذي خرجت منه إلى غير رجعة. كان كهفاً يردد صدى صرخاتي. وبقيت حتى اللحظة أسأل نفسي: لماذا لم أهرب من لسعات الملح والهواء إلى ذلك التجويف؟

النسوة يتحلقن، ويطلقن أصواتاً غريبة، وهن يحملن وعاءً نحاسياً يدرن به

twitter @mjanen٢٣

حولي وحول أمي. كانت الغرفة تعبق بروائح غريبة، وغابت الأشياء أمام الدخان المتصاعد من الوعاء النحاسي. ولكني رغم ذلك سمعت حشرجات غريبة، وأصابع تبحث عني في الضباب. كانت الستائر مسدلة، وصراخي لم يتوقف، والنسوة يواصلن الالتفاف والدوران. وفي كل دورة لهنّ أتلقى قرصة مؤلمة، فأعاود الصراخ، فيستعدن مرحهن مع بكائي المتعالي. كان على الجميع، وعلى كل من في الخارج، أن يسمع صوتي، ويتأكد من بقائي على قيد الحياة. كنت المولود السابع لأبي الذي لم ينتظر أكثر من دقائق، ليعود من حيث جاء، وليغرق في الألم، وتغرق أمي في الانهزام. لذلك لم يدخل أبي فوراً ليراني كما فعل عادة مع صبيانه الستة، وانتظر زمنا أطول حتى تأكد من بقائي على قيد الحياة. كان الجميع منشغلين بوصولي اليهم، يقومون ويحطون، وشيخ الضيعة يجلس مع والدي في الغرفة المجاورة، يتمتم، وأبي يرفع يديه إلى السماء. كانوا أشبه بمجانين يتحلقون حول لعبة غريبة. ولم ينتبهوا إلى ما حدث بعد ذلك. هدأت الأصابع التي تبحث عني، وتوقفت الحشرجات، واسترخى الفخذان، وانغلق التجويف المظلم. وفي اللحظة التي غطست فيها بالماء المملح، تحولت مساماتي إلى حُفَر. وبعد قليل كنت عبارة عن حفرة ملحية كبيرة. ولم أكن أنا حيدر العلي. لم أكن أنا نفسي. وأنت تعرف، أكثر من أي كان، أني كنت ألاحقك وتلاحقني. وأني سمعتك كثيراً، وسمعتني. وأن عينيّ لم تفارقا روحك، كيفما حلّت. أنا أعرفك، وأنت تعرفني. وعندما خرجت من تلك الحفرة المظلمة، وكنت أنا حيدر، رأيتك وتعرفت عليك. هل تذكر الزمن؟ هل تذكر الضياء والأنوار الخافتة في الشوارع القديمة التي حوّلتَها إلى مقابر؟

أنا أعرفك. كنت في ذلك الزمن أعيش معك، وكنتُ آخر قتلاك. أنا آخر من قتلك، وأنت أول من قتلني. هل نحن بحاجة للذكرى، كي نتعرف دماؤنا علينا؟ هل تذكرني؟ عندما خرجت من الظلام إلى النور، عرفت أنك لم تزل تلاحقني، لأن صورتك المتعددة الأبعاد والأشكال، شخصت أمامي. لم أكن

twitter @mjanen٢٣

حيدر، ولم أكن عبد الله، ولم أكن سعيداً. كنت كل هؤلاء، وأنت تعرفني وأعرفك، وتقتلني وأقتلك. هل تذكر ما قلتَه قبل أن تموت؟ لقد كانت روحي تجثم فوق جسدك، وأنا أراقب تمتماتك. كنت تهذي في احتضارك. هل اعتقدت أنك الخالد الأبدي، بعد أن صنعت جبالاً من جماجم؟ رأيت شفتيك الزرقاوين، تتفرجان وتنغلقان. في أي روح وأي زمن، وأي مسخ وفسخ، ليس مهماً. لكنك كنت خائفاً مني، وتقول: مالي ولسعيد... ما لي ولسعيد...

هل تعتقد أني قتلتك، بعد ان قبض علي والي مكة بأمر منك، وأرسلني اليك؟ لم تتوان عن قتلي، لحظة. كنت آخر قتلاك. وأنا حيدر، أعرفك... أعرفك. كنت قبلك، وبعدك. أنت من تتحول، وأنا من يتحول. وأنا وأنت من يهرب كلّ منا من الآخر. ولكنك دوماً قاتليْ ودائماً أجد طريقي اليك. تجذبني رائحة دمي المسفوح أبداً. وأعرفك أكثر مما تعرفني. أعرف أنك ولدت في الطائف، بعد هجرة النبي محمد بأربعين سنة. كنتَ رجلاً منضبطاً في خدمة بني أمية وسيوفهم. واستوطنت الشام. هل تذكرالشام في تلك الأزمنة، عندما لم تكن انت وتحولاتك قد مسختها إلى صحراء؟ هل تذكرني؟

رأيتك. وكنت حينها غلاماً يستمع إلى قصاص دمشقي، يقص على المارة سيرة العدل والشورى بين الناس. منعتَ الناس من ذكر سير الخلفاء المسلمين الأوائل، حتى لا يثوروا على مولاك. هل تذكرني؟ كنت انظر اليك بخوف، وعمري لم يتجاوز العشر سنوات، وأنت تمر بنظراتك على الناس، تمسح عقولهم وتحاول معرفة دقائق نفوسهم. أنا اعرفك، ولا تعرفني، لأني لحقت بك، أنت وجنودك، مبهوراً بالسيوف اللامعة على خصوركم. هذه السيوف التي ستجز رقبتي بعد سنوات، وأنت تضرب أعناق الناس. سأهرب منك إلى جسد آخر، وسأكون آخر قتلاك، وقاتلك.

أنا الآن أتسع، وتكبر حفرة الملح. والناس في هذا الزمن يزغردون حولي، وأنت تلاحقني رغم الفرح. تلاحقني بصورتك، وبضربات المنجنيق التي سقطت فوق الكعبة. أنت يا قاطف الرؤوس اليانعة، أعرف أن موتي قادم منك. أرى

twitter @mjanen٢٣

الدماء اليابسة التي بنيت عليها دولتك، وكررتَ وفررتَ على الحياة، وصرختَ بصوت عال: أنا ابن تهامة وهذه صواعقها.

أعرفك، ولاأعرفك. وما تزال تلاحقني حتى هذا الزمن الغريب الذي خلقت فيه أنت، أيها الخطيب المفوه والجلاد المتفرد. أنت من قتلت اكثر من مئة وعشرين ألفاً قبل أن تكون هناك بندقية وقنبلة نووية. أنت من رسم صورة الجلاد، وكنت زاهياً في الدماء التي عجنت التراب. هل تذكر الرجل الذي أردته أن يكشف عن مخبأ امواله؟ كنتُ هناك، انتفس معنى الطاعة. وضعته عارياً على قصب مشقوق، ذي حواف حادة، وكانت دماؤه تتبخر من صرخاته. كنت تحرك جسده فوق القصب. هل تذكر جحدر اللص الذي أطلقت عليه أسداً جائعاً؟

هل تنتشي بآلام الآخرين؟

هل تستمني على صرخاتهم ؟

أيها الأخفش الأعور ذو الساقين النحيلتين، الحافي من مكة إلى دمشق، تجر امرأتك إلى مخدع رجل آخر، ملكك الذي لم تعرف أن تقول له: لا.

أنت يا قطاف الرؤوس وسياف الرقاب، لماذا لم تقف بوجه هند بنت النعمان، عندما اشترطت على عبدالملك أن تقودها حافياً إلى الشام، شرط زواجها به؟ لماذا لم تطلع إلى الناس وتقول أنا... وأنا... وأنا؟

هل تعرف لمَ لم تفعلها؟ لأنك أنت كنت، وما زلت عليّ الضبع، الذي لم يعرف أن يقول: لا. ياجاني الرؤوس! يا قاتلي!

لماذا تتكرر، واهرب منك على فرسي؟

أخاف ان تكون لحقت بي إلى هذا الزمن. هل فعلتها، ورحلت روحك مع روحي؟ هل ستظل تلاحقني إلى أبد الآبدين؟ ألم يكن يجدر بروحك التحوّل إلى عماء، بعد جبال الرؤوس المقطوعة التي خلفتها في كل تجلّ من تجلياتك؟ أنت الوحش الجاثم فوق قلبي، اسألك لو تحولت إلى حيوان، هل كنت لتفعل ذلك، لو مسخت ذئباً؟ ألن تكون أرحم؟ الإنسان هو الحيوان الوحيد القاتل بين

twitter @mjanen٢٣

المخلوقات، الذي يقتل أفراداً من نوعه، ويعذبهم دونما سبب ودافع للبقاء. والانسان هو الوحيد القاتل لبني جنسه من أجل البهجة واللذة. حتى الذئاب، عندما يسلمها خصمها عنقه، تتركه حياً، هكذا غريزياً، ولاتقتله. قل لي: كم من الأحياء الذين سلموك انفسهم، تركتهم أحياء؟

ألم تحصد رقابهم أمام عيني، ولاحقتني لعناتك حتى النهايات؟ أنا الآن أهرب من صورتك، إلى عالمي الجديد، عالم أصبح فيه كائناً بشرياً يسمى حيدر العلي، وحفرة ملحية كبيرة تسمى أنت وأنا، وكلّ تحولاتنا السابقة واللاحقة.

لكني رغم كل شئ لم اعرف أن امرأة، هي أمي، لم تأخذ مشيمتي وتدفنها عميقاً بعيداً عند النهر. لم أعرف، صدّقني. ولذلك فقدت اتجاهاتي، واستطعت أنت السيطرة على حيواتي، لأنها هجرتني قبل أن تلدني. لم تذهب المسكينة، بعد اليوم السابع على مفارقتي، إلى النبع. لم ترم فيه حفنة قمح، ولا حتى رغيفَ خبزٍ مفتتاً، لأنها لم تكن بحاجة لجريان الحليب في ثدييها.

وأنا الوحيد، الوحيد من عرف لماذا رحلت، وتركت لي وجهها في المرآة.

كنتَ أنت السبب!

twitter @mjanen٢٣

أسبح في جلدي.

أهرب من نور إلى نور، وأحمل جلدي وحده.

ادور في مسبحة الزمن، ولا أعاود الصعود نحو الأعلى. لم تمنحني حيواتي وتحولاتي فرصة الدخول في النور الكبير. تظل تراوح بين منطقة وسطى من الظلام والنور. وأنا ما زلت اسبح في جلدي من مكان إلى مكان.

وكنتَ وما زلتَ تسبح في جلدك، معلقا معي في ذنب الظلام، تلاحقني. وهناك في أقصى ذنب النور، ما زلت أهرب منك.

twitter @mjanen٢٣

كان ياما كان، في زمن ما، عندما كان الوقت مايزال مرهونا بالكلمة، وكل من يحيط بالسماء يخترق النور. كنتُ هناك، كنت هناك مرميا تحت سطوح عتيقة، ولدا ضامر البطن، جاف الحلق، وأجّر ورائي كيس منامتي، وحذائي الوحيد. الأبنية الطينية، والشوارع الضيقة، تمر بدهليز رأسي. احفظها، واتخيل التواءاتها، وعبورالناس من حولها. كنت أدور في الشوارع، أبحث عن معلمي ليل نهار، أستاذي وفقيهي الذي علّمني تاريخ البشر وحسابهم، واختفى منذ أيام. أدور، أبحث عنه، في الحوانيت وعند الوراقين، وبين مجالس الفقهاء الخائفين من كل همزة لمزة، ومن العسس المنتشرين في كل مكان. العسس تحت الشبابيك. العسس في دور العبادة وفي المراقص. العسس في عيون الجيران، وتحت نقاب حور العيون. العسس في كل مكان. وأنا خائف على أستاذي، في ذلك الزمن، وأنا أخافهم. كانوا موجودين هناك في المستقبل في زمن ما، بانتظاري، وأنا أدّور عيوني. أراهم، العسس، تحت الشبابيك، وفي الباصات، العسس في المدارس، وفي ثرثرات الطبخ، وعيون الناس على الناس. العسس في تلافيف الدماغ، وعلى صفحات الجرائد اليتيمة، في خوف الأطفال من آبائهم، والزوجات من أزواجهم، والجيران من جيرانهم. العسس، ينشرون الخوف في السهول. إنهم أنفسهم من خفتهم يوماً، في زمن ما. عندما بدأت بلعبة الرواح والمجئ على خط الحياة، عرفت اني قادر على الانزلاق، والضياع بين ذرات النور. لكني لم اقدر على الهرب، ونسيان ذلك اليوم. لا أعرف إن كانوا في مدينة محددة الملامح، لكنها بين الشام والكوفة. مدينة تشبه كل المدن القابعة على خطين متوازيين من العدم، هي وناسها وذاكرتها. مدينة من سكر وملح، وأنا كنت أنتظر خبراً عن أستاذي الذي

twitter @mjanen٢٣

قبض عليه عسسك، عندما سمعت غلبة وجلبة، واستشعرت لهيبا يستعر في صدور العامة. كان رهط من الفقهاء صامتين، في زاوية من السوق المحشور بالبضائع والناس، وأصوات أبواب الحوانيت تغلق تباعاً، وكأن الدنيا ستقعد، ولن تقوم ثانية على رجليها. لا أعرف كيف شممت رائحتك، ولكنك تعرف أكثر من غيرك، ان تيهي في خطوط التحولات يجذبني اليك، تماما كالفريسة والصياد، والصياد والفريسة. كنت أحشر رأسي بين الجموع، وأتمرغ بين الأرجل، وسط ظلام، أحلم ببقعة نور أصل منها اليك، وأهرب منها منك. وسط سيقان الرجال المتحلقين، كجدار، وجدتك كما أنت، أيها الرجل المخلوق على رضاعة الدماء. ألم تقل كتب التاريخ كلها كيف نما جسدك؟ أنت تعرف؟ ربما لا تعرف. لكني أنا المتحول الذي لا ينتهي، والذي أراك وجها لوجه، بين حراسك وجنودك، وأنا بين سيقان الناس ابحث عن وجه أستاذي الممدد تحت رجليك، سأخبرك عن الدماء وما قيل عنك:

"... وأبى أن يقبل ثدي أمه، أو غيرها، فأعياها أمره، فيقال: ان الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة - طبيب العرب - فقال ما خبركم؟ قالوا: بني ولد ليوسف من الفارغة - أي أمه - وقد أبى أن يقبل ثدي أمه. فقال: اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه. فإذا كان في اليوم الثاني، فافعلوا به كذلك، فاذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود، وأولغوه دمه، ثم اذبحوا له أسود سالخاً، وأولغوه دمه، وادهنوا به وجهه، فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع. ففعلوا به ذلك، فكان لا يصبر عن سفك الدماء، لما كان منه في أول أمره. ورفضه يوم مولده الرضاعة من ثدي أمه..."

هذا أنت يارضاع الدماء. ولولا ذلك، لما وضعتَ شيخي وأستاذي فوق هذا القصب الحاد، ولويت عنقه، وعرضت صدره للريح، ونحره لحدّ السيف. لن أنسى تلك اللحظة، عندما نزل سيفك على النحر العجوز، وكل من حولي كان صامتاً، هادئاً. ومنهم من كان يشرب في قربة ماء، وآخر يلتهم رطباً من التمر، بعد أن عودتهم القتل والدماء، كما ستعودهم في أجيال لاحقة،

twitter @mjanen٢٣

التعذيب والصمت، الصمت الضروري، الحق الإلهي لوجودك. على الجميع أن يصمت، حتى يكون بمنجى من سيفك وسجونك، وحتى يصبح وأهله بمأمن من تنكيلك، وجورك، وكأنك نفسك لم تتغير، من مئات السنين. تقتل من يقف بوجهك، وتعذب أهله، وتمحو أثره، وتقف صامتاً، لوهلة، ثم تدافع، خطيباً فصيحاً، عن الله، والوطن والأمة، والخيانات. ألم يكن الحسن البصري من قال: ما سمعت الحجاج يخطب إلا ظننت أن أهل العراق يظلمونه.

وأنت منذ الأزل كنت، وستبقى، وتمتد أبعد من حدود الشام، وستقف لامعا شامخا بسجونك، وفقرائك، وعسسك.

كان الوقت يمر بطيئاً، والجثة المسكينة، لم تزل على حالها. وامتطيت نفسك وغبت مع العسس. بعض الناس هربوا، والأخرون بقوا، والقلة التي تجرأت وبقيت، انتظرت حتى غبت عن الانظار، وصارت تحدق بجرأة وفضول في الجسد المسفوح. ركضت اليك. كنت غلاماً، أجر جلبابي الممزق، ولففت جسدك بعباءتك. اذكر اني كنت اجهش بصوت مسموع، وأن بعض الأقدام تجرأت، وتقدمت، ثم شيئاً فشيئاً، تقدم الجميع، وحملوني بعيداً عنك، وبدأوا يعدون لمراسم الدفن. كنت اصرخ بهم أن يدعوني وشأني. كان صراخي يسبح تحت جلدي، وأنت لن تكتفي بقتل معلمي وستلاحقني. لكن الناس الذين لم يعرفوا بما يحدث، رموني بعيدا عن الساحة، في ركن بعيد، قرب زقاق مغلق على النوافذ الخشبية المحكمة الاغلاق، واخذوا جثة معلمي. البعض منهم حمل جسده. ورجل واحد، استطعت لمحه بين الحشود، كان يحمل صرة تنزف بالدماء. كانت رأس معلمي. كانوا صامتين، صفر الوجوه، لا يبسملون، ولا يحوقلون، ولا يتمتون. وعادت الظهيرة كما كانت من قبل، وكأن العالم لم يتغير. تفرقت السيقان، وعادت ساحة السوق كما كانت من قبل. كل شئ كان كما هو. وأنا المسافر في النور، كنت ارتجف بقلب طفل، وابحث بين الدماء المسفوحة على الأرض، والجسد القتيل، عن وجه الكلمات الحقيقية لما سأكونه. تيبست رجلاي، وصرت اصرخ. ترك الجميع معلمي. هربوا من

twitter @mjanen٢٣

بطشك، ولم يبق سوى ولد كئيب، يبكي استاذه المقطوع النسب، والأهل، والعنق.

ضاعت كلمات أستاذي، ووحدك بقيت.

twitter @mjanen٢٣

ذاب الملح وبقي الفراغ.

انا الآن في عودة لا رجعة منها إلى تلقف بصيص نور.

ادخل انزلاقا جديداً.

حول جسدي كانت تتراقص الملاءات والأغطية ذات الرائحة النفاذة، وحول قلبي الأدعية الخضراء المتراقصة. ربما منذ تلك الأزمان تحول قلبي إلى كرة زجاجية ممتلئة بماء الأدعية، وجُنّ البرعم الصغير الذي قطعه موت أمي، جُنّ وتحول إلى نبتة عملاقة، وقضى على ما تبقى لي من أيام. كنت أكبر، وأعرف أن صراخي يختنق في مهدي، وهم يروحون ويجيئون من حولي. يعفرون بصاقي وبرازي بالرياحين والزعفران، ويغنون لي قبل النوم أغنيات حزينة عن الفراق. أحاول الهروب من الدماء التي تلاحقني منذ أول التاريخ، إن كان هناك من تاريخ، واذا كان ما يدور في رأسي يسمى تاريخاً. وهل ولد التاريخ معي، من ذاكرتي؟ أم خلق قبلي؟ وجئت أنا المسفوح بالخطأ، قيداً جديداً فيه. لا أعرف! كنت أكبر بين يدي أبي القويتين، وصرخات تصمّ أذني من أزمان سحيقة، صرخات عن القتل والدماء، ورجال سود عمالقة.

هل أستطيع تحديد أكثر من تَحُّولٍ لي؟

أنا اذكرك، أذكر أنك قتلتني، ووحدت البلاد، وكنتَ امبرطوراً ثانياً. لماذا قتلتني؟ أريد معرفة سبب قتلك. فتحولاتي التي جاءت بعد ذلك تلح علي، انا ابن السنوات القليلة. قال الشيخ لأبي: سينسى جيله. عندما يكبر ينتهي كل شيء، وينسى أزمانه الماضية. لكن النسيان لم يوافني يوماً، من تلك الرائحة التي توقظني ليلاً على الفزع، وأنا اراك جاثماً فوق رأسي، تكلمني بصوتك الناعم الشبيه بصوت النساء. كان صوتك لا يليق بقائد عسكري. فأنا أعرفك

twitter @mjanen٢٣

أكثر من هؤلاء المحيطين بي، واستطيع الآن أن اروي للأولاد حياتك، من بدايتها إلى نهايتها، لأني كنت موجوداً فيك. أنت من قتل وقطع رأس كل من قال لا لبني أمية. وأنت من كنت تستلذ بالموت المجاني للبشر، بالحرق والسلخ والتقطيع. أنا اعرفك، ولا أنساك. لا أعرف الصورة التي كنتُ عليها تماماً في ذلك الزمن، سوى أني كنت رجلا حُزت رقبته من الوريد إلى الوريد. وكنت حبشياً، وفقيهاً متعلماً. واذكر اني دعوت الناس للخروج عن طاعتك، أنا وغيري، وقُتلت بواسط، وانك قُتلت بعدي ولم تتجاوز الخامسة والخمسين، لأني دعوت عليك قبل أن تحز رقبتي. رأيتك، وكنت جاثماً فوق رأسك، وروحك تخرج من جسدك. كنت عائماً فوق غيمة صغيرة، خمرية وباهتة، وانت رأيتني قبل أن تغمض عينيك، وطلبت ان انزل عن غمامتي، ولكني لم أفعل. خفت ان تسرق آخر تحولاتي، وانت تموت خفت من شهوتك للقتل، أن تستولي عليك، وأنت على فراش الموت.

اذكر، ولا أذكر نفسي. واسمع صليل سيوف جنودك، وهم يحرقون الأخضر واليابس، ويحولون البشر إلى قطيع أغنام، ويبنون السدود والطرق والعمارات الجديدة، ويسرقون تاريخ البلاد في جيوبهم. أنا اعرفك ولاتعرفني. هربت روحي من زمنك إلى زمن آخر، ولم تفارقني. هل تذكرني في تحولي الأخير قبل ان أولد في هذا الزمن؟ من كنتُ؟ هل تستطيع التذكر؟ انا الآن مشوش، وابن رجل مهم في هذا المكان، والجميع من حولي متأهب للقائي، ورضائي. هل تعرف أن جلّ ما اخشاه ان تكون استحوذت على روحي، وصرت أنا... أنت؟ وصار لزاماً عليّ أن اتقمصك؟ وإلا فما معنى هذا اللحاق المستمر لي، عبر رحلة تحولاتي إلى مستقري؟

twitter @mjanen٢٣

عندما كنت اكبر يوماً بعد يوم، واتحطم بين نفسي وكينوناتها، كانت تراودني الرغبة بالنوم الأبدي، والسبات بين ثنايا جلدي، واحلامي الكابوسية. الشخص الوحيد الذي كنت أجرؤ على التصرف أمامه بحرية، كان دلاّ التي تصغي إلي، وتسمعني في هذياناتي.

تهرب من أمها، وتتسلق جدار غرفتي، وتأتي بالديس الأحمر والتين. ما زلت اذكر الخدوش المنتشرة على كفيها، وهي تلقمني الحبات الحمراء الصغيرة، ثم تجلس أمامي، وأنا احدثها عنك، لأني حتى تلك الأزمان كنت ما ازال احتفظ بوجودك داخلي. وكانت دلاّ تجلس بالقرب مني ممسكة يدي، وأنا ابكي. وما إن أبدأ الحديث عنك حتى تبدأ بالبكاء، وتمسح دموعها الغزيرة. كانت دموع دلاّ طارئة على العالم، ولطالما استغربتها. كل دمعة بحجم حصى صغيرة تتدفق من عينيها بغزارة، مدورة ولامعة. وعندما انتهي من هذياني عنك، تكون عيناها محمرتين، وصوتي مبحوحاً، ولهاثي ساكناً، نسمع صراخ أبي أو أمها. ولم نكن نملك في ذلك الوقت سوى الاختفاء. أنا في فراشي، وهي إلى النافذة التي تقفز منها حتى الأرض. وفي كل مرة كانت تقفز، أخال نفسي سأفقدها، فأشعر بالخوف، واقرر في مرات اخرى ان آخذها إلى البرية ونلعب معاً. كانت تلك اللقاءات تجعلني اقل جنوناً، وابتعد عن عالمك المسكون بالصراخ. وكنت اتصور انك ستفيق من نومك، وتجهز جيشاً كبيراً، وتسلخ جلدي كما فعلت بالكثيرين. وعندما كنت اروي لأبي عن خوفي منك، كان يقف طويلاً ممسكاً رأسي بين يديه، ومتمتماً بآيات قرآنية، حتى صرخت يوماً بوجهه، وأنا اكاد اختنق من يده القوية التي ضغطت حنجرتي، وشعرت بأني سانفجر. في ذلك اليوم، وأبي يمشي بين الأشجار، ساهماً، وأنا شارد فيك. هو

twitter @mjanen٢٣

يحاول أن يجد مبرراً لما يحدث مع ابنه الوحيد والسليل الأخير لعائلته الأميرية التي كادت تنتهي، كما قال يوماً، وأنا الذي يقع عليه عبء مسؤولية استرداد مجده الضائع. أنا هو ذلك الوحيد الملعون الذي ضيع آخر امل لبناء عائلته من جديد، وأنا ايضاً من بقي على تخوم الخوف منك، حتى اليوم الذي اتحدث عنه. كان أبي ساهماً، وأم دلاّ ودلاّ تخبزان الخبز على التور. كان منظر التنور حارقاً ومألوفاً، وكنت احاول الاقتراب منه، فأتعرق. أحسست بالخوف، عندما اجتمع أبي وأم دلاّ، يهمهمان بكلام غريب، ويتجهان نحوي. كانت دلاّ ماتزال واقفة بعيدة عنهما تغطي عينيها بيديها، وهما يحدقان في. كنت مدللاً عند أبي حد الترف، ولم أحظَ يوماً منه إلا بالاهتمام والقلق، ولوثة النبوءة بأني باعث جديد لدماء عائلتي الأميرية. لذلك استغربت عندما اقترب مني. كان الوقت غروباً، وهو يؤدي صلاته وحيداً كالعادة، وأنا شارد فيك، أهرب من اطيافك. امسكني أبي من ذراعي، ونظرت أم دلاّ في عيني. كانت تلف حول رأسها منديلها الذي بقي على رأسها حتى يوم موتها. اقتربت من وجهي، وامسكت بذقني، وحدقت بعيني. وأبي، الذي هزته نظرات فزعي، تركني وقال: أي جبان لدي! فابتسمت أم دلاّ وقالت:

- وحق الله، لو تسمع مني... فإنك ترتاح. دعني ابصق في فمه، فينسى جيله، ويصمت عن الكلام.

افلتني ابي وقال: طيب... طيب، وابتعد خطوات عني. كانت دلاّ في تلك الأثناء تطقطق أصابعها، وتحاول استراق النظر كأن أمراً خطيراً ومخيفاً سوف يحدث. حملتني أم دلا، وكنت خفيفا كريشة، رغم أعوامي السبعة، ووضعتني في حضنها، وصارت تسألني عنك: من أنت؟ وكيف أتيت؟ ومن أنا؟ ومن كنت في حياتي السابقة؟ وكنت أجيبها، أسرد لها تفاصيل غريبة، تفاجئني صورها إذ تخرج من فمي، عن البلاد التي حولتها إلى رعب، وعن الرؤوس اليانعة التي قطفتها وحصدتها. كانت تصغي بانتباه، وفجأة، وأنا أرفع صوتي عالياً، بصقت في فمي.

twitter @mjanen٢٣

ولم أعرف ما حدث بعدها، وكيف. لكن ظلاماً كثيفاً انهمر من حولي. فقدت وعيي، وآخر ما لمحته كانت دلاّ، وهي تركض باتجاهي، ودموعها الكبيرة تتقافز على وجهها.

twitter @mjanen٢٣

بقيت محموماً في الفراش، بسبب تلك الاهانة التي وجدت نفسي اتلقاها. لكن أم دلاً متأكدة انني سأتعافى، وأن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه. وأنا لم اكن اعرف ما الذي يحدث، لكن فراشي كان مبللاً بالعرق، وأطياف سوداء تحوم فوق رأسي. عرفت أنك لم تعد موجوداً، ولم اتعرف عليك بين تلك الأطياف الراقصة. ودمي الفائر بك، صار هادئاً. كنت استيقظ بين وقت وآخر، فأجد أبي جالساً بالقرب مني. وأرى رجالاً كباراً في السن بثياب بيضاء وسوداء، ولحى كالثلج، يحيطون بسريري. كانوا يتحلقون حولي كأني محتضر، والرغبة عندي بالنوم إلى الأبد تظلّ ملحة، فأعاود الغياب.

كم استغرقت وأنا على هذه الحال؟ لم اتبين الزمن. كان الألم الذي عاناه أبي شديداً. وحين تعافيت، وقمت من فراشي، استطعت بوضوح تبين ملامحه. كان أكثر نحولاً، وحول عينيه هالتان سوداوان، ويداه ترتجفان وهما تمسكان مسبحته الطويلة. لكنه ما إن رآني نازلاً الدرج صباح يوم خريفي، تلفني رائحة غريبة، حتى وقف منتفضاً، واسرع لحملي واحتضاني. كان يبكي، وكنت أراه للمرة الأولى يبكي، ولكنها لم تكن الأخيرة. أما انا فكنت مأخوذاً بتلك الرائحة، وبالأطياف الغريبة والجديدة التي اعتقدت أنها اخذتني منك، انا الذي لم اعرف انك لحقتني إلى زمن آخر، وكنتَ في ذلك الزمن تراقبني. لم اكن مجرد فتيل من قتلاك. عرفت ذلك من اللحظة التي استعدت فيها وعيي، بعد أن نسيتك في تجليك الأخير. عرفت وأنا انزل الدرجات الحجرية، وأبي ودلاً وأمها حول التنور، اني جئت من ذلك المكان المشتعل. الرائحة تعيدني اليك. كيف؟ لم أعرف، ولكن تلك االرائحة صنعت تجلياتي القادمة. كدت اسقط عن الدرجات، وأنا انتظر قدومك الجديد. رفعت يدي

twitter @mjanen٢٣

إلى دلاّ وصرخت: دلاّ! شعرت أن عليها ان تمسك بيدي وتأخذني إلى التنور.

كانت ام دلاّ تبكي من الفرح، وتزغرد عندما التفتت إلي، ودلاّ إلى جانبها تمد التنور بالحطب وتراقبني. وبدل أن اجلس بالقرب من أبي، مشيت إلى التنور. هذه الرائحة أعرفها. ووجدت نفسي اقترب منه. كانت العيدان المضيئة تقتلني. وفجأة مددت يدي نحو النيران. ها أنا الآن اعرف نفسي من جديد، وأعرف من أنت. عرفتك كثيرا، وعرفتني أكثر. كانت أم دلاّ تصرخ، وأنا ممسك بعود من الحطب المحترق، ودلاّ مذعورة. إنها الرائحة، هي نفسها. احتراق لحم بشري. أنا تلك الرائحة.

twitter @mjanen٢٣

الألم المعتاد لذبيحة يوم العيد لم يفارقني. كنت اهرب من الأدعية والصلوات، والروائح المخنوقة في جلدي، إلى علي حسن.

كان علي صديقي الوحيد، وكنت ازوره أنا ودلاّ خفية، ونبقى ساعات طوالاً نلف الأراضي البرية الخضراء، حتى نصل الأحراش المخيفة، والتي كانت لغزا بالنسبة لعقولنا الصغيرة. كانت دلاّ أكثرنا جرأة، وهي تخطو أولى خطواتها نحو الأحراش، وعلي يتأمل ما سيحدث، بعد ان تختفي لدقائق بين الجذوع الضخمة للأشجار والنباتات الطفيلية الشائكة الملتفة حول الأغصان. كنا نرتجف أنا وعلي عندما تختفي دلاّ، ويحل صوت الصمت، وأزيز الكائنات الصغيرة. ولانلبث أن نطلق صياحاً عالياً، ونلحق بدلاّ، مقتحمين الغابة، بأصوات عالية وصدور منفوخة. نراها تمشي لامبالية بأصواتنا، وهي شبه مجنونة، تحملق فيما حولها بغرابة. نصل إلى جانبها، ونقف، ولا نتفوه بحرف. كنا نتوغل في أعماق الغابة، وكانت دلاّ تعود بنا من نفس الطريق، وكأنها تعرفه منذ آلاف السنين. وما إن نصبح خارج المكان المسحور، حتى تتحول إلى شخص مختلف. كانت تكره علي، وتسبه وتشتمه وتصفه بالجبان. تتركنا نمشي وراءها بصمت، وترمقني بنظرات حادة، وأنا اشعر بالخجل يقتلني. أما علي فكان ينتهز الفرصة بين حين وآخر، لينتقم من مسبات دلاّ وشتائمها، فيضع لها في حذائها البلاستيكي قطع زجاج حادة، أو ينقل لأمها أخباراً عن مغامراتنا الخضراء، فتنال دلاّ نصيبها الوافي من العقاب. كان علي مختلفاً عني وعن دلاّ، لكنه الانسان الوحيد الذي استطعت مرافقته رغماً عن أبي. وهو الوحيد من بني البشر المحيطين بي، عدا أبي ودلاّ، مَن التصق بعالمي وصار جزءاً منه. كنا لا نفترق أبداً.

twitter @mjanen٢٣

اقتنع أبي بوجوده الدائم في حياتي، رغم اعتراضه على عائلته ونسبه. لكنه اقتنع أنه سيكون مسلياً لابنه الوحيد، ووريث عائلته القادم. وعلى الرغم من وجود علي ودلاّ، وذهابي إلى مدرسة داخلية في اللاذقية، وانهماري على الكتب والقراءة، فإن تلك الرائحة لم تفارقني، وصارت تأتيني في الليل والنهار. وعاودتني الكوابيس، كوابيس سوداء وحمراء عن النيران. حرارة ووهج دائري يحول أيامي إلى رماد. كنت مشتعلاً كلحظة برق، انتظر بحرقة عودتي من المدرسة إلى القرية، لأخرج ما في جوفي من نيران مع دلاّ. دلاّ المستعدة لسماعي دائماً، بعيداً عن أبي وعلي الذي كنت أخاف أن يعتبرني مجنوناً. تحولاتي بقيت بعيدة عنه. كان قريباً وحميماً جداً، وكان بعيداً، كنجمة. كنا عالمين مختلفين، هو بيديه المفتولتين وجسده الضخم ووجنتيه البراقتين، وأنا بظهري المنحني وطولي الغريب، وشردوي. كنا نشكل ثنائياً مضحكاً. لكن أياً منا لم يفكر، حتى وقت طويل، أن يكون موجوداً دون الآخر. وبقيت زمناً طويلاً حتى عرفت انه الأقرب لتحولاتي تلك، أنا الهارب منه وهو الملتصق بي.

كانت الروائح تزداد وأنا اقترب من الاختناق والموت، يوماً بعد يوم. انتظر العطلة الصيفية بجلد واحتضار، حتى أرى دلاّ، واغفو في حضنها لحظات، وأبكي وأحدثها عن احتراقاتي التي لم أدركها. كان الوهج الأحمر يلاحقني فأعرف انك تأتي منه، وأن تحولي الجديد لم يبعدني عنك بالقدر الذي قريني منك. لكني حتى تلك الآونة، وعندما كنت ادخل مرحلة الشباب، محاطاً بدلاّ وعلي وأبي، لم أدرك من أنا، ومن أنت، حتى اليوم الذي قمت فيه من نومي ورميت نفسي في التنور. قامت الأرض عن مستقرها ولم تقعد، لأن أم دلاّ، ورغم الظلام الشديد، لمحت طيفاً غريباً لفتى نحيل يتكوّر كالأفعى، ويرمي نفسه بفوهة التنور الواسع الذي ستقوم بإعداد الخبز فيه، فجر اليوم التالي.

كنت ملتاعاً من وهج النار، محمياً بأنفاسي الزائلة، امشي وراء حقيقتي، كأبله سعيد. لم افتح عينيّ تلك العشية إلا على صراخ من حولي، متكوراً حول أعضائي، وظامئاً للنار الأخيرة المتسعة في ذاكرتي. كانت الروائح تبعدني

twitter @mjanen٢٣

عن صياح أم دلاّ وأصوات اللطم الآخذة بالاتساع فوق الخدود. افتح عينيّ واغمضهما على مشاهد غريبة لم تكن بعيدة عن ذاكرتي. الآن عرفت من أنا. عندما فتحت عينيّ، وجدت أني مختلف عن نفسي. لم أكن ارتدي العمامة، وهذا ما وجدته غريباً. ولم تكن الروائح من حولي تعبق بالبخور، ورائحة عطور نفاذة. لم يكن المكان الذي ارقد فيه شبيهاً بالفناء الواسع الذي قدمته لي، كما فعلت مع أغلب كتّابك ومريديك. كان كل شيء مختلفاً.

في أي تحول أعيش الآن؟

بعد ان كنتُ آخر قتلاك أعود اليك. أنت لم تكن أنت. وأنا لم أكن أنا. ولكنا كنا كلانا كما نحن دوماً. اعرف انك الأمير... كنتَ الملك؟ الخليفة ؟ ما الذي كنتَه ؟ لا اذكر. في تحولي هذا، أيها اللاحق الأبدي لروحي، لا أذكر شكلك، ولماذا ارسلتني للعذاب. لكني اذكر المشهد الأخير لنا معاً. احفظه وأود الرجوع اليه. اشمه، ويظهر متجلياً واضحاً كدموع دلاّ. كنت واقفاً بين رجلين غريبين، وصوتك يرن في أذني وكلماتي. من أنا ؟ أبو محمد كنت؟ الكاتب الذي رميت جسده قطعة قطعة، وشويته، أمام عينيه، هل كنت أنا هو؟ هل شممت رائحة شواء لحمي كما يقول التاريخ؟ هل خلقتك من خيالاتي وقراءاتي؟

اذكر ذلك اليوم. اعرف شكل التنور المدور، وعيون الرجلين الغريبين، وعذاباتي. عرفتك من عذاباتي، وعرفت عذاباتي من روحي. وعندما انتشلتني الأيادي من التنور، أدركت تحوّلي.

هنا قتلتني، على نار تخرج من الأرض. كنت واقفاً، أمام التنور المشتعل، وعيناي تتوسان بالتعب والألم، وكنت قررت قتلي لأني لم استطع الصمت عن خرافة أبديتك وشهوتك للموت. وكنت أتساءل لماذا قُدّر على روحي ان تعشق الموت معك؟ هل هي اللعنة ؟ أم أننا كنا في زمن، الوجه الآخر للتحول، لا نعرف سوى الذل والطغاة؟ وأنت، هل كنت سعيداً بنا لأننا محنيو الرؤوس؟ واذا كنا كذلك، لماذا أنهار الدماء التي ارقتها على التاريخ لتبقى؟ افلاطون

twitter @mjanen٢٣

المتحول، حائر في اتجاهاته، وروحه هائمة لا تعرف القرار، تراقب تحول موتي الجديد. كنت واقفاً، ويمسك جنودك بيدي. هل تريد أن تعرف ما الذي خطر لي لحظة سقطت البلطة على يدي؟ لاشيء سوى الخوف! كنت خائفاً من الألم، وأتحين الوقت للموت والانتهاء من هذا كله. ولكني لم أعرف أي وليمة تعدّ شهوتك إلى القتل.

twitter @mjanen٢٣

"... أيها الملك. انك في منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين اسسوا الملك قبلك، وشيدوا دونك، وبنوا القلاع والحصون، ومهدوا البلاد، وقادوا الجيوش، واستجاشوا المدة، وطالت لهم المدة، واستكثروا من السلاح والكراع، وعاشوا الدهور، في الغبطة والسرور. فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر، ولامنعهم من اغتنام الشكر، ولااستعمال الاحسان إلى من خولوه، والارفاق بمن ولوه، وحسن السيرة فيما تقلدوه، مع عظم ما كانوا عليه من غرة الملك وسكرة الاقتدار. وإنك ايها الملك ـ السعيد جده، الطالع كوكب سعده ـ قد ورثت أرضهم وديارهم، وأموالهم ومنازلهم، التي كانت عدتهم، فأقمت فيما خولت من الملك، وورثت من الأموال والجنود، فلم تقم بذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت وبغيت، وعتوت وعلوت على الرعية، واسأت السيرة، وعظمت منك البلية. وكان الأولى والأشبه..."

هل اذكر هذه الكلمات؟

هل هي أنا أم أنا هي؟

هل كنت حروفاً وكلمات؟ وتحولت الكلمات إلى كائن حي، أم أنا صاحب الكلمات أم ناقلها؟

الكلمات، تشع من داخل التنور، وتشتعل الكتب والكلمات بالنار.

"... وتقفو محاسن ما أبقوه لك، وتقلع عما عاره لازم لك، وشينه واقع بك، وتحسن النظر برعيتك، وتسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره ويعقبك الجميل فخره، ويكون ذلك ابقى على السلامة، وادوم على الاستقامة. فإن الجاهل المغتر من استعمل في أموره البطر والمنية. والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق، فانظر ايها الملك ما ألقيت اليك..."

twitter @mjanen٢٣

الكلمات تشع من وهج النار في التنور.

"... فلما فرغ بيدبا من مقالته وقضى مناصحته، أوغر صدر الملك، فأغلظ له في الجواب استصغاراً لأمره. وقال: لقد تكلمت بكلام ما كنت اظن أن أحداً من أهل مملكتي يستقبلني بمثله، ولايقدم على ما أقدمت عليه. فكيف أنت مع صغر شأنك، وضعف منتك، وعجز قوتك؟ ولقد اكثرت لاعجابي من اقدامك عليّ، وتسلطك بلسانك، فيما جاوزت فيه حداً، وما أجد شيئاً في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك، فذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يبلغ ويروم ما رمت أنت من الملوك، اذا اوسعوا لهم في مجالسهم. ثم أمر به ان يقتل، ويصلب..."

twitter @mjanen٢٣

الرؤية المحددة للعالم تعتقل العقل، وتبقيه أسيراً.
الجنون نوع من أنواع الاخلاص للذات.
من هو أغرب الغرباء؟
من هو أغرب الغرباء يا توحيدي؟

twitter @mjanen٢٣

هل كنت ذلك المصلوب، أم حال لسانه؟ وهل لحقت بي من زمن إلى زمن لأقتلك، وتقتلني؟ أي طاغية كنت ومن أنا؟

أرى ما حدث. أرى كل شيء بوضوح. كانت دمائي تفور من يدي المقطوعتين، وكنت على وشك فقدان الوعي، وأنا اشم رائحة شواء لحم. لحمي، ودمائي، وعروقي تتبخر في المكان. والكلمات، الكلمات تتداعى في مخيلتي، ولغات غريبة تحرك لساني. هل تكلمت في جيلي ذاك غير لغتي؟ وهل كنت أحمل موتي لحظة لقائي بك؟ كل شيء يبدو غائماً، ونسيت من كنت. لكني أشم رائحة الشواء، واتذكر اصبعي يدي المرميين في التنور. اتذكرهما وهما يرسمان بالحبر الأزرق كلمات غير مفهومة، أحرفاً طائرة، وصوتك، يهدر، ويأمر بقتلي. الأصابع تحترق، والدخان يعمي المكان. كنت أصرخ، وهم يقطعون جسدي، لم يبق سوى ثوان، واسقط في الظلام نحو تحول وعماء أوسع. سقطت أرضاً، وحملني الجلادان لأرى بقية أعضائي تحترق. كانت الرائحة تنتشر في المكان. وفي عيني الرجلين اللذين يقومان بحرق أعضائي وتقطيعها، رأيت ذلك الزهو المريك. كانا يستنشقان رائحة لحمي المشوي، وتبرق عيناهما بلمعان سعيد ويقترب رأس أحدهما من فتحة التنور، ينظر بنهم وفضول، ويراقب اختلاجاتي الأخيرة. جسده يتوهج ويكبر، وسرواله ينتفخ. كان يبدو سعيدا، وأنا أصرخ من الألم. يتشق رائحة لحمي، باستغراق ومتعة. يمد وجهه. يدور عينيه داخل التنور باحثا عن فرقعة الشواء. وعندما انتهى من دوران رأسه إلى اليمين واليسار، قفز وانهال على جسدي بالتقطيع، وعاود انتفاخه ولذته بالرائحة.

ما شكل العذاب؟ وكيف يكون؟ تختفي تلك المشاعر، ويختفي كل

twitter @mjanen٢٣

شيء، وتتحول الحياة إلى لعنة. كنت بلا رجلين، بلا يدين. رأسي فقط، يحمل قلبي الضعيف، وأنا أسأل نفسي لماذا كل ما حدث؟

الصراخ.

الصراخ.

الصراخ، والدماء.

لم اتذكر السبب الذي دفع بهؤلاء لحرقي وتقطيعي. اذكر المشهد الأخير، وأنا اخرج من ذلك الجلد، أبدل قميصي العتيق وروحي تراقب الجسد المشوه. كانوا يرفعون البلطة الحادة ويهوون بها على الرأس الجامد. منذ تلك اللحظة لم أعد انا هو. وصرت كائناً آخر في زمن غير محدد الملامح. من هو؟ لم أذكر، ولم أعرف، لكن رائحة الشواء تلاحقني وتجعلني مغيباً حتى عن موتي الجديد. ذلك المشهد الذي استيقظت عليه، وأنا أكور نفسي داخل تنور أم دلاّ، محاولاً استعادة موت مرّ ذات زمن بروحي، وخلعت منه جلدي، لأرتمي بزوال آخر.

متى انتهى المشهد؟ انا الروح الملعونة والموعودة بالصلب والحرق واللعنات الأبدية، صرت على يقين أنني ألعب معك لعبة مملة من المطاردة والسباق نحو القتل والموت. أدركت أنك في كل مرة، كنت قاتلي الجديد. وكل من حولي لم يفهم ما الذي يحدث، كانوا يعتقدون اني مريض. فقط دلاّ، كانت تسرق نفسها آخر الليل، وتأتي قربي وتجعلني ابكي على هواي، وأتكلم، واهمس، واصرخ، وتقتنع بكل ما أقوله مصغية إليّ كطفل. وحدها فقط عرفت أي عذابات تلاحقني، وظلت وحدها بعد أن عرفتك في زمني هذا، مَن تستمع إلي. كانت ثقب السعادة الوحيد في جدار الألم. كانت الوحيدة من حملني على البقاء، في الطفولة التي ارهقتني بتحولاتي، ولم تكف عن اللعنات حتى جاء اليوم الفاصل، قيامتي الجديدة وآخر جلد أدثر به روحي هرباً منك. نسيت كل شيء وهدأت الدماء الصارخة التي تطالبني ببعث الدماء من التراب، وصنعها من جديد. كل شيء انتهى، بعد ان التقيت روحي التائهة.

twitter @mjanen٢٣

انا لا أرجع إلى أعضاء جسدي. وتهرب مني حتى يداي. روحي تزوجت من جسد آخر، وتركتني وحيداً.

أنا العائد من البداية إلى النهاية، والراجع من النهاية إلى البداية. وأنا الميت الحي، والحي القائم، والميت القائم. غرّبتني روحي، وشرّقت مع أجساد غريبة.

من أنا؟

هل كنت الروح الشارقة، أم الجسد الغارب؟

twitter @mjanen٢٣

الولد الأنيق الذي كنت، لم يكن غريباً عن سباحتي داخل جلدي. كان إلى حد ما رفيقاً لها، وأنا أدوس كل يوم على درج حجري سيهترئ بعد زمن. وسأظل أدوس عليه دون فقداني حسّي باني كنت، ومازلت، داخل تحول واحد لم يرهقني أكثر من ستين سنة. وبين فرط من الاهتمام والقلق، وأيام الأحراش مع دلاّ، كنت أكبر، مستعدا للنهايات. ولم يكن من شيء يحيط بوجودي يعلمني معنى ما كنت، وما سأكونه، اكثر من تلك الرحلات الساحرة إلى بيروت والشام. عالم أبهى من السحر، الذي كان عقلي يألفه قبل أن أولد.عالم من الضجة والصراخ والأوراق التي أخذتني إليها منذ الطفولة، ولم تُعدني كما كنت. الأوراق الصفراء داخل مجلدات سميكة. رائحة الورق، لونه، رسم الكلمات، تجعلني لا اقاوم سحر غيابها عن الموجودات الحقيقية من حولي. سحر الحكايات، ومتعة الفرق في حياة بشر خلقناهم، وصنعناهم، وبكينا عليهم. متعة الاكتشاف، كأنني كنت ألف حيدر داخل كل تلك الحكايا والقصص الغريبة، والرحلات الساحرة التي قرأتها. كنت مولعا بشراء الكتب، وكان أبي ابراهيم بك لا يرفض طلبا لابنه المريض، كما سمعته يردد للشيوخ دائما. فبالكاد أذكر أمامه ما أريد من الكتب، حتى يحضرها بسرعة عجيبة. وكنت ادون أسماء الكتب التي يمليها علينا الأب الياس،أستاذ اللغة الفرنسية في المدرسة الداخلية. كان يعرف أني اسافر بين حين وآخر إلى بيروت، فيوصي ببعض الكتب. وكنت لا أرفض له طلبا، فنقضي عدة أيام نشتري فيها الكثير من الأشياء، وأهمها الكتب الفرنسية، وكتب الشعر، والرحلات. وكان أبي يصر في اسفاره هذه على اصطحابي، لكنه يتركني ليلاً، فيغيب ولا يعود الا مع طلوع الفجر. وأنا في لياليّ الخائفة، بين جدران

twitter @mjanen٢٣

غرفة ملونة، في نزل صغير مطل على بحر بيروت، كنت اقضي اجمل أوقات القراءة، والمتعة، والاحساس بالطيران. تلك الليالي، والرحلات، وشوارع المدينة الغريبة، وسحر الورق الأصفر، جعلتني بعد ذلك أدمن السفر إلى تلك المدينة. وبقيت معلقا فيها إلى أن اخذتني دمشق من أغوائها، وغبت عن سحر الطفولة ذاك في تحولاتي وأحلامي. ولكن رغم تلك الرحلات التي كانت تتم أثناء العطلة، حيث يسمح لي بالخروج من المدرسة الداخلية لوقت قصير فقط، فإنّي وجدت في الحرش وألعاب دلاّ الملجأ الحقيقي لروحي. كنت في العاشرة، لكني عرفت أن تحت جلدي أناسا عاشوا وماتوا، وعاشوا وماتوا، ولايزالون يعيشون هناك، بعيدا في عتمة القلب والعقل.

كان كل شيء مغلفا بالحيطة والحذر والريبة. أبي الخائف والمرتجف. أم دلاّ التي تدور حولي أينما تحركت. أدعية الناس في القرية. حتى دلاّ رفيقة طفولتي، كانت تعاملني كآنية زجاجية، من السهل تهشمها. ولم اهتم بفكرتهم عني، وبما يقولون، حتى في المدرسة الداخلية. وعندما كنت اقضي ايامي الطويلة بين كتب الدراسة والطلاب الغرباء، والأساتذة، لم اشعر ان كل هذه الكائنات والأشياء تنتمي إلّي. كانت موجودة، كخلفية صورة، تتغير فقط في دماغي، وليس على أرض الواقع. كنت مغيبا في نقطة ما عن عالمهم، نقطة تراوح بين زمن مضى، وآخر قادم. وأنا الحقيقة الموجودة من لحم ودم، لم أكن موجوداً، ولم يستطع أي منهم ادراك ذلك. ربما بعد زمن فعلت دلاّ ولسنوات قليلة، قبل أن اكبر داخل جلدي، وأهرب منها، ومن الحرش، ومن صرخات الدماء. أنجو مع كتبي، من الطوفان الذي سيبتلع كل شيء... كل شيء!

twitter @mjanen٢٣

في الحكاية، كنت مغيباً ومنسياً

مازلت في ساحة السوق.

وأنا اليوم، لم اعد الولد، ضامر البطن، جاف الحلق، الذي يبكي معلمه. كنت حيدر النائم فوق سريره الأبيض، وسط غرفة كبيرة، ممتلئة بالتلاميذ، وأصوات تتفسهم الرتيبة، محملقا في سقف الغرفة، ومنتظرا يوما دراسياً جديداً، يبعدني عن هذا السجن الكبير. وكنت في الساحة، ساحة السوق الفارغة إلا من دماء طازجة، تمشي بهدوء فوق الحجارة الناعمة المرصوفة وتنتظر ماء يزيل فضيحتها. أراقب جسد معلمي الذي قتلته بسيفك. اتطلع إلى السقف، في الغرفة، والدماء تسيل. اغمض عيني خوفاً من حلمي، أنا الولد، المغبر المعفر، الذي شهد موت معلمه على يديك، اتطلع إلى السقف، افتح عيني بقوة اكبر، واتذكر اني لم أكن يوما مغبراً ومعفراً. لكني كنت كذلك، احاول معرفة الوهم من الحقيقة. لا استطيع، واضيع إلى ما لا نهاية، اضيع محملقا في سقف المدرسة الداخلية، وفي ساحة السوق هناك، بعيدا، حيث كانت مدينة تطفو بين الشام والكوفة.

قبل أن أتجاوز العاشرة، لم اعرف من كنت. كيف عشت. كيف تنفست. بعد صرخات ولادتي، ضاعت الدنيا مني وسكنني عماء، لم اتحررمنه حتى بدأ عقلي يتحرك نحوك. اتذكر اني دخلت شرنقة، لا تشبه رحم أمي الذي رماني بعيدا عن الأمان، وتخلى عني، وتركني وحيداً، إلا من تحولاتي، واغمضت عيني، وأغلق أبي الشرنقة. كنت لا أخرج ابدا من البيت إلا على صهوة حصان. ولا آكل، إلا وأم دلاً تجلسني في حضنها وتطعمني. ولا ألبس، حتى يأتي أحد ما إلى بيتنا، ويحركني ويدورني، ثم يعود بعد أيام، حاملاً ثياباً

twitter @mjanen٢٣

وألواناً، لم اخترها يوما، لكنها في النهاية، تكون تماما مشابهة للملابس التي يرتديها والدي. حتى الألوان، كان يأتي بها متشابهة، وكنا نبدو أشبه برجلين أحدهما مضحك يسمى حيدر والثاني صارم يسمى ابراهيم بك، الذي أراد أن يصنع مني رجلا كبيراً بعد بلوغي العاشرة. وكنت اقوم بهذا الدور، حتى بعد أن كبرت، وعرفت أن تلك الأحلام الغريبة لم تكن هذيانا، ولم تكن أحلاما، أو خيالات لما قرأته، بل كانت شيئا حقيقياً اكثر من وجودي نفسه. كان أبي يتباهى بي بين الجنود والضباط الفرنسيين الذين كان يقوم بدعوتهم إلى بيتنا، ويجعلني اقرأ لهم بالفرنسية بعض الأشعار، ثم ينسحب في الظلام، ويسب عليهم، وعلى الذي جاء بهم إلى البلاد. لكنه أثناء تجوالنا بين بيروت واللاذقية ودمشق، وعندما كان يمر من أمامهم، كان يردد بابتسامة: بونجور مسيو.

أنا استغرب الخوف والرعب والانحناءات التي لم اعتد عليها. كنت مدفونا داخل روحي، وأبي يحدثني عنهم، وكيف يأخذون الأرض من الناس ويقتلونهم. وكيف سيفعلون ذلك معه، في يوم من الأيام، عاجلاً أم آجلا.

كنت في الف اختناق، وأنا اسمع القصص عنهم، واصمت. وأرى ضحكات أبي، واصمت. وألمح من بعيد خوف الناس منهم. كان الخوف الوحيد الذي شعرت أنه يفوق خوفهم من أبي. وعندها فهمت سبب كره ابي لهم، واستطعت معرفة السبب الكبير الذي يدفعني لرفض ارتداء ملابس تشبه ملابسه. بعد ذلك بسنوات كانت تلك الملابس وعاء النسيان الذي تسربت منه حياتي. عرفت ذلك، عندما كنت أعود إلى فراشي خارج تلك الملابس، وأبدأ بالتحولات، والسباحة الواسعة العميقة، تحت جلدي.

لم اكن الأمير المنتظر لعائلتي. وأدركت أن ما ينتظرني أهم من ذلك، عندما عرفت أنك تلاحقني، وأنك سفاح الدماء لن تغلبني هذه المرة، لأني كنت فارسا قادما من تحت جلدي.

twitter @mjanen٢٣

في الصيف يكون الوقت متاحا لتمضية وقت أرحب مع الأشياء. لم التزم بتقديم ما هو مطلوب ومفروض وواجب، من تعليمات الأب الياس إلى تنبيهات مشرف الغرف، إلى البقاء صامتا بين جدران جلدي، والابتعاد عن الطلاب الأخرين. كنت غائبا عن محيطي، أريد تذكر ملامح تلك الوجوه، زمنها، فلا أقلح. كأنه لم يكن ذلك الزمن، وكأني عشت في المدرسة وحدي. فقط أصوات الأب الياس، ونظراته الثاقبة، وهو يقرعنا ليل نهار لأننا لا نجيد اللغة الفرنسية كما يليق بتلاميذ مجتهدين. كانت تلح في عقلي أحيانا، وأنا اقرأ تلك الكتب التي كان حريصا جداً على اطلاعنا عليها، أفكارغريبة عن الشجاعة والقتال. أردت محو الصور المخيفة. كنت اعتقد أني جبان، لذلك تلاحقني الصور والخيالات. وكنت لا أمل من تدوين ما يقترحه لنا من أسماء كتب ومؤلفات. وكان الأب الياس الطريق إلى اكتشافي الأول عالماً كنت أنتمي اليه.

في احدى الرحلات الدائمة إلى بيروت، كان أبي قد اشترى نسخة مذهبة ومجلدة ذات لون خمري غامق من كتاب "ألف ليلة وليلة". وكنت طلبت منه كتاب "دون كيخوته" باللغة الفرنسية، بعد أن وصفه الأب الياس بالنادر. وكانت فرصتي لاظهار براعتي في اللغة الفرنسية أمامه، لأني بدأت اشعر أنه يأسرني اليه.

كانت دلاّ قد تزوجت، بعد موت أمها. وفجأة عرفت أنها كانت انثى، حتى إني لم افكر يوما بهذا الأمر. كانت تشبه بقية البنات، ولابد لها أن تتزوج، ولم انتبه طوال الوقت لذلك. ولم يخطر في بالي يوما، ان اذهب لرؤيتها وادخل غرفة الخدم، وأعود لأبثها احتراقاتي. وفجأة كان هناك ما يجعلني اعترض

twitter @mjanen٢٣

على كل شيء. كانت دلاّ جزءا من حياتي، وتقتضي الأخلاق ألاّ اسأل عنها، ولا ألّمح اليها بحاجتي. واذا اردت محادثتها اكتفي بالسؤال عن صحتها، وهي تسكب الطعام، أو تنظف البيت، لأني لم أعرف حينها، أي فرح انتزعت منه. بقيت محموما تلك الأيام، وأنا غير مصدق ما حدث. رحلت دلا إلى غير رجعة، ولم تأت لعيادتي، وأنا مريض من فراقها. كنت أراها في احلامي، تلعب في الحرش، وتضحك، وكنت استيقظ فزعا خائفا، لأن الحلم كان ينتهي بنحيبها والعتمة. صرت استعيدها، في وحدتي، وألمحها تدور حول البيت، فأشعر أن من المعيب دعوتها إلى الحرش مرة أخرى. وتسربت دلاّ من بين أصابعي، ولم أعرف كيف أخبرها عن عذاباتي لفقدانها، أو حتى ألمح لها باشارة ما، كيف تركتني خاويا، وحيدا. وتعلمت الصمت عن نفسي، الصمت الذي يجعل الآخرين بمنجاة من الألم والفرح، ويجعلني أعوم وحيدا مع عذاباتي. ودلا التي لم افكر يوما انها امرأة، وأنها سترحل عني، اختفت، ولم يعد لها وجود. وأنا تحولت، وصار من المعيب أن أقول للبنت التي تقوم على خدمتنا، أنني أذوب لفراقها.

واكتشفت اني وحيد رغم وجود علي حسن. كانت اختفت عن حياتي، وكنت أتلمس وحدتي القاتلة، من دون دموع دلاّ واحتراقها على تحولاتي. كنت اكبرمع وصايا أبي، حول التصرف كأمير، وعدم الاختلاط بالناس، والاستعداد لدخول الحياة من بابها الواسع، كما يقول، واعادة مجد العائلة الذي غيبته الهجرات والارتحالات والعذابات. كان يعدني لنبوة من نوع ما، وقدادركت ذلك بعد فوات الأوان.، كان يريد استعادة مجده الضائع الذي لن يعود أبدا، مجده المنسوخ من صلبه. لذلك في الصيف الذي احضرت فيه تلك الكتب، وكان علي حسن يذهب للقرى المجارة ليعمل، كانت الفرصة مناسبة للغياب عن عالم البشر، في ذلك المكان المسحور.

كان مزار القرية، اكثر من مكان مسحور. ورغم أنه لايبعد عن بيوت الناس، إلا انه كان ملفوفا بالصمت، والقداسة التي جعلتني أكبر فيه.

twitter @mjanen٢٣

وهناك، وتحت تلك القبة البيضاء، قررت أن افعل كما فعل فارس الوهم.

عندما عرف أبي بقراري البقاء في المزار لأيام، كان سيصاب بالجنون، خاصة انه كان يردد للشيوخ الذين يأتون لزيارتنا انه خائف على ولده الذي يتحدث في جيله، والذي لاينسى تقمصاً حتى يدخل في اخر. وكان الشيوخ يضحكون، وهم يطمئنون أبي، أنني مراهق مدلل لا أكثر. وان الانسان لا يذكر أكثر من جيل. ويتمتمون بعض الكلام الذي لم أفهمه يوماً، وهم يغرفون من اللحم والمرق، يوميا على مائدة أبي.

كان الرجل المسؤول عن المزار من اولئك البشر الذين يمرون في الحياة، دون ان يلتفت أحد لوجودهم. هم موجودون، لكنهم بعيدون. وعندما كنت صغيرا، كنت اعتقد انه مجنون، ودرويش، كما سمعت أم دلاّ تتحدث عنه. لكني اكتشفت فيما بعد انه كان رجل دين زاهداً، وخدمته في المزار كانت هروبا من الحياة نحو الموت. كان يشرب العرق دائما، ولايأكل سوى حبات من الزيتون. وعندما عرف بأمر وجودي الدائم في المزار، ورغبتي في القراءة هناك ليل نهار، صار يتصرف بطريقة غريبة. كان يتبعني كظلي، وخاصة أن الليل كان الوقت المفضل عندي، حيث يبتعد الناس عن المزار، ولايبقى سوى الصمت. أنا والدرويش كنا نراقب صمت المكان بمتعة. كنت انام النهار كله، وفي الليل احمل كتابي وفرسي واتوجه إلى القبة البيضاء. هناك وسط الليل قرأت دون كيخوته قرأته مرات ومرات. وكنتَ تطل من وسط القبة تلاحقني، وأنا محاط بالتمتمات والأدعية، وأحلام الفارس العاشق، وعيون الدرويش الذابلة.

كنتَ تحوم، وهناك كنتُ اطير. واتحول مع الفارس إلى رمح بلا فرس، والى فارس بلا رمح.

وما زلت تخطر أمامي وتلاحقني.

أطياف دلاّ، تزورني بضحكاتها، ودموعها المدورة الكبيرة تنهمر من القبة البيضاء. لكنك تنتصر عليها، وتبقى رابضاً فوق رأسي. في تلك الأثناء كنت

twitter @mjanen٢٣

مأخوذا برمح الفارس، وكنت أكبر مع تلك الأخيلة. كان حلمه أجمل من الحياة نفسها. كان حلم دون كيشوت أجمل من كل ما عاشه. وعندها فقط عرفت أن أحلام الحياة أهم من الحياة نفسها، والأيام التي تمضي دون أن نحلم فيها تمر ثقيلة، بطيئة. عرفت ما أردت أن اكونه. لقد كنت بحاجة لحلم الفارس أكثر، لذلك تأكدت أني سأكون فارسا.

twitter @mjanen٢٣

تحت القبة، منتصف المكان، حيث المزار لايتسع لأكثر من شخصين، والضريح الملفوف بالأخضر، ورائحة البخور، وعطن الأقمشة، وغناء الدرويش... عرفت أن التحولات الصارخة في دمي كانت ظمأ روحي إلى نزالك انت، أنت فقط.

متى سينتهي العالم منك، وانتهي من لعناتك.

كنت بحاجة لدليل ما.

اشارة تعلن حربي عليك، وكانت اشارة زمني. سأنتهي منك، وابقى حرا بين جلدي وروحي. ولكني لا أعرف كيف تداخل الزمن مع المكان، وكيف غبت، في لحظة عمّا يحيط بي، وأنا مشدود بين اوراقي وأعلى القبة حيث كنت معلقا، تلتف حول موتك وموتي، محاولاً ايجاد بقعة دخول إلى عالمي. وكنت اشد اصابعي حول جسدي. واخر ما أذكره اني خرجت من جلدي ومددت يدي نحوك، وصعدت نحو الهاوية نحوك، وارتفعت. كلما ارتفعت، سقطت أعمق في الهاوية. لم أعرف بعد ذلك ما حدث. كنت غائبا عن الوعي، ولم أجد نفسي إلا ويدا أبي، ودموع دلاّ المدورةّ، وعدد من المشايخ يحيطون بي. ولم اكن في قبتي. كنت ممددا على فراشي. رأيت حينها فقط دموع دلاّ المدّورة تكبر، وتتحول إلى شلال، وفرحت. كان فرحا لم أشعر به منذ زمن طويل. بعد ذلك لم يفارقني طيف حل ضيفا على حياتي. كان الحلم الذي احتلني، صورة الفارس، منقذ العالم، وهو يحمل رمحه على صهوة حصان.

twitter @mjanen٢٣

"... وبالجملة، فقد كان غارقا في قرآنه، إلى حد انه كان في الليل، يقرأ من المساء حتى الصباح. وفي النهار، من الصباح حتى المساء. ولقلة نومه، وكثرة قراءاته، جف دمه حتى مسه طيف جنة، وامتلأ خياله بكل ما قرأه في هذه الكتب، عن ألوان السحر والخصومات والتحدي، والمعارك والجروح ولفتات المجاملة، والعشق، والعذاب، والغرائب المستحيلة، وامتلأ وهمه يقينا بأن هذا المخزن الهائل من التهاويل والأحلام، هو الحقيقة بعينها. ولم يكن ثمّ في الدنيا، أصدق من هذا التاريخ..."

سيرفانتس "دون كيخوت"

twitter @mjanen٢٣

"أن تكون فارسا، يعني أن تصبح ضابطا في الجيش. ان تحمل سلاحك، وتمتطي حلمك نحو المجد. هذا ما يعنيه أن تكون فارسا، لذلك علينا أن نصبح ضباطا في الجيش"

لن انسى أبداً جملة علي حسن، الجملة التي سأتذكرها طويلا بعد ذلك. لن أنسى سرقتي من نفسي، ونحن مستغرقان، بين نباتات الحرش. لن تغيب عن بالي لأنها البارقة التي وجدت من خلالها مفتاحا لما أردته، أو هذا ما اعتقدته، عندما خيل لي أن علي حسن كان الأقرب إلي منك.

هذا يعني حلم القبة البيضاء، وأغاني الفرسان عن البطولة والشجاعة، واقتراباً من خلاصي منك.

اني أعدو اليك، والحق بك من زمني إلى الماضي والمستقبل، وأكون جنديا فارسا.

اني اسمع علي حسن واغيب في القبة البيضاء.

الأحراش ثانية، ودموع دلاً وكلمات علي حسن... كلمات... كلمات... جعلتني اعترف للمرة الأولى، انه لم يكن بيني وبين هذا الكائن إلا الغبار. في أول مرة رأيته فيها كان غريبا، واستفزازيا، ويحمل على ظهره كيسا من الأعشاب، وسقط على الأرض أمامي. وكنت على حافة الجرف النهري، في أحد أيام قريتنا، اهرب منك فوق حصاني. وكاد أن يسقط، من ثقل حمله، فنزلت اليه، ورفعته. ثم حملنا الكيس معا، وصرنا أصدقاء. يأتي دائما. وأبي غاضب من رفقتي له، ويصر علي أن يكون البشر الذين اتعامل معهم من مستوى يليق بي. ولكنه لم يترك لي في يوم حرية حتى الخروج من القرية إلى أي مكان دونه، قبل بلوغي الثامنة عشرة، والتحاقي بالكلية العسكرية.

twitter @mjanen٢٣

كان يوصلني حتى باب المدرسة الداخلية، ويعود بي من حيث جاء.

عشت وحيداً مع دلاّ، وكتبي وقلق أبي.

وكان غضبه من علي حسن بداية كما يقول، لأنه ولد وقح. وأنا وجدته يتمتع بكرامة، وكبرياء لم اعهدهما في البشر حولي. والشيء الوحيد الذي نغص علي صداقته، هو الكره المتبادل بينه وبين دلاّ. كان ذلك سؤالا فيما مضى، وبعد ذلك أدركت ان من الطبيعي أن يكره كل منهما الأخر.

كان يجب أن ارميه من قلبي، لأني فجأة تجردت من كل احاسيس البشر، عدا المقصلة التي فلقت قلبي نصفين تحت سكينها:

سحر النصور...

twitter @mjanen٢٣

الصيف في أواخره، والنهر الضيق المحاط بتلتين عاليتين وسط القرية كان صديقي الذي أهرب اليه بعد أن اختفت دلا من حياتي. كل شيء حول النهر كان وادعاً وطيباً، وأنا مزروع داخل هذه الدعة، ووقع حوافر حصان يقترب، ثم يتوقف. كنت مستلقياً، مغمض العينين، أحاول أن افهم ما يقوله النهر. فتحت عيني، ورفعت رأسي نحو الأعلى، ورأيت ذلك المشهد. سقطت عني تحولاتي، ورميت بجلدي نحو النيران، وعدت مسحوراً من جديد، من بريق تلك اللحظة.

كانت سحر النصور.

كانت تعتلي حصانها الأشقر، وانا أسفل الجرف، احمي عينيّ من بهائها، ولكني عميت بنورها. استحمت روحي بعذوبة لم تبرأ منها. كنت أراقبها، وقلبي يتساقط، وأطرافي ترتجف، والعرق الغزير يتصبب من جبيني. كنت اتمدد، واتسع، واتخلص من ثقل جسدي. حملتني قدماي، وقفزات قلبي، ومشيت اليها. كنت أعلو المنحدر النهري، وظهري مستقيم، ورجلاي ثابتتان في الأرض. أنا من اعتاد طلوعه منحنياً متدحرجاً مرات على قفاي. كنت أعلو كغيمة، وهي تضحك، ويضحك قلبي. تراقبني بفضول، وأنا اقترب منها. قبل أن اصل اليها تحركت من مكانها، واعتلت مهرها، وفردت شعرها المعقوص، وطارت على صهوة قلبي. وأنا وقفت جامداً بلا حراك. انتهى كل شيء، واختفى النور، وعاد المكان للصمت، وتدحرجت على ظهري، ووقعت حتى آخر المنحدر، وأنا احاول تلمس اتساع حجمي الذي شعرت به. افقت وأنا اتخبط في النهر، انتزع جسدي من غرقه.

منذ ذلك اليوم، تحولت إلى كائن آخر، واعتقدت انني نسيتك، وأنك

twitter @mjanen٢٣

هلوسة قراءاتي الكثيرة. غابت رائحة شواء اللحم. اختفت صورة صاحب الرؤوس. غاب زمن الدماء والصرخات. وبقي زمن سحر النصور التي دوختني بمنأى عن الدنيا وتحولاتها.

twitter @mjanen٢٣

صرت ملازماً للجرف النهري كل يوم. استولى طيفها على كياني، وخفت أن تكون وهماً جديداً. صرت اسأل من حولي عنها، حتى عرفت من تكون، وتحول الطيف إلى حقيقة، الطيف الوحيد الذي استولى على عقلي، وكان من لحم ودم، وليس سرابا. كانت الابنة الصغيرة لسالم النصور، وتعيش بالقرب من المدينة، بين قريتنا وقرية أخرى، في بيت مزين بالورود، كنت أمر من أمامه في سفري إلى المدينة. كان بيتاً محاطاً بسور من اشجار الحور، والورود ذات الألوان الفاقعة. وهذا ما كان يجذبني اليه. ولم اكن اعرف انه يخبئ بين جدرانه ساحرة عمري.

كان سالم النصور من ملاكي الأرض الميسورين. لكنه، كماقال أبي عندما سألته عنه بإلحاح، كان ذا نسب وضيع، لأن جده لأبيه فر مع ابنة خادم عندهم. وهي التي جاءت بذريتهم، وهربت من بيت زوجها بعد ذلك، إلى بيروت، مع شاب تكبره بعشرين سنة، وعاشت معه حتى آخر حياتها. وعاش زوجها منذ ذلك اليوم ضائعاً في البراري، حتى عثر على جثته، متكورة في حرش الضيعة، تناهشتها بنات آوى. ولكن الحق يقال، على حد تعبير أبي، كانت من أجمل نساء الأرض. ويقال ان ابنة سالم النصور الصغيرة، ساحرتي، تشبهها شبهاً غريباً حتى إن العجائز المتقدمات في السن كن يشهقن عندما تمر من أمامهن، على صهوة مهرها.

أنا الذي شهقت حتى الاختناق، يوم أطلّت من الجرف العالي، ورميت عني جلدي المسحور، إلى غير رجعة.

twitter @mjanen٢٣

كانت تعتلي الكون فوق صهوة حصانها، عندما أبصرتها للمرة الثانية، وأنا انتظرها، وانتظرتها دوماً. بهاؤها ينشر عذاباتي، وتلقم قلبي بالاشتعال. لم أعرف ما الذي علي فعله، سوى أني ركضت كطائر، وصرت أمامها، وسألتها أن تنزل عن حصانها. وقفت، وهي تنظر إليّ بذهول. صرختُ:

- اذا لم تنزلي عن حصانك فسأرمي نفسي في النهر!

صارت تتلفت حولها. همست، وعرفت صوتها. إنه هو، صوتها، الثبات الوحيد الذي أردته في أزماني. خطاف الفرح المتأرجح في عمائي:

- من أنت؟

- حيدر العلي.

رددت، فحملقت مندهشة وكأنني لعبة غريبة. كنت ممدد الأبعاد، أرجو روحي الثبات الأخير. ابتسمت ولكزت حصانها، وصرختُ:

- اذا لم تنزلي، فسأرمي بنفسي!

وتابعتُ:

وأنا، المستعد للطيران أبداً، رميت بجسدي من ذلك العلو الأخضر، نحو الهاوية. ولم أعرف ما حدث بعد ذلك، لأني شاهدت وأنا اطير نحو الهاوية، سكينا حادة تقصم جسدي نصفين، قبل أن ادخل الهدأة.

كان الجميع من حولي غاضباً، أبي ودلاّ، وبعض الرجال، لأن سحر ركضت اليهم وأخبرتهم بالحادثة. بقيت في فراشها عدة أيام قبل أن يتسنى لها الكلام ثانية، تحدث أخواتها عن شاب غريب الأطوار كاد أن يقتل نفسه من أجلها. ولم تغادر بيتها بعد ذلك اليوم، خوفاً من أبي، ومن أبيها الذي بدأ يشم في المكان رائحة غريبة، وهمهمة عجائز، ونظرات لئيمة من الناس الذين

twitter @mjanen٢٣

اعادت لهم هذه القصة ذكرى الجدة الخبيثة التي قتلت جدهم، وهربت إلى غير رجعة، تاركة لهم الفضيحة والعار. وأنا الذي بقيت ملفوفاً بالجبس لأشهر طويلة، كنت أذوب واتلاشى. كان هذا في الزمن الذي تعاهدت فيه أنا وعلي حسن ان نصبح ضباطاً في الجيش، هناك بعيداً في قلب الغابة، ودلاّ تحرسنا ونحن نشد بيدينا الداميتين وثاق الدم. وحينما كنت أشد على يدي علي حسن، كنت أهرب منك، ولم أكن أعرف أني أصنعك، وأعدك لقتلي. كيف لي أن أعرف وأنا مأخوذ بفتنة امرأة، وبأحلام عن توقف الدماء اللزجة في عروق الأرض؟ كيف لي أن أدرك، وعلي كان يقضي أوقاته إلى جانبي، يقرأ لي، وينشد اشعاراً للمتنبي، وطرفة بن العبد ومجنون بثينة. يطعمني، ويهذر بأشياء غريبة عن غواية النساء وقرفهن وضآلتهن، أمام ما ينتظرنا نحن كرجلين عظيمين قادمين؟

twitter @mjanen٢٣

لم أعد أحتمل.

كانت تلك الجملة تلح عليّ بقوة بين وقت واخر.

أنا كل المعاني والأحلام التي صرت لأجلها جندياً هربت، وهرب علي حسن مني. وتحولت إلى رجل بائس يذهب إلى عمله من الصباح إلى المساء، وربما من أول الليل حتى نهاية الصباح. رجل صغير، شاب ومدلل، وعاشق مهمل، بلا رمح ولا فرس.

كل ما حدث من أول اليوم الذي حملنا فيه سلاحاً، كان مرهوناً بالخطئية والاعداد لسجون قادمة.

twitter @mjanen٢٣

لا أعرف إن كنت منذوراً للجدران، فقط.

جدران تشبه البيوت الجميلة.

جدران تشبه السماء المحيطة بالبيوت الجميلة. جدران تشبه الهواء الداخل في السماء. جدران تشبه روحي المعلقة في السماء. جدران تسكن روحي المخطوفة بوصايا أبي ولعنة الأجداد. جدران تخنق الأجداد فوق الخوازيق، وخوازيق تلف الجدران بالصراخ، وتعتلي صهوة قلبي، والى عماء لانهائي تسير. جدران تضيق علي، تضيق... تضيق، فلا أعرف في أي تحول أنا، وإلى أي تحول سائر.

من كنتُ وأنا مغيب عمّا يجري؟ ومن صرتُ حين فتحت عيني على دهشة العالم، بعيدا عن بيت أبي ودموع دلاّ المدورة... والخيانات؟

twitter @mjanen٢٣

هل خلقت لأجل شهوتك للقتل؟

ام خلقت لأجل شهوتي للموت؟

مَن منا صنع الآخر؟ من وجد قبل الآخر؟

أنا، أم أنت؟

جسدي ضيّق عليّ،

ضيق، ولا أعرف لماذا خلقت، ولماذا كنت، ولست سواي منذوراً للعذابات، وكل التواريخ الماضية والحاضرة واللاحقة للدماء.

لا أعرف إلى اين سأنتهي...

twitter @mjanen٢٣

أعيش قبل أواني، وبعد أواني، ومع أواني. هل يعني كل ذلك أني بطل تراجيدي؟ أم فارس ناحل بترس مستعار، يقاتل طواحين الهواء؟

هل المراجعة مستحيلة مع اخطاء العالم؟

twitter @mjanen٢٣

مدهش كبرياء الذئاب، حين تعوي في الليالي المقمرة. تسحرني بحنينها، وتوحدني بتجلياتي.

علي حسن...

أيها الضبع القادم، المتدثر بعواء الذئاب...

يا سيد الخراب.

twitter @mjanen٢٣

عرف العاشق، الفارس المهمل، أن الصباح أدركه، ولم تكن شهرزاده تلون الحكاية. ولم يكن هناك من رمح، ولامن حصان. وسانشو لم يكن سانشو، ودوليسينا لم تكن دوليسينا... ادركه الموات، ونام. نام إلى آخر تحول فيه.

نام الفارس بلا رمح، وبلا كلمات يحلم بها تطير في الليالي، وبلا همسات حبيبته التي زرعت نجوم عينيه. وعرف أن الوقت صار متأخراً.

كانت سحر ترمي ببردها كل جليد القارات. رمته دفعة واحدة، في قلبي، ولم يكن يكفيني إلا هذا التحول الأخير. أن ترميني بجليدها، لتعود الدماء تصرخ، وأكتشف أن الفارس المحمول على فرسه كان فارسا ميتاً.

ما اتقنت سوى البكاء، البكاء بصمت.

لماذا بدأت الدماء تجري من جديد، من زوايا جدراني. وعادت تلك الرائحة، رائحة الشواء البشري، الرائحة التي جعلتني اتكور في نفسي. انسى أنك تلاحقني، وأنا أعزل، أعزل إلا من جليدي.

تكويني النيران.

تحرقني دمائي.

وأعرف لو عشت ألف مرة، وألف حياة جديدة. ومتّ ألف مرة، ألف ميتة جديدة. وسبحت في خط الزمن، منذ الانسان الأول، حتى ملايين السنين القادمة.

أعرف أن طعم قبلتها سيلاحقني، حتى اصير بقعة النور تلك.

twitter @mjanen٢٣

الأرض تخرج عن كرويتها.

كنت أسير بينهم. الشوارع عبارة عن صفيحة عريضة وطويلة من الفولاذ والحديد. الشوارع مثقوبة بآلاف الحفر التي يتدلى منها بشر، يحاول بعضهم التمسك والصعود خوفاً من الهاوية الساكنة تحت الشوارع. لم تكن الأرض تحمل نفسها. وكل ما بقي منها هو ثقوب وصفائح فولاذية. حاذرت السقوط في الثقوب تلك، حتى لا أطير داخل الأرض الفارغة. كنت أقفز من مكان إلى آخر، لكن الحفر كانت تنتشر.

استيقظت، وكانت رائحة فولاذ محروق تلاحقني، وأصوات صراخ لبشر يتهاوون.

twitter @mjanen٢٣

كنت بمنأى عما يحدث. أشم روائح الدماء، واسمع أصوات الزنازين التي فتحت منذ ذلك اليوم. رأيتَك من جديد، عرفتك، من رائحة الدم. وكان علي حسن يمشي بين كفيك، ويوغل في شحذ سكاكينك. أنتَ هنا، ولن تتركني. أنت القاتل الأزلي، ما زلت تلاحقني، وألاحقك. أنت الذي سيبقى الآن، وأنا من سيتلاشى. لم تعد مألوفة لي روائح الموت، وآن الآوان كي استريح.

twitter @mjanen٢٣

كان حلماً.

لم أكن ذلك المارد الهاطل من السماء إلى الأرض. عرفته حلماً، ولم يكن حقيقة، ولم اشم روائح تحولي ذاك. وعندما فتحت عيني، لم تعاودني تلك الانتفاخات، ولم ألمح الذنب الذي كنت أحمل عليه ثقلي.

الذنب مسبحة الجسد، لماذا لم يحمله البشر؟

الذنب يهش الكراهية من حوله، ويحرك السكون، وينفض الغبار عن المكان.

وأنا اهبط من السماء إلى الأرض، كنت اهرب من ذنبي، ويلحق بي طائر صغير، منقاره فضة. ولكني الآن لم أعرف حقيقة إن كنت ذاك التحول المارد، أم كنت أنا نفسي. لم أعرف إن كنت قاتلاً أم قتيلاً.

twitter @mjanen٢٣

ليست الوحدة المحيطة بعالمي أشد غربة عن الحياة الخارجية. كنت بحاجة إلى حياة غير ملموسة، وغير مزيفة. وقائع اصنعها بعقلي ورؤيتي، تحاكي العالم الخارجي ولا تشبهه. لكنها ليست مثله ابداً، لأنها الحياة الحقيقية المضمونة التي لن تخرج إلى نطاق الزيف. وكل ما أريد صنعه في أيامي القادمة، إن استمرت هذه الأيام، أن يكون لي عالمي الذي يخرج من رأسي ويعود اليه، ولايتفرع إلى قنوات غير حقيقية. كنت أعرف أن العالم أقل واقعية من فكرة طائرة بين عقلين، وأن هذه الفكرة هي من ستصنع العالم الخارجي، وليس العكس. كانت المتحركات حولي أطيافاً من نور وماء. وأنا كنت الطيف الأكثر خرافة بينها.

طيفها، فقط، من أمسك بقدميّ، ونزل بهما الأرض، وجعلني انسى لسنوات عديدة، رائحة اللحم المحروق.

twitter @mjanen٢٣

لا أعرف ما السبب الذي يدفعني أن اهرق الحبر من قلمي، واجلس وراء طاولتي، اكتب هذه الحماقات. ربما كي أتاكد انها ليست وهماً، وأن ما افكر فيه، يخرج من عقلي وليس من أي مكان آخر. ربما هذا هو السبب الحقيقي الذي يدفعني لتأمل الحروف إن كانت تخصني، وهل استطيع قراءتها، وأنا مغمض القلب والعينين. ونفس السبب الذي دفعني للبقاء تحت نافذة سحر، عدة أيام حتى وقعت مغشياً عليّ. كنت أريد معرفةً إن كانت حقيقة أم وهماً أم طيفاً، اتخيله كباقي الموجودات المحيطة بي. كانت السماء قاسية، وأنا على وشك الذهاب إلى دمشق. وبقيت لي عدة أيام، وَانتهي من الكابوس الذي ورطني علي فيه، بعد أن خان ميثاق الدم، وصرخات دماء الأجداد، وذكريات الأطياف، واختار الانسحاب إلى الضفة المقابلة، هناك بعيداً، حيث كنت، أنت واقفاً تنتظره من جديد. ولمحتك، وصرخت في وجه علي، بأنك قاتلي. ضحك، وضحك، ووقع من الضحك. لم يصدقني، وصار يطلب مني الابتعاد عن الشام، قائلاً، إني لم أكن مؤهلاً يوماً لأن أكون جندياً، ولاحتى حاجباً عند ضابط كبير. وأن هلوساتي هذه عن القتل والدماء، بحاجة إلى عيادة طبيب، أو مزار ولي من أولياء الله الصالحين. لكنه لم يصدقني عندما اجتمعنا معا، ورأيتك. لم يفهم ارتباكي، والخوف الذي جلجلني، وجعلني ارتجف من قمة رأسي حتى اخمص قدمي. كنتَ هناك واقفاً، تلاحقني من جديد، وعاودتني رائحة شواء اللحم، وصور الرؤوس اليانعة المتدحرجة في الصحراء. الكوفة والشام والمدينة المنورة. رأيت الصحارى تمر أمام عيني، رمالها المتحركة المعجونة بدماء قتلاك. ولم يصدقني علي حسن، ورحل إلى ضفتك، وتركني وحيداً انتظر تحولاً جديداً، وقتلاً مباغتاً

twitter @mjanen٢٣

من نوع آخر. كنت أحلم بك من جديد، وارسم صورتك الجديدة. كيف لم أعرفك، وأنا المنذور للخطايا والقتل؟ كيف خيل إليّ أني المبعوث الكبير، وحامل عصا الله؟ وكيف لم أتخيل أنك جلست على كرسيه بكل أناة، منتظراً فرصة مناسبة لسلخ جلدي وشيّ لحمي أو تحويلي لثغاء طويل الاهتزازات؟ كيف لم اعرف؟ هل انتظرت هذه السنوات الطويلة، لأدقق النظر في عينيك؟ تلكما العينان، نفس العينين الناعستين والغارقتين في طمأنينة قاتل إزاء ضحيته القادمة. كنتَ مغمض القلب، مفتوح العينين، وأنت تسير إلى الهاوية التي تصنع مجدك وخلودك، وتهوي بي نحو مستقر من التلاشي. انا أعرفك، لكنه علي مَن هرب مني.

هل كان جزءاً منك؟

اختلطت الأطياف، وفقدت عالمي الأجمل، برحيل علي إليك، ولم يبق أمامي سوى الهروب إلى تحولي الذي أوقفني عن كل التجليات. سحر النصور، رماد روحي الباقي.

كنت انتظرها عدة أيام تحت نافذتها. وراء بيتها ينتشر مد واسع من الخضرة. كنت اختبئ، واطلب منها أن تطل من نافذتها، وكانت تقابلني بصمت.

كل الاجازات المفترضة لشاب سيقضي عدة أيام مع أبيه المجنون بحبه، كانت تنتهي تحت نافذة امرأة بهية. نافذة مغلقة، وخوف مريك من افتضاح امري، رغم التواطؤ مع الفلاحين العاملين في أرض سالم النصور. كان من الممكن أن اكتشف، بين لحظة وأخرى، وهو ما جعلني طول الساعات، اجلس القرفصاء متهيّئاً لصياح عالٍ يطلقه أحد ما. كنت ارمي بالحصى الصغيرة على شبّاكها، وكانت تشق النافذة الضيقة، وتطل بطرف رأسها، وترميني بمبرر جديد للرعاش، وتختفي. وأنا المغسول بالارتجاف، ينفتح واد في صدري، وانتفخ بالهواء، واهوي بين الأعشاب على خشخشة قلبي. كانت تعيد فتح النافذة مرات عديدة. وعندما يحط الليل، وتراني، لا أزال وراء نافذتها، تختبئ.

twitter @mjanen٢٣

كانت تفتح نافذتها على آخرها، وكنت أشمها وهي مستلقية على سريرها، اشم رائحة نومها.

كنت حقيقياً، ولم أكن الهارب من روائح الشواء البشري، وأصوات الخيول وجلجلة القتل، وهواء الصحراء الساخنة. كنت أشم رائحة نومها، واسمع مرور الهواء بين رئتيها. كنت الولد حيدر بن ابراهيم، الشارد إلى الأمام، والمطعون بحيواته، تعود أعضائي لي، وتتزوج روحي من لابسها، وتتقن وحدتي أولى خطوات الهروب من المكان المغلق المحيط بي.

twitter @mjanen٢٣

جمعت كل التجليات القادمة واللاحقة، تحت نافذتها. وبقيت دهوراً اسكن رائحتها ونومها، حتى تحولت إلى رائحة بقدمين، وعينين ظامئتين للنوم.

أنا من حوّلني الهوى إلى غمامة تعوي بالرائحة.

تصادقني تحولاتي.

تحاورني، واختلف معها.

twitter @mjanen٢٣

ما نعيشه يوميا هو طيف اللامرئي،

وأنا تحت القبة البيضاء، ألمح رجالاً بلحى بيضاء، يدورون حول رأسي، ويصرخون:

لماذا تركت المدينة وحيدة؟

twitter @mjanen٢٣

لم أحص عدد الأيام التي كنت أجلس فيها تحت شبّاكها. لكني استطيع الآن بعد هذا العمر، الشعور بخفة الحياة، وخفة الأرض الثقيلة فوق قدمي. كان كل شئ يجري منساباً من حولي، وأنا منغرس تحت غرفتها، والناس من حولي يتواطؤون على وجودي. كان الجميع يعرف بي، عدا أبي وابيها. كان الكل صامتاً عني وعنها، وربما كانوا في غفلة عما يجري، أو خافوا أن يصل الخبر إلى أبي. لكني كنت سعيداً بالتواطؤ اللذيذ، وانتظر تشريقة وجهها من شباكها. كانت عنيدة، وكنت عاشقاً. اتساءل الآن وأنا في غمرة ولهي وهواي: لو أنها لم تفتح نافذتها ذلك المساء، وبقيت متوارية وراء نفسها، هل كنت لأعود اليك أيها المجنون، أيها الكاره لرائحة دمي والخائف مني، علي؟ لكنها خرجت، وأطلت برأسها من النافذة، وانسفحت مياه العالم فوق الأرض، ولم يعد بالإمكان جمعها.

أنا القادر على فهم التحولات، لم أفهم لماذا تدلت الأقمار من النافذة، وطلع نور بهي ساطع، مد يده نحو قلبي، وأنا ارتجّف من برد عظامي، وتكتكة روحي مع دمي. نورها دثرني بحياة جديدة. وأدركت لحظتها اني برئت من عذاباتي، وشفيت إلى الأبد، من لوثة التحولات.

هذا ما اعتقدته، وهي تمد يدها نحو يدي، وتمسكني بتلك الأصابع الشفافة، وتعصر كفي براحتها.

twitter @mjanen٢٣

ويـزعمُ طـوراً أنـه عيـنُ عينهـا وينكـرُ طـوراً أنهـا فيـهِ حلّـتِ
ويمـسي لهـا عبـداً بـدعواهُ في ويـصبحُ مولاهـا بغيـر مزيـةِ
فيجمعُ ما بينَ النقيضين جهلُه وذاكَ محـالٌ في العقـولِ

المكزون السنجاري

twitter @mjanen٢٣

المرآة...

بقعة النور

النور الكلي

طريق الخلاص

بقعة النور تلك

بوابة العبور نحو النور الكوني

الطريق التي ستحمل الفارس ورمحه بعد أن رماهما الزمن

الامتحان النهائي لانعتاق روحي وسباحتها في المطلق الأبدي

مرآتي...

twitter @mjanen٢٣

رائحتها تملأ الحياة، بين أنفي وشحمة أذني. تراوح كخيط رفيع بين الهواء الخارج من رئتي والعائد إلى صدري. رائحتها، في مكتبي، وعلى سريري، وفي التراب، وبين زحمة السيارات، وفضاء الصحراء. رائحتها اخذتني، وجارت علي. رائحة مخدتها، وشرشفها، وأسنانها، وزيت شعرها، وحموضة سوائلها، عندما تتركني اضيع فيها. رائحة طلاء أظافرها، وعرق أصابعها. رائحة ثوبها حين يدور حول ركبتها. رائحة منشفتها الوسخة. رائحة مسامها، وهي تتز بقربي. رائحة بياضها.

رائحتها...

twitter @mjanen٢٣

خبيء أنا. بين تحولاتي ابحث عن وجود جديد، بعد ان سقط جلد الضفدع عني، وتحولت إلى أمير مسحور، وقبّلتني أميرة الأميرات، ومن ثم رمتني، بعد أن أحرقت جلدي. لم استطع الوقوف على اثنتين، وأنا المبتلى بالعذابات. أناشدها ألاّ تعذبني، وأنا المقصي عن روحي. روحي طلقتني، وأوصيها ألاّ تقصيني. أنا حبة النبات الأول الذي سقط سهواً من المحيط، عندما لم تكن هناك بحار ويابسة. أوصيها بتركي للهباء، علني ارتاح من الصراخ. وعلّ العودة التي فاجأتني على غفلة مني، تسحب ثانية من الذاكرة. وانسى، لثوان فقط، تلك الروائح والصور القاتلة للرؤوس المقطوعة، وللنيران المشتعلة بالأجساد البشرية.

لقد عدت ثانية اليك، ورمتني، رمتني ساحرتي.

twitter @mjanen٢٣

أجزائي تتفتت مني، قطعة قطعة، وتهرب من ترابي نحو الشوك.

كلوا لحومكم بين زوايا الحيطان، وابصقوا على كل البياض.

لم يعد هناك من بروميثيوس.

فقد افلاطون وجهه الحقيقي.

اختبأ النور في الظلام. بعد أن غادرتني رائحة بهائها، عاودتني روائح اللحم المحروق، وصرخات تجلياتي المميتة، وعدت روحاً هائمة تتقمص الكتب، ورماح الهواء، وطواحين الهواء، وترقص في جحيم أبدي من العتمة.

أنا المبعد الأبدي عنها، ما طفر يوماً قلبي بالسعادة.

twitter @mjanen٢٣

... فـإنهم إلى أن يـستوفوا ذلـك التنقـل في الـسبع تركيبـات إلى ظهـورهم بالولادة، فيردون في الولادة بعد التوقيف في البشرية، فاذا تم به الأجل، ولم تلحقه سعادة لأنه مبعد عنها وخارج منها..."

الخصيبي

twitter @mjanen٢٣

لم يبق من سؤال. كنت هباء.
منذ أن كنت ابن براهيم بك، كنت هباء.
منذ ان تركتني أمي.
منذ أن كنت جلداً فارغاً،
إلا من الصراخ.
منذ ان احتلتني الأرواح،
كنت وهما
في هذا الخراب.
كنت احمل قلباً من وهم،
ورمحاً من وهم،
واسماً من وهم.
كنت ملحا ذاب،
وتبخر،
وتكثف بعيدا عن المكان.
هناك بعيدا...
بعيدا عن الأرض.

twitter @mjanen٢٣

المرآة...

التجويف المظلم الذي خرجت منه إلى تحولي، مرتديا قميصي الجديد.

الأمان المرتقب لصرخات جديدة، وانفجار خلايا، ومطاردة جديدة للضبع والخراب.

لماذا تركتني وسكنت صورتي؟ أمي ألا تخرجين من ذلك المكان أبداً؟

هل كنت ابنك، هل عشت في رحم مثل البشر؟

أنا خائف...

twitter @mjanen٢٣

المزار ما يزال على حاله، بعد سنين الفقد والغربة، وبعد أن عدت مهملاً، مع رائحة جلدي المحروق، وودعت دمشق إلى غير رجعة. عدت إلى قبتي البيضاء، ونفضت الغبار عن كتبي العتيقة. عدت إلى الغرفة العالية، وشجرة الجوز. عدت إلى ما كنت. اهرب من مسامي التي تحفرني بالملح، أحاول معرفة ما جرى، ولماذا؟

قتلني علي الف مرة. رمت بي ساحرتي إلى التيه الأبدي. كنت ألمٌّ ما مضى، أُحاول فهم الحقيقة. كلمات سحر، ذبولها، وجعها، دموعها الدائمة. لم أفهم ما حدث، وكيف رمتني وسط الهلاك، بعد أن مدت اصابعها وانتشلت عذاباتي. ولم أعرف لماذا، عندما بدأت اشم رائحتك أيها اللاحق الأزلي، وعندما بدأت اتبينك، لماذا رمتني ساحرتي؟ ولم يبق لي بعد أن عدت من دمشق فارساً مهزوماً بلا رمح ولا أوهام، سوى قبتي البيضاء، ورائحة البخور وذكريات الدرويش الذي بحثت عنه طويلاً. وكان قد اختفى. قالوا لي انهم استيقظوا ذات صباح، ولم يلمحوه. بحثوا عنه في كل مكان، وفي الأحراش، وسألوا عنه في القرى المجاورة. اختفى كأنه لم يكن، وكنت أحلم أن أراه ينتظرني. أنا أعيد زماني الذي مضى، وخيالات الفرسان المرسومة على القبة، وأساطير الليل التي دوختني. كنت انتظره، واهرب من جهنم التي رمتني فيها سحر، جهنم التي لم يعرفها إلاّ أولئك الضعفاء الذين يخافون العقاب. كم مرة هربت منها، وكنت احلم بالنور. النور الذي انتظرني دائما، وأنا اشرب للمرة الأولى من خمرة الروح. عرفت النار أكثر من تلك الأزمان، أكثر من كل التجليات. النار التي تحرق القلب أولاً، تهشمه ثم تنتقل إلى باقي الأعضاء.

النار التي هربت منها إلى قبتي، مستعيدا عالمي الأجمل. رائحة البخور

twitter @mjanen٢٣

وخيالات لأصابع مرتجفة تبحث عني في الظلام، وتهدأ قبل أن اتكور في حفرة الملح الجديدة، بعيداً عن دفء رحمها.

أمي، لِمَ تركتني وحيداً للقتل، ألف... ألف عام.

twitter @mjanen٢٣

كل ما بقي، يتكاثف، يتبخر.

أحاول معرفة الحقيقة من الوهم. هل عشت بعد حادثة التنور، في هلوساتي؟ هل كان وهماً اتساع البياض، وابتسامة الممرضات، ورائحة البحر؟ هل فعلها أبي، ووضعني في مصح يطل على شاطئ بيروت، كما قالت سحر؟ هل كانت تهرب من صراخي ليلاً، وتخافني؟

لا أستطيع تحديد الخيال من الوهم. الحقيقة من الواقع، لأن حياتي هذه تهرب مني، وحيواتي السابقة تلحّ علي بالمجيء. رغماً عني، واحاول معرفة زمن تلك الأيام البيضاء، وأنا موصول بأنابيب بلاستيكية، ورائحة الأدوية تنفذ إلى دمي.

كان الأبيض والأزرق، وحدهما، وكنت اتعافى من حروقي.

هل حلمت اني في مصح نفسي، أم اردت ان أكون فيه؟ لا أعرف. بعد دمشق، فقدت اتجاهاتي. عدت إلى قبتي، قبل أن تعبق بروائح اللحم الزنخة، وأدعية اليائسين. كانت لي قبتي. والدرويش. كانا لي، وكنت ابحث هناك في أعلى القبة، والى جانب ضريح من حجر، عن جواب. كيف لم أجده؟ كيف لم أعرف؟ من كنتُ، وهل هربت مني سحر؟ هل خافت صراخي الدائم وأنا في حضنها؟ وهل عرفت أني كنت القتيل؟ ثياب الممرضات البيضاء، ونسمات البحر، والصمت. الصمت، الذي عاد الآن يخيّم على قبتي. الصمت نفسه، وأنا ممدد على سرير يطل على نافذة، وبحر. الصمت يعود، بعد ما رحلت المدينة من دمي، وتركت وهمي، وعدت إلى الحقيقة: الصمت.

الحقيقة الوحيدة المطلقة في العالم: الصمت.

twitter @mjanen٢٣

أنا حيدر، حفنة الغبار.

أنا التراب الطائر في النور. أنا المنسوخ من أبي، وأبي المنسوخ مني. أنا المخلوق من ضلع أنثى، والمولود من رمشة انثى. أنا التائه الأبدي من سِحرها إلى نحرها. أنا الذي غشني الله، وقال لي، إنها خلقت من ضلعي.

أنا مَن هزيت نساؤه منه.

انا آخر صلصال يموت من عناصره وتكوينه.

twitter @mjanen٢٣

كان رجال علي حسن ينتشرون في كل مكان، باحثين عن فتاة بسيارة حمراء، طارت بسرعة مجنونة، من أمام البيت العتيق، مخلفة الدهشة والغبار. والأوامر الواضحة والصارمة من معلمهم جعلتهم يدسون أنوفهم حتى في فتحات مؤخراتهم، للبحث عن أي شيء، لايهم! عليهم البحث والشم، عليهم أن يدوروا حول أنفسهم، وأن يفتشوا حتى الهواء المارق أمامهم. كانت مهمتهم في الحياة تعتمد على قدرتهم في إطاعة الأوامر، دون التفكير والسؤال عما يفعلونه، وكيف، ولماذا. كان لا بدّ لهم من الارتجاف، وهم يتذكرون عيني معلمهم الغاضبتين، يطلب احضار رهام. لذلك عليهم اعادتها، لاغير. وأي أمر اخر لم يفكروا فيه، لأن الأوامر هي الأوامر، ولاعودة دون تنفيذها. والمؤلم في الأمر، ان طريدتهم هذه المرة كانت رهام، العارية الصدر التي تشبه نخلة بعيدة. رهام التي يتمنى كل منهم في أعماقه لو يبطحها أرضاً، ويغرف من أنوثتها، بعد أن بقيت امامهم لساعات طويلة، تقطر بالغواية، وهي ممدة في حزنها، تحرك أرنبة انفها الحمراء من البكاء.

تحول بحث كل منهم عنها إلى رغبة مزودجة من اللذة والخوف، فكانوا يتحركون كجرذان تفرّ وتنط من مكان إلى آخر، بحماسة وخفة. أحدهم يوقف السيارة، ويقطع الشارع عدة مرات، وهو يكز بعينيه، على كل حركة أمامه. وآخر يصعد التلة المشرفة على الطريق القديم، علّه يلمح السيارة الحمراء. وثالث يقضم أصابعه، ويرمي ما في فمه بغضب، وهو يدوّر عينيه في كل الاتجاهات، ويكلم أحدا ما بتوجس. ثم يجتمعون، ويطيرون بسياراتهم ثانية، وعندما يتجاوزون المنطقة التي رصدوها، يخففون السرعة، ويعودون إلى القفز والرصد والدوران. ولقد لمحوا ضوءاً بالقرب من مجموعة بيوت

twitter @mjanen٢٣

بلاستيكية مهجورة، وتحت شجرات الزنزلخت العملاقة، المحصورة بين سكة القطار وطريق الاوتستراد الذي شقته الحكومة منذ سنوات، وأخذت معه أفضل الأراضي الزراعية على الساحل. كان ضوءاً خافتاً. واختلف الرجال فيما بينهم حول ما اذا كان من الضروري أن يضيعوا وقتهم في الدخول إلى الطريق الترابي المملوء بالحفر. الأغلب أن هذا الضوء يخص أحد البيوت الكثيرة المترامية، لعائلات المزارعين الفقراء الذين قدموا من الجبال الساحلية، وعملوا بالأجرة عند أصحاب البيوت الزراعية البلاستيكية. تجاوزوه، وهم على يقين أن ما فعلوه هو الصحيح. وهو ما اعطى رهام وقتاً اضافياً، لتقرأ في الأوراق الصفراء، مزيداً من الوجع الذي كانت تبحث عنه، والذي لم تجده حتى تلك اللحظة. كانت تتساءل: أين ستظهر؟ أين ستكون؟ ولماذا لم يذكرها حيدر في أوراقه التي لم تفهم منها الشيء الكثير. كانت تقلب الصفحات، ودموعها تسبقها، واصابعها ترتجف وهي تنتقل من ورقة إلى أخرى. كانت تجد بعض الأوراق ممزقة أحيانا، فتلعن حياتها، وتهدأ قليلا، ثم تشعل سيجارتها وتعاود القراءة الصعبة.

عند عودتهم من الجهة المعاكسة، اصر أحد رجال علي حسن على التوجه إلى الضوء، لأنهم اذا لم يعودوا بالمرأة فسيقتلهم المعلّم، وهو لا يزال يشعر أن الحياة بانتظاره. تركوا سياراتهم على زاوية الطريق، ونزلوا قافزين فوق الحاجز الفاصل بين الاتجاهين المتعاكسين للأوتوستراد. كانوا أربعة، يتسربون بهدوء فوق التراب. وعندما دنوا، أيقنوا ان هذا الضوء ليس سوى ضوء سيارة. وهذا ما أفرح قلوبهم. كانت رهام تنفث دخان سيجارتها، وتقرأ جملتها الأخيرة، وتعيد قراءتها، بصوت هامس مخنوق، ومبحوح: أنا أخر صلصال يموت من عناصره وتكوينه.

كانت ترميها إلى جانبها لتقرأ صفحة جديدة بعينين باكيتين، عندما فُتحت أبواب سيارتها، وانقض عليها اربعة رجال غرباء. وجدت نفسها فجأة خارج السيارة، والرجال يحيطونها ويكممون فمها بقماش كريه المذاق.

twitter @mjanen٢٣

احتضنت باقي الأوراق إلى صدرها. كانوا يلتفون حولها، ملتصقين بجسدها بطريقة جعلتها تشعر أنّها ستذوب بين أيديهم. كان كل منهم يحاول احاطتها، محاولاً التدثر بفضيحة جسدها، ملتذين بالتواطؤ الذي وجدوا أنفسهم فيه. المرأة المستحيلة، البرج العالي، المرأة التي لم تولهم يوما التفاتة، لم تنتبه لوجودهم وكانت ترن مع ضحكاتها أمامهم، غير مبالية، وكأنهم حشرات صغيرة. والإنشاءات التي اعتادوها كلما خطرت أمامهم، تتلاشى، وتصبح بمتناول لمسهم. اللمس المؤقت، ولكن الباعث على لذة جعلت أحدهم يفرك نفسه بها حتى تدفق سائله المنوي تحت بنطاله، وهو يقبض على صدرها الباذخ بيديه. كانوا في غمرة من الغيبوبة عما أمرهم به علي حسن، لولا الصرخة التي اطلقها أشدهم اخلاصاً، وهو يسبهم:

- يا أولاد الكلبة! والله سيخفينا علي حسن عن وجه الدنيا! خذوها إلى السيارة.

عندها فقط، وفي تلك اللحظة استفاقوا من حلمهم، وانتبهوا إلى انهم في مهمة رسمية، وليسوا في احدى الكباريهات التي اعتادوا ارتيادها، منذ ان تركوا قراهم، وتطوعوا للعمل تحت إمرة علي حسن، وتحولوا إلى أمراء حقيقيين، كما قالت عنهم دلاّ، قبل دخولها غرفة حيدر للمرة الأخيرة:

- كلب الأمير، أمير!

twitter @mjanen٢٣

عندما وصل الرجال إلى القبو، كان علي حسن يدور حول نفسه كثور، مقطعاً أفكاره إلى نتف صغيرة، محاولاً استرجاع ما حدث. أين حيدر الآن؟ وماذا حل بدلاّ الجنية التي كرهها طول عمره؟هل تواطأا معا كما حدث دائماً في القرية، عندما كانا يختبئان في الأحراش، ويقضي ساعات يبحث عنهما، دون جدوى، حتى يعود آخر المساء إلى بيته جائعاً، خائر القوى، تتتشر على جسده بقع الوحل والطين، وتتبخر حبات العرق على مسام جلده من غليانه؟ كان يدور من حائط بلوري إلى آخر، محاولاً ابتلاع شفتيه، محدقاً في شكله المتعدد في المرايا، صارخاً:

- أنا من كان، وأنا من سيبقى! أخيراً راح. .. راح إلى غير رجعة!

يتوقف عن الكلام، ويحدق في جبهته، ويرفع يديه عالياً في الهواء، ثم ينزل بيده اليمنى على جبينه بدعة وأناة. كان المكان صامتاً أكثر من اللازم. ونسي، في برهة وجيزة، أنه غلّف قبوه بالاسفنج والخشب والمرايا، وكل صراخه على الرجال لن يجدي نفعاً لأنهم كانوا يفضلون البقاء عدة أيام، منتظرين رنين جرس معلمهم المعتاد، على النزول اليه ليخبروه أن رهام معهم، فاقدة الوعي، وبالكاد تتنفس.

حاول أن يجد مبررا لما حدث، فلم يستطع حتى التخمين. وأكثر ما أزعجه أن ينقبض لموت حيدر، ثم يهلع لفكرة الاختفاء اللعين. هل يستطيع كائن فوق الأرض خداعه؟ إنه علي حسن وليس غيره، ولن يكون بمقدور انسان أن يلتف عليه. لقد روض بلاداً بأكملها، ولن تستطيع امرأة الوقوف بوجهه. كان يعتقد أن رهام وراء ما حدث، ويحاول اقناع نفسه بأنها ابنة حيدر العلي، ابنة السلالة التي عاملتهم دائما كعبيد عندها، وليست ابنة رجل عظيم مثل علي حسن،

twitter @mjanen٢٣

وقف يوما ما بوجه القدر، وصنع مجده الوحيد. إنه الواحد فقط، أبدا لن يتكرر. ذريته كلها لن تحمل في صلبها رجلا مثله، لأنه لن يتكرر. اقترب اكثر من المرآة، مرآة بحجم مرآة حيدر. وقف بثبات، كما كان يقف أمام مرؤوسيه، عندما كان ضابطاً صغيراً في الجيش. وضع يده تحت إبطه وضحك، كما يظنّ أن العظماء يفعلون، ثم استدار محاولاً التركيز على صورة ما، صورة مرت أمامه منذ الساعات العشر الأخيرة، علّه يجد مفتاحا لمشكلته. لكنه لم يعثر فيما حدث على ما يوحي برغبة حيدر بالهرب من البلاد. ولماذا يهرب الآن؟ وما الذي يريده من هربه هذا؟ هل يحمل وثائق ضده؟ هل جمع شيئا حوله، وسيقوم بتسريبه لجهة ما؟ ولكن كيف سيهرب؟ أخذ يضرب على رأسه.كيف سيهرب، وقد باع كل ما يملكه والده من أراضٍ، بعد أن ترك دمشق، وأرسل ثمنها إلى سحر؟ هل عرف شيئا ما؟ هل عاودته نوبات جنونه التي، حسب ما أخبرته سحر، جعلته يتردد إلى مصح نفسي في بيروت بين وقت وآخر؟ لكنه لم يفعلها منذ ثلاثين سنة. هل يتواطأ مع رهام، ضده؟ لكنه لن يجرؤ، فهو فأرا صرخ علي حسن بصوت عال أمام المرآة:

- فأرا

عندما سمع كلمة فأر، أحس بسعادة. تذكر أنه وبقبلة واحدة حوّل سحر النصور، جميلة الجميلات، إلى عاشقة ملتهبة، وجعلها تهجر حيدر الذي كان يحصل على كل شيء بسهولة.

انتفخت وجنتاه، واحمرت خدوده، وراح يمسد شاربيه. كانت الفودكا قد بدأت ترخي عضلاته، كأساً وراء أخرى. ونسي في لحظة أنه لايجوز له، حتى بينه ،وبين نفسه، وفي قبوه السري، التمايل كالفتيات. كان هذا ما حدث وهو يناجي سحر، ويقلد حركاتها وانثناءاتها كعجوز متصابية، بعد أن انتفخ باللذة، وهو يعود بذاكرته إلى تلك القبلة القاتلة. لكنه فجأة قلص من حركة خديه، وانثنى على نفسه، كأفعى، وصار يعصر بطنه، وهو يشد على نفسه متألماً. معدته ثانية، تخذله. كان على وشك الصراخ عندما

twitter @mjanen٢٣

اصطدم بشكله المترنح في المرايا، فتوقف قليلاً مطأطئ الرأس، وحملق في عينيه الجاحظتين المحمرتين. شعر أنه تلقى صفعة على وجهه، فضرب بكفه على خده. استقام ثانية أمام المرآة، كأنه استفاق من كابوس، وكور قبضته، وسددها نحو المرآة. لم تتكسر، فارتد إلى الوراء، ثم سقط أرضا. كان يريد التأكد من وجوده، وأنه ليس خيالا وسط الخيالات التي تراقصت أمامه. صارت تتراءى له صور حيدر في المرايا. قام مرة أخرى، واتجه بقبضته المكورة نحو مرآة أخرى، وهوى بقبضته على سطحها. خرّ ساقطاً على الأرض، وصار يدور برأسه حول المرايا. كان حيدر يهرب من مكان إلى آخر، واقفاً بهدوء يدخن غليونه، محدقاً بعيني علي حسن الذي استقام في مكانه، وضحك بصوت عال وصرخ:

- هل عدت ثانية؟

وقف قبالة حيدر المرتخي، الثابت بهدوء. اقترب أكثر. ارتمى عليه، فتبخر. دار حول نفسه:

- اخرج ياجبان... اخرج!

خرج حيدر من رفوف زجاجات النبيذ، واتكأ بمرفقيه على الحواف الخشبية التي صارت تهتز مع الزجاجات.

ما يمكن أن تُوصف به تلك اللحظة، صعب على القول. وما كان يحدث، صعب على التفسير. كان يريد الهروب من الخيالات. وتمنى لو تختفي صور حيدر العلي، المختلطة المنتشرة في كل مكان. وصار يدور حول نفسه، يبعثر ويبعد ما بين يديه، كأنه يصد عنه هجوما ما. كان مغمض العينين، أسيراً للأطياف، حين انحنى على ركبتيه، وكاد أن يقع في جرف نهري، لولا اليد التي امسكت به، وحملته إلى الأعلى.

المشهد يكبر. يحتل ما تبقى من مساحة عقله. حيدر يمسك كيس التبن ويرفعه، ويطمئنه أن مكروها لن يحدث له. اليد نفسها تتحول إلى يد أخرى، بضّة وناعمة وقاتلة. يد تتلمس بهدوء صدره، وتنزل أسفل فخذيه، وتغرقه

twitter @mjanen٢٣

بجحيم نار لاينتهي منها. تخرج من منتصف اليد عينا سحر النصور النّديتان، عينان تتطفئان، وتختفيان. وتعود اليد البضة، تبحث في جسده عن النار.

النار تحرقه.

تهشم قلبه.

يريد أن ينسى من هو. يريد أن يعود ذلك الولد المتأرجح على ضفة النهر، يغمر وجهه برائحة الأعشاب والطين. يريد أن يصرخ: كم أحبك يا حيدر! كم أكرهك!

يريد أن يبكي على صديقه، يريد أن يصرخ، ويطلب منه أن مسامحته على كل شيء.

كان يريد كل ذلك. لكن علي حسن، صاحب البزة العسكرية، خنقه ورماه أمام مرآته من جديد، قائلا: لاتكن ضعيفاً! أنت الحديد، وهو التراب. أنت القادم، وهو الماضي. أنت الواحد، الذي حولت الزمن، والأشياء إلى لعبة في يديك. أنت من كان طول هذه السنين، وأنت من سيبقى.

صرخ علي حسن عالياً. أخيراً خرجت صرخته مع نشيجه العالي:

- لكنه مات! مات، وأنا قتلته ببطء!

انهار على الأرض، باكيا بحرقة. ارتاح عندما نطق بجملته، وكأن جبلا انزاح عن قلبه. ضرب المرآة من جديد: وأنا بقيت. لاتكن ضعيفا. البكاء للضعفاء. ارم قلبك للكلاب...

ابتسم بهدوء، ودموعه تنزل فوق خديه. اتسعت ابتسامته، وأخذ يضحك. صار يقهقه، ويلتفت حول نفسه، مقلداً حركته المعتادة التي حفظها عن رسم عَشِيقَه ذات يوم، يصوّر نابليون بونابرت.

انحنى على نفسه من جديد، يطوي صوت خافت من الألم. صار يدق بقدمه على الأرض، بشدة وعصبية، ويدخل في المرايا، ثم يسقط على الأرض، وينهض من جديد. وقف على الدرج، محاولاً الصعود، وهو يصرخ. تعثر ووقع. صرخ

twitter @mjanen٢٣

كثيرا، لكن أحدا لم يسمعه. وحتى لو سمعوه فلم يكن ليتجرأ احدهم على النزول اليه، دون أن يفتح الباب بنفسه. كان يحس بثقل غريب، لايعرف مصدره. اليوم سينتهي كل شيء، وسيعود كما كان من قبل. سيطلع الصباح، وتكون الأمور مختلفة. ينتهي حيدر ورهام، ويكون هو الباقي الوحيد. هو وسحر النصور، دويخة عمره. حبيبته المسترخية الآن بسلام، في فندق انكليزي هادئ.

حاول النهوض مجددا، وتسلق بضع درجات، حتى وصل الباب، ثم سقط على الأرض. لكنه استطاع أن يفتحه، ويأذن للرجال بالدخول. كان أكثرهم إخلاصاً يشهق وهو يحمل سيده المرمي على الأرض، هابطا به الدرجات رغم ثقله، وعلي حسن يتمتم بكلام غريب.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها رجال علي حسن معلمهم يتصرف على هذا النحو. كانوا يعتقدون أنه كائن خارق، لايضعف ولايبكي، ولا يطأطئ رأسه. والأهم من هذا كله، أنه خارج حدود البشر. وتساءلوا مرات فيما بينهم، اذا كان بامكان امرأة اخرى على وجه الأرض أن تأتي برجل جبار مثله. لذلك كانوا فاغري الأفواه، وهم يرون علي حسن شبه مغمى عليه. فصاروا يتمتمون فيما بينهم بغرابة. وعندما تعالت تمتماتهم، فتح علي حسن عينيه، ونظر في وجوههم بحدة، فتيبسوا صامتين:

- يا أولاد الكلب!

وقف على رجليه بصعوبة. سأل عن رهام، فصعد أحدهم الدرج بسرعة، وعاد حاملاً رهام على ظهره، ووقف أمام معلّمه. صبّ علي حسن الفودكا، وأضاف إليها عصير الكريفون المفضل لديه، وألقى بكأسه دفعة واحدة في جوفه. كان ينظر إلى رهام باسترخاء، وهو يؤكد لنفسه أنها ليست ابنته، وأنها كانت عشيقة ابنه، وفي وسعه أن يتباهى بالأمر. هذه البنت ليست ابنته، مجرد امرأة تحمل تحت جلدها دم حيدر العلي، وسيكون سعيداً عندما ينتهي من هذه السلالة الآن، والى الأبد. صاح برجاله:

twitter @mjanen٢٣

- اتركوها هنا.

كان الرجال مذهولين، ولم يحركوا ساكناً، وهم ينظرون حولهم. أين سيضعون الصبية. عاد لصراخه:

- اتركوها على الأرض، واخرجوا.

ارتجفوا، وقفوا محملقين بوجهه، غير مصدقين ما يقوله. كانوا أربعة، مخلصين له لأكثر من عشرين سنة، وقادرين بفعل التدريب والغريزة على فهم تصرفات معلمهم. لكن الأمور اليوم مشوشة، ولم يفهموا ما حدث. خرجوا تباعا، وتركوا رهام مرمية على أرض القبو، مقيدة اليدين، وتلف حول صدرها مجموعة من الأوراق العتيقة التي تبدو كأنها خارجة من حاوية قمامة.

أغلق آخرهم باب القبو، وهو يحملق في معلمه، مقتنعا أن الأمور لم تعد كما كانت عليه من قبل. هو، الأكثر اخلاصا لعلي حسن، بات على وشك التأكد أن الزمن اختلف حتى يحدث ما يحدث، ويضعف هذا الرجل إلى هذا الحد. وهذا الرجل الذي اعتقد حارسه أنه يضعف، كان يدقق في قسمات رهام، محاولا أن يجد شيئا ما يغير به صواب قلبه. إنها اللعنة التي لم تتركه. انحنى على رهام، وتأمل وجهها الغارق في السبات. كان تنفسها غريباً. ولمح، ولأول مرة، صورة سحر النصور. ولاحظ بدهشة الشبه العجيب بين رهام وسحر، وتساءل كيف لم ينتبه إلى الشبه طوال السنوات الماضية. أقر أن ابنه كان محقاً في التعلق بهذه المرأة. لكنه ابتعد عنها كالملسوع، وهو يتمتم: من المستحيل أن تكون هذه الشيطانة ابنته. من الصعب جداً، وإلاّ فما معنى الغواية التي تلفه بها؟

ابتعد عنها، وهو يفكر بما سيفعله بها. ستفيق بعد قليل. وسيكون عليه استجوابها عن مكان حيدر. كان مقتنعا تماما أنها وراء اختفائه، فقد كان على علم بعلاقاتها مع العديد من المتنفذين في البلد. وفكر أنه...

لكن، لماذا تخفي حيدر؟

twitter @mjanen٢٣

إنه ميت... ميت!

كان يردد بينه وبين نفسه، وعقله الدائخ يحاول سباق الوقت من أجل سفره إلى لندن، حيث جنته وحبه الوحيد تنتظره على أصابع من الجمر.

رجع إلى رهام، وانتبه إلى الأوراق الغريبة. قفز، وانفتحت دروب في روحه. ربما يفهم ما يجري. فك وثاق رهام، ولملم الأوراق، وأخذ الظرف الأصفر، واتجه إلى مكتبه. صب لنفسه كأساً من الفودكا، ناسياً إضافة عصيره المفضل، ثم تطلع إلى صوره المختلطة في المرايا. وبهدوء ثقيل القى على رهام نظرة برود، وبدأ يقرأ الأوراق المهترئة، على ضوء شمعدانه الفيكتوري.

كان الصمت مفرطاً.

رهام تغط في سباتها.

والرجال يبتعدون عن بوابة القبو، واثقين أن اليوم انتهى بسلام.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen۲۳

CLAY

SAMAR YAZBEK

صلصال

كانت تفكر أن الحياة ربما تعطيها شيئاً بسيطاً من الأحلام التي غافلتها دائماً. أن تكون هي بنفسها، وبكامل ثقتها، قادرة ولو لمرة واحدة على مجابهة عيني حيدر بقوة، لتصرخ في، وتتمرغ تحت ساقيه، مبدية أسفها الشديد على ما سببته من آلام لقلبه الرقيق.

ولأنها لم تعتد فكرة التأرجح كخرقة أمام الرجل الذي وهبها قلبه، ولأن الحياة تقول إن الوله المباغت ينصب في الطرف الآخر ناشفاً، فإنها لم تفكر يوماً بأن القلب الذي قتلته منذ سنين طويلة مضت، كان يتأرجح بين أزمان مختلفة، هرباً من ولهه. ولم يخطر في بالها أن زيارتها القصيرة إلى البيت القديم ستكون بداية النهاية، ونهاية البدايات التي خطّطت لها. وقلبها يقفز بين ضلوعها، بينما الطائرة تعلو في السماء، وهي تتذكر عيني حيدر الغارقتين في الإغماض، قبل أن تدير ظهرها له وتهبط الدرج كريشة.